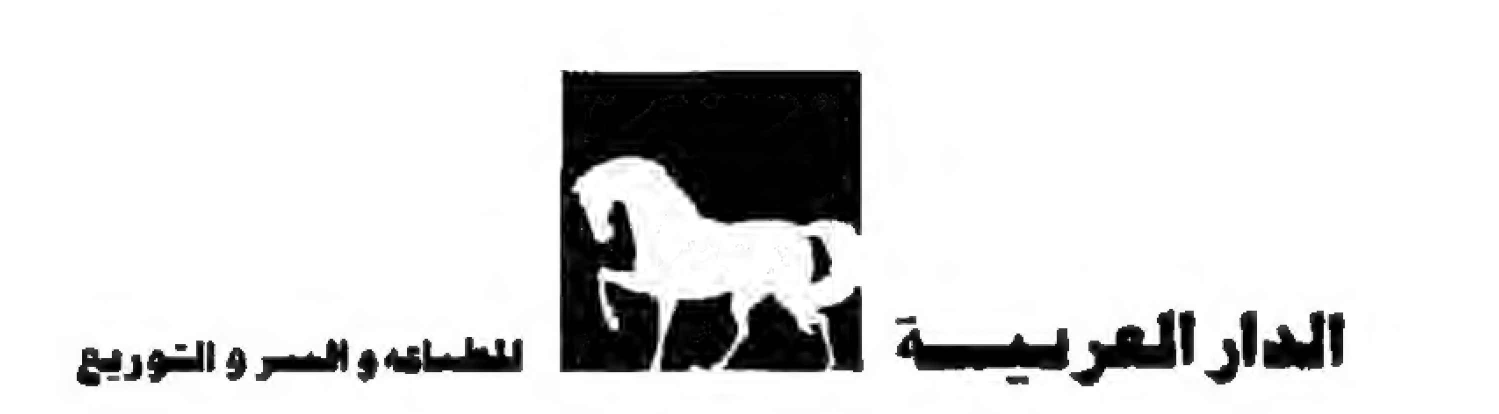
عبد الناصر

أسرار المرض والاغتيال



عادل حموده

الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع


الدار العربيـــة
للطباعة والنشر والتوزيع

الغلاف للفنان - هبة عنايت

الدار العربيـــة للطباعة والنشر والتوزيـع
١١ ش مدكور متفرع من المروه غرب نادى
الصيد ـ الدق ـ القاهـرة ت : ٣٤٨١٠٦٨
فاكسميلى ٣٤٤٤٤٢٩ ـ الرقم البريدى ١٢٣١١

المحتويـــات

الموضـــوع	الصفحة

■ ■ ■

□ ١ □

كيف سمحتم أن يموت ؟

الرواية شهيرة جدا ..

سأل شو اين لاى أول وفد سياسى مصرى يزور بكين بعد وفاة جمال عبد الناصر ..

ــ لماذا مات جمال عبد الناصر ؟

فوجىء أعضاء الوفد بالسؤال .. ويمكن أن نقول إنهم ذهلوا .. أو صُدموا .. فلا أحد فى مصر .. ومنذ العصر الفرعونى ، تساءل « **لماذا** » الموت !

لم يرد أحد على السؤال .. حتى يمر دون تورط .. لكن رئيس الوزراء الصينى كان مصراً على التورط ..

فسأل :

ــ متى ولد عبد الناصر ؟

وكانت الإجابة :

● فى ١٥ يناير سنة ١٩١٨ !

وسأل :

ــ ومتى توفي ؟

وكانت الإجابة :

● فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ !

فقال :

ــ إذن فقد مات عن ٥٢ سنة و٨ أشهر و١٣ يوما !

ثم .. أضاف فى دهشة :

ـــ هل هذا ممكن ؟!

أحس أعضاء الوفد بالحيرة من جديد .. فردوا :

● هذه مشيئة الله !

فقال لهم :

« يجب ألا نحمل الله مسئولية ما نفعل .. لا بد من سبب .. لقد مات عبد الناصر شاباً .. فسن الـ ٥٢ هى سن صغيرة ، إننى الآن فى الثانية والسبعين ، ولا أزال أعمل ، وفى صحة جيدة .. إننى لا أستطيع أن أتصور كيف مات .. وكانت تتوافر له أفضل العناية الطبية .. كيف سمحتم له بأن يموت ؟ » .

« سأوضح لكم السبب .. لقد مات من الحزن والقهر .. مات كسير القلب .. أما الذنب فهو ذنب الاتحاد السوفييتى .. فقد خدعه السوفييت .. ودفعوه إلى مأزق ثم تخلوا عنه ، وتركوا فؤاده يتحطم وينكسر »[1] .

كان ما قاله شو اين لاى هو أول استخدام سياسى لوفاة جمال عبد الناصر على المستوى الدولى .. ففى ذلك الوقت كان الاتحاد السوفييتى ، والصين الشعبية فى أشد مراحل الصدام الأيديولوجى .. أخوّة أعداء .. وعداوة الأشقاء أصعب من عداوة الغرباء .. أحيانا .. فكل شىء فيها مباح .. التشهير .. والدم .. والاتهام بقتل جمال عبد الناصر .

لكن ...

للإنصاف .. فإن « بعض » ما قاله شو اين لاى صحيح .

ثم ...

إن جمال عبد الناصر ـــ مع التسليم بمشيئة الله ـــ مات فعلا فى سن صغيرة .

مات أصغر من متوسط عمر المصريين .. وهو ٥٨ سنة .

ومات أصغر من أعمار حكام غيره .. عاشوا فى ظروف سياسية ، وتاريخية كالتى

---

(١) مجلة الوادى : عدد سبتمبر ١٩٨٢ ، ص ٩ ، نقلا عن هيكل (عبد الناصر والعالم) .

عاش فيها .. وربما أصعب .. وعانوا من أمراض وأوجاع كالتى عرفها .. وربما أشد .

فسير وستون نشرشل ، حكم بريطانيا فى الحرب العالمية الثانية .. وأُصيب بتصلب الشرايين ، وعدم انتظام الدورة الدموية ، وتلف فى المخ ، ومات عن ٨١ سنة .

وشو اين لاى الذى تحمل إعادة بناء دولة الصين الشعبية .. وأصيب بورم فى المرىء ، وورم فى الأمعاء ، وأجرى أكثر من جراحة فى الجهاز الهضمى .. اقترب عمره من الثمانين .

ورحل ماوتسى تونج بعده بشهور ، مع أنه ولد قبله بسنوات .. وقاد الثورة الكبرى فى الصين .. وأُصيب بتوتر فى عضلة القلب ، وانسداد فى بعض شعيرات المخ ، وتضخم فى الرئتين .

وتجاوز ليونيد بريجنيف ، ونيكيتا خروتشوف ، وشارل ديجول ، وجوزيف ستالين ، ثلاثة أرباع القرن .. وتعرضوا لمتاعب حادة فى القلب والمخ والشرايين .

وتجاوز سالازار ، وفرانكو سن الثمانين .. والحبيب بورقيبة أيضا .

وقد عاصر جمال عبد الناصر كل هؤلاء .. واقتسم معهم مشاكل الحكم ، وهموم العالم فى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأخيرة .

ولكنه .. سبقهم فى الرحيل .. وكان الأسرع موتا .

لقد جاءوا قبله .. ورحلوا بعده .

وهذا ما شجع الناس على الاعتقاد بأن موته حادث غير طبيعى .. ومن ثم .. كان الشك فى أنه قُتل !

وقد عبر الشاعر نزار قبانى عن هذا الإحساس ، فور إعلان نبأ الوفاة ، فوجه أبياته إليه قائلا :

« **قتلناك ...**

قتلناك يا آخر الأنبياء ..

قتلناك وليس غريبا علينا ..

قتل الصحابة والأنبياء ..

فكم من رسول قتلنا ..

وكم من إمام ذبحناه وهو يصلى العشاء . »

أى أننا الجناة .. فقد أرهقنا قلبه بمذابح القبائل العربية .. وأجهزنا عليه بما حمله نيابة عنا .. والاتهام مثل الخنجر .. وبرغم أنه جاء مبكرا فإن ما كُشف بعد ذلك من أحداث أيامه الأخيرة يفرض علينا دخول القفص .. وقبول الاتهام .

ودعم الاعتقاد بأنه مات مقتولا .. أنه عاش حياته فى خطر .. وتعرض لمحاولات اغتيال لا حصر لها .. وهو ما فرض عليه الهواجس .. وأتاح لخصومه فى كواليس السلطة العبث براحته .. وجهازه العصبى .

وقد كشفت قضية انحراف المخابرات أن صلاح نصر كان يتلذذ بتحريكه من مكان إلى آخر فى منتصف الليل ، بدعوى الحفاظ على حياته من المؤامرات !!

وحتى الآن .. لا يزال هناك جديد يمكن أن يقال فى المحاولات التى دُبّرت للتخلص من حياته .. وما يُكتشف من تلك المحاولات ، يثير الدهشة ، ويتجاوز حدود الخيال لدى صناع الأفلام السينمائية .

ففى كتاب « صائد الجواسيس » ، الذى ألفه رجل المخابرات البريطانى الشهير « بيتر رايت » ، أنهم حاولوا اغتيال عبد الناصر بوضع عقار الهلوسة فى جهاز التكييف ...

إلى هذا الحد جنح الخيال !

وكان ذلك أحدث ما قيل .. لكن .. ليس آخره .

وقَوّى الاعتقاد بأنه مات مقتولا ... أنه بعد وفاته ، بسنوات ، وسنوات ، خرج من يعلن مسئوليته عن اغتياله .

ففى كتاب عن أعمال التجسس السرية اسمه « الألعاب القذرة » أن وكالة المخابرات المركزية ، تخلصت منه بحقنة أنسولين مسممة .

وفى سجن طرة ، عميل مصرى للمخابرات الإسرائيلية ، يقول إنه اغتال عبد الناصر عندما اختير لتدليك ساقه اليمنى التى التهبت الأعصاب فيها .. فقد دس السم فى الدهان والمراهم .. فكان القتل البطىء .. خطوة ، خطوة .. دون أن يتبه أحد .

والجاسوس الإسرائيلى اسمه على العطفى .. وقد كُشف بالصدفة .. ومن حُسن حظه أن ذلك كان فى عهد أنور السادات ، وبعد توقيع معاهدة الصلح مع العدو الصهيونى .. فلم يُعدم .. وخُفِّفَ الحكم عليه .. لكن .. من سوء حظه أن أنور السادات قُتل قبل أن يفرج عنه إفراجا صحيا !

يضاف إلى ذلك ...

أن مرض جمال عبد الناصر ، وحالته الصحية ، كانا من أسرار الدولة العليا .. لا يجوز الاقتراب منها ... وإلا كان الثمن غاليا .. كما حدث — على حد اتهام البعض — مع الدكتور أنور المفتى .

ولم نعرف أنه أُصيب بمرض السكَر .. وبتصلب الشرايين .

ولم نعرف أن قلبه تعرض لأكثر من أزمة .. وأن الشريان التاجى أُصيب بسدة .. أو جلطة .. عَرّضت جزءاً من القلب للتليف .

ولم نعرف أن البنكرياس شُلَّ .. والساق اليمنى اقتربت من مرحلة الغرغرينا .

وكل ما سُمح لنا أن نعرفه هو أن « الرئيس » أُصيب بالانفلونزا ... أى أنه فقط عطس .. وارتفعت درجة حرارته .

ولأنه كان عملاقا .. ساخرا .. قادرا على إطلاق النكتة ، فقد اعتقدنا أنه فى كامل لياقته الصحية والنفسية .

ولأنه كان يقف على قدميه بالساعات ، يخطب ، وينفعل ، ويهز العالم ، فإننا ، لم نتصور أبدا أنه مريض .. وأن مرضه خطير .

ولأنه حتى اليوم الأخير كان فى الأخبار ، وعلى شاشة التليفزيون .. فقد كان موته مفاجأة .. وكانت المفاجأة مذهلة .

وبعد الذهول ، والدموع ، والتشنج ، كان من الطبيعى أن نسأل .. كيف مات ؟ .. من الذى قتله ؟ .

وكان من الطبيعى أن يستثمر خصومه حالة الحيرة التى وجدنا أنفسنا فيها .. فكان أن قالوا ما ادعوا أنه حقيقة .. وكان أن تجاوزوا شماتة المرض وحرمة الموت ، واستخدموا حادث الوفاة استخداما سياسيا .

وهذا النوع من الاستخدام غريب علينا ...

فالعلاقة بين الطب والسياسة علاقة غير معروفة بالنسبة لأغلب السياسيين والمثقفين فى بلادنا ..

بل ...

لا أتجاوز إذا ما قلت إنها علاقة تبدو ـــ فى كثير من الأحيان ـــ لا وجود لها .

فليس من المعتاد أن نقرأ تفسيرا طبيا للتاريخ ..

وليس من المعتاد أن يفهم السياسيون فى الطب .. مع أن بعض الأطباء يفهمون فى السياسة .

وقد وجدت أن معرفة هذه العلاقة ضرورة ، عندما رحت أفتش عن إجابات لأسئلة حائرة حول ... نهاية جمال عبد الناصر .

والنهاية التى أقصدها ... نهاية الجسد .. نهاية الحياة الدنيا .. نهاية مشوار الرحيل إلى العالم الآخر .. أما الأسئلة الحائرة فكانت .. كيف عاش .. متى أصابه المرض .. هل قتل .. من له مصلحة فى التخلص منه .. ما علاقة المرض بالهزات السياسية التى تعرض لها .. لماذا كان يختار الأطباء حسب قاعدة أهل الثقة لا أهل الخبرة أحيانا .. هل قصفت عمره الإهمال فى العلاج أم التفريط فى الصحة أم العناد وتحميل الجسد ما لا طاقة له به ؟!

ووجدت نفسى غارقة فى دوامة من المصطلحات الطبية .. الكولسترول .. تصلب الشرايين .. جلطة .. الأمبيتين .. الذبحة المكتومة ... وحسبت أن استخدمها دون

أن أتأكد من فهمها بدقة .. فرحت أقرأ عنها ما تيسر من الكتب شبه المتخصصة .. ورحت اختبر ما فهمت من خلال أطباء متخصصين لهم شهرتهم وسمعتهم العلمية .

ثم ... إذا بى أكتشف أدوات جديدة — من خلال المعرفة الطبية — ساهمت فى حسم أحداث ومواقف سياسية ، وصل الجدل فى تفسيرها إلى مداه .

فشكرا للأطباء الذين يسروا لى مهمتى .. بصورة مباشرة أو غير مباشرة .. شريف عبد الفتاح ، وحسن زاهد ، ورامز جندى ، وعبد الرحيم عبد الله ، وفتحى وهبه .. وشكرا للأطباء الذين ساعدونى بما كتبوه .. محمد رفعت ، وأحمد غريب ، وفتحى طمارة ، وإبراهيم فهيم .. وشكرا للأطباء الذين كشفوا لى الكثير من أسرار مرض جمال عبد الناصر وأصروا على الاحتفاظ بحقهم فى عدم كشف أسمائهم إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

ولأن مرض عبد الناصر موضوع سبق فتحه ، وكتب فيه غيرى من قبل ... فالجديد هنا .. تفاصيل لم تنشر من قبل .. وتصحيح لمعلومات لم تتسم بالدقة .. وتفسير مختلف لأشياء كاد الناس أن يستقروا عليها .

أما .. فى موضوع الاغتيال ، فينفرد الكتاب بنشر القصة الكاملة للجاسوس الإسرائيلى على العطفى .. ويكاد يحسم بصورة قاطعة ما قيل عن تدليكه ساق عبد الناصر بالسم القاتل .. حسب ادعاء المخابرات الإسرائيلية .

كذلك .. فإنه يقترب بثقة من موضوع اغتيال الدكتور أنور المفتى .. ويفتح الطريق أمام محاولات حسمه .

وقبل كل شيء ... يسعى الكتاب إلى رسم صورة إنسانية لزعيم كبير ، ليس من السهل تكراره .. من خلال تحاليل الدم .. وخطوط القلب .. وروشتات العلاج .. وأنابيب الاكسوجين .. وأجهزة التنفس الصناعى .. وهى صورة يحل فيها التحدى محل الضوء .. ويحل فيها الوهن محل الظلال .. وتمتلىء بملامح يتداخل فيها الضعف وإرادة الحياة .. الأمل والانتحار .. الخوف من فقدان شيء ما والإحساس بتوقع هذا الفقد .

وربما ... تساهم هذه الصورة فى تغيير أسلوبنا فى التعامل مع كل يمت بصلة إلى جمال عبد الناصر .

فنحن متشنجون فى الهجوم عليه .. وفى الدفاع عنه أيضا .

لإننا فى الحالتين لا نتعامل معه على أنه بشر .. يُخطىء ويُصيب .. ينهزم وينتصر .. يفرح ويمرض .. يعيش ويموت .

وبدون أن نتجاوز هذا الأسلوب .. سينظر البعض إلى الوراء فى غضب .. وسينظر البعض الآخر إلى الأمام فى يأس .

وسيظل التاريخ حاجزا بين الحاضر والمستقبل .. مع أن مهمته تفسير ما حدث .. حتى لا يتكرر .. فيكون الواقع أفضل .. والغد أفضل منه .

والدرس هنا ... أن الشعوب يجب ألا تكون كالزوج المخدوع آخر من يعلم .. إنها يجب أن تعرف كل شيء عن حكامها .. الطفولة .. المرض .. الهواية .. الثقافة .. القدرة العقلية .. الحالة النفسية .. فمصائرنا فى أيديهم .. وسمعتنا كذلك .

وقد حدث أن أُصيب الرئيس أنور السادات باضطراب حاد فى جهازه العصبى ، بعد مظاهرات ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ ، أدى إلى حقنه بنوع خاص من الدواء كل ١٢ ساعة ، وأدى إلى إضافة أخصائىً فى الأمراض العصبية إلى طاقم أطبائه الدائمين .. وأدى إلى محاولات عنيدة لتأكيد الذات ، دفعته إلى رحلته الشهيرة إلى إسرائيل ، ثم دفعته إلى عقد معاهدة الصلح معها .. ثم دفعته أخيرا إلى اعتقال رموز كل القوى السياسية .. فكتب بذلك شهادة وفاته .

وفى الدول الفقيرة التى تحاول خوض تجربة ليبرالية ، تتفتح فيها الحريات السياسية ، وحقوق الإنسان ، يكاد الأمر كله يتوقف على مدى قدرة الحاكم على تحمل مخاض التجربة .. وتكاد هذه القدرة تتوقف على حالته الصحية والعصبية والنفسية ... لذلك .. فليس غريبا أن تجارب كثيرة من هذه العينة انتهت بسبب صداع ، أو ضغط دم مرتفع ، أو تصلب فى الشرايين أصاب الحاكم .

وفى الدول الديموقراطية نفتش المعارضة فى ذمة الحاكم المالية ، وحالته الصحية ، وتصرفاته الشخصية .. وتنشر على الرأى العام ما تتوصل إليه .. ولا يتهمها أحد بالسخافة .. ولا بالتجاوز .. فحياة الشعوب لا ينبغى أن تتأثر بدرجة حرارة الحكام .

وقد اختارت فرنسا جيسكار ديستان حاكما لها لأنه كان أول مرشح لرئاسة الجمهورية يقبل إذاعة التقارير الطبية الكاملة عن صحته .. وكان الفرنسيون يطالبون بذلك ، منذ رحيل جورج بومبيدو الذى مات بسرطان الدم ، وبسبب مرضه لم يكن يتذكر أرقام التفجير النووى ، فاضطر أن يكتبها ، ويحتفظ بها فى سلسلة كان يعلقها حول رقبته ، وكان معنى ذلك سهولة معرفة هذه الأرقام ، وتعريض البلاد لكارثة نووية .

ورفض الأمريكيون اختيار إدوارد كيندى رئيسا لهم ، لأنه ثبت أنه « غش » فى الامتحان وهو طالب فى كلية الحقوق جامعة هارفارد ، وحُرم ـــ بسبب ذلك ـــ من الدراسة لمدة سنة .. ولأنه حاول الهرب من شرطة المرور فى مخالفة سرعة ، وعندما قُبض عليه كان مختبئا فى قاع السيارة .. ولأنه ترك سكرتيرته تموت غرقا ، عندما سقطت بهما السيارة فى بحيرة صغيرة ، فقد نجا بنفسه ، ولم يفكر حتى فى إبلاغ الإسعاف أو البوليس .

إنه غشاش .. وجبان .. وغير قادر على تحمل المسئولية .. فكيف يمكن أن يقود دولة عظمى مثل الولايات المتحدة !

ولا تتوقف الأمثلة ...

فهل سيأتى علينا يوم نعرف فيه عن حكامنا ما يجعلنا نطمئن على أنفسنا وبلادنا ، ونثق فى أن الأمور فى يد نفوس سوية ، وعقول مبدعة ، وأجسام سليمة ، لم يهز كيانها المرض ؟!

هل سيأتى علينا يوم نعرف فيه ذلك مقدما .. لا بأثر رجعى .. ولا بعد فوات الأوان ؟!

ربما ...

فلا شيء أقوى من إرادة شعب يؤمن بأن الاختيار من حقوقه !

ويصر على حياة أفضل !

وأجدنى مضطرا ــ قبل الدخول فى الموضوع وبعد أن طالت المقدمة ــ أن أعيد عبارة قالها ، منذ زمن بعيد ، المفكر الفرنسى « جان جاك روسو » ، كانت نصب عينىّ ، وأنا أصوغ هذا الكتاب فى صورته النهائية .

« إن الرجل الحر هو الذى يفكر بعقله هو لا بعقل غيره » .

عادل حمــودة

القاهرة ــ ٢٣ يوليو ١٩٨٨

□ □ □

□ ٢ □

السكر المتوحش .. يعربد !

القاهرة .. ضاحية الزمالك ..

ذات مساء .. شتاء — ١٩٧٤ ..

جلست أحاور الصحفي السوفييتي ، مراسل صحيفة « كوموسمووليا برافدا » ، أناتولي أجارتيشيف ، حول كتابه الذي كان يعده عن جمال عبد الناصر ، والذي نُشرت ترجمته العربية — فيما بعد — عن دار « التقدم » في موسكو .. في سنة ١٩٨٣ .

قال لي :

إنه « فتش في حياة جمال عبد الناصر بعناية فائقة .. لا كصحفي ، أو باحث .. وإنما كعالم آثار ، أو خبير مدرب في حفريات ما قبل التاريخ »[١] .

ثم ... راح يعدد الأدلة التي تثبت أنه على حق .

مثال ذلك ...

أنه سافر إلى الإسكندرية ، وقابل من تبقى من أسرة والدة جمال عبد الناصر ، السيدة فهيمة محمد حماد ، ومن تبقى من جيرانها في « سيدي بشر » ، و « محرم بك » .. وقد عرف منهم أنها كانت تعاني من متاعب في القلب .. وضيق في بعض الشرايين الرئيسية .. وكانت تعاني من ضعف عام .. أو شبه « أنيميا » بسبب فقدان الشهية .

---

(١) نشر الحديث مع أجارتيشيف في مجلة « الشباب » — عدد يناير ١٩٧٤

ومن المؤكد أنها لم تصب بالسكر .. ولا أحد من أسرتها أيضا .

وقد ازدادت متاعب القلب نتيجة تكرار الحمل والولادة .. ولأن جمال كان أكبر الأبناء ، ولأنه كان يحبها إلى درجة « العبادة » ، ولأنه كان دائم القلق عليها .. « لأن صحتها ليست على مايرام » .. فقد كان يكتب إليها بانتظام كلما بعد عنها .. وكانت ترد عليه ، ليس فقط لأنها كانت تحبه ، وإنما لأنها كانت تعرف بانطوائه على نفسه ، وميله للعزلة ، والوحدة ..

وفجـــأة ..

« انقطعت رسائل الأم إليه في أبريل سنة ١٩٢٦ .. وبعد أن طال الانقطاع تلقى خطابا من أبيه يخبره فيه أن أمه كانت مشغولة بأعمال البيت .. وأن شقيقين صغيرين له انضما إلى الأسرة ، هما « عزالعرب » ، و« الليثي » .. وأخفى الأب عنه خبر تدهور حالة الأم الصحية .. وفي خطاب آخر ، قال الأب : إنها سافرت إلى أسرتها بالإسكندرية ، لأنها اشتاقت إليها .. وفي الحقيقة كان السفر إلى الإسكندرية لمحاولة علاجها من تفاقم مرض القلب .. وكان هذا المرض مفزعا في تلك الأيام ، كما كان من الصعب علاجه .. وكان أن توفيت الأم .. ولم يعرف جمال بالنبأ إلا بعد شهور .. في العطلة الصيفية .. وترك موت أمه في نفسه ، أثرا وصفه ــ فيما بعد ــ بأنه لم يمح » .

في الإسكندرية ، عرف جمال من والديّ أمه ، أنها لم تتعذب قبل الموت .. وكل ما أحست به .. هو ما نعرفه عن الآم « الذبحة الصدرية » .. و« السكتة القلبية » .

وأغلب الظن أن جمال عبدالناصر ورث فرصة الإصابة بمرض القلب من أمه .. وشقيقه عزالعرب أيضا .

ففيما بعد ..

في ٢٠ يوليو ١٩٧٧ ، توفي عز العرب بالطريقة نفسها .. أزمة قلبية فاجأته بمنزله ، عندما كان على وشك الذهاب إلى عمله .. حيث كان مديرا لمكتب صحيفة

« الجمهورية » بمدينة الإسكندرية .. وكان عمره ٥٥ سنة .

أي أنه مات أكبر من جمال عبدالناصر بحوالي ٣ سنوات .

لم يشك عز العرب من مرض السكر .. لكن « الليثي » اشتكى .. مثل جمال عبدالناصر .. وهما لم يرثا هذا المرض من الأب .. وانما من أحد الأعمام .

الأب مات في سبتمبر ١٩٦٨ عن عمر يزيد عن ٨٠ سنة .. أي أنه كان معمرا .. وقد تزوج مرة ثانية ، وأنجب ، وبقيت زوجته الثانية على قيد الحياة ، بعد رحيله .. ولا تزال .

ولم يصب الأب بأمراض خطيرة .. لا قلب ... ولا سكر ... ولا ضغط دم مرتفع .

وأقصى ماتعرض له .. الزكام .. والصداع .. وأحيانا الانفلونزا .

وفي آخر أيامه ، لم يعان من أمراض الشيخوخة ، وإن كان بحكم السن قد شعر بتعب في مفاصل الساقين ، لم يمكنه من المشي إلا لمسافات قصيرة .

أما الذي كان مصابا بمرض السكر ، فهو خليل عبدالناصر ، الذي لم يتزوج ، ولم ينجب ، فتربى جمال عبدالناصر في بيته (في حي النحاسين بالقاهرة القديمة) مع ابن له بالتبني اسمه محمود .

وكان ذلك لمدة تزيد عن ١٠ سنوات .. بداية من سنة ١٩٢٥ .

أي أن جمال عبدالناصر أخذ متاعب القلب من أمه ، وشاركه فيها عزالعرب .

وأخذ متاعب السكر من عمه وشاركه فيها الليثي .

هذه هي جذور المرض في شجرة العائلة .

□ □

بين كل ١٢ مصري ، يوجد واحد مصاب بالسكر .. أو « داء السكرى » كما يسميه الأطباء .. وفي الريف يصاب به الصغار أيضا .. وهو مرض بلا علاج ..

ولا أحد حتى الآن يعرف سببه المباشر .. وشبه المؤكد أنه وراثي .. وأحيانا لا يورث .. أي لا ينتقل من جيل إلى جيل .. والهزات النفسية ليست من مسبباته .. إلا إذا كان كامنا فإنها تعجل بظهوره .. كما أنها تضاعف من أعراضه ونتائجه .. مع أن أغلب المصابين يقولون إن متاعبهم النفسية كانت السبب .. وهذا وهم يريحهم .

والسكر ليس معديا .. وقد يصاحب بعض الأمراض الأخرى ويزول بشفائها .. كما أنه قد يكون من أعراض الشيخوخة أو الحمل .. ولا يستطيع أكثر الناس رعاية لصحته أن يحدد بدقة متى أصيب به .. وأغلب المرضى يكتشفونه عندما يذهبون إلى الطبيب لعلاج أمراض أخرى .

وأعراضه لا حد لها .. وإن كان ليس شرطا أن تظهر كلها على المريض .. وهي تتوزع على المرضى حسب طبيعة أجسامهم .. وحسب استعدادهم .. وحسب درجة تمكن المرض .

والأعراض متنوعة .. الإعياء .. ضعف القوى .. رجفة الأطراف .. القلق .. الاضطراب النفسي .. الأرق .. انحطاط الذاكرة .. التلعثم .. الدوار .. الغثيان .. الجوع .. انخفاض الوزن .. العطش .. ألم في اللسان .. كثرة التبول مع الشعور بالحاجة إلى التبول رغم فراغ المثانة .. الرغبة في حك الجلد .. النزلات المعوية .. فقدان الطاقة الجنسية .. ضعف الإبصار .. التهاب في بعض الأعصاب .. سرعة الغضب .. والخوف من تفاقم المرض .

وتبدأ هذه الأعراض في الظهور عندما يحدث الخلل في عمليات التمثيل الغذائي .. أو يوجد قصور في نشاط « الغدد الصماء » التي تفرز « الهرمونات » .. وعلى الأخص غدة البنكرياس التي تفرز هرمون الأنسولين .

وغدة البنكرياس على شكل منشور .. طولها ١٤ — ١٨ سنتيمتراً .. تمتد أعلى البطن ، وراء المعدة فوق الإثنى عشر .. تفرز عصارة تصبها مع المرارة في قناة مشتركة ، تدخل الأمعاء الدقيقة ، وتساهم في هضم وتحليل الغذاء ، بجميع عناصره .

وفي داخل غدة البنكرياس ، جزء خاص ، من نسيج مختلف ، يسمى « جزر لانك هانس » ، هو الذي يفرز هرمون الأنسولين .

والأنسولين هو الذي ينظم عملية احتراق السكريات في الجسم .. وعندما لا

يفرز ، أو يفرز بكميات أقل ، ينزل السكر دون احتراق ، ودون أن يستفيد منه الجسم ، في البول .. كذلك فإنه يذهب على حاله إلى الدم .. ويظهر ذلك عند تحليل البول والدم .. حيث تكون نسبة السكر أعلى من معدلها الطبيعي .. وحينئذ يتأكد ظهور ووجود مرض السكر .

وحتى سنة ١٩٢١ (بعد ٣ سنوات على مولد جمال عبدالناصر) كان مريض السكر لا يعمر طويلا .. لكن في تلك السنة تمكن الطبيبان الكنديان فريدريك باتنج وتشارلس باست ، من استخراج هرمون السكر من بنكرياس الأرانب والأبقار الطازجة الذبح ، ونجحا في علاج مرضى السكر به عن طريق الحقن .. فاستحقا لقب « سير » من ملك بريطانيا .

وبرغم أنه أمكن ـــ فيما بعد ـــ حقن مريض السكر بحقنة واحدة يومية من الأنسولين بدلا من ثلاث .. فإنه لا يزال من غير الممكن ، حتى الآن ، تعاطي الأنسولين عن طريق الفم ، في صورة أقراص .. فعصارة المعدة الحامضة تفسده .

لكن .. هناك أقراص تسمى الانفنول ، والراستينون ، والناديزان ، والارتوزين أصبحت مستعملة الآن في علاج السكر .. ليست كبديل أو كمنافس للأنسولين الخارجي .. وإنما كمنشط للأنسولين الداخلي ، في بعض الحالات التي يكون فيها كامنا في البنكرياس لا يريد مغادرته .. وهذه حالات نادرة ، ينفرد بها الشيوخ ، وأعضاء حزب شجرة الجميز .

باختصار ... لا يزال الأنسولين سيد أدوية السكر .

وهو ليس علاجا .. وإنما وسيلة تجعل الفرصة متاحة أمام مرضى السكر للاستمتاع بمباهج الحياة .

وقد وصف الشاعر ـــ الرقيق الحس ، البدين الجسم ـــ كامل الشناوي الأنسولين بأنه « أهم اختراع في تاريخ البشرية »[٢] فقد كان أكولا ، يعشق الحلوى ، وكان لا يغادر بيته أو يذهب إلى دعوة طعام إلا إذا كان مضمنا من وجود « أقراص الراستينون » معه ، والتي كان يعتقد أنها « أقراص أنسولين » .. فالسكر الذي كان

---

(٢) مجلة أكتوبر ـــ ١٩٨٨/٦/٢٦ .

عنده ، كان بسبب السمنة .

□□

لا أحد يعرف متى أصيب جمال عبدالناصر بالسكر .. ولا هو عرف .

فأصعب شيء تحديد بدء السكر .. الأطباء يجمعون على ذلك . أيضا .. من الصعب معرفة السبب .. فلا أحد يعرف سبب السكر المباشر .. من المؤكد أنه كان مهيئا للإصابة ، بفعل عوامل الوراثة .. التجارب الإنسانية تؤكد ذلك .

ويقول مستشار الأمراض الباطنية الدكتور شريف عبدالفتاح : إن الشائع أن نحدد وقت الإصابة بالسكر قبل ١٠ ــ ١٥ سنة من شكوى المريض من مضاعفات المرض .[٣]

وقد بدأت مضاعفات السكر تفرض نفسها على جمال عبدالناصر بقسوة في نهاية سنة ١٩٦٨ ، وعلى ذلك فالفترة التي بدأ فيها السكر ، تكون من سنة ١٩٥٤ إلى سنة ١٩٥٨ .

والشائع أنه أصيب بالسكر في صيف ١٩٥٨ ، على أثر مفاوضات شاقة أجراها مع الاتحاد السوفييتي ، بعد ساعات قليلة من قيام ثورة عبدالكريم قاسم في العراق ، حاول خلالها إقناع خروشوف بدعم الثورة ، لكن دون جدوى .

والأصح أنه اكتشف إصابته بهذا المرض في ذلك الوقت .. وبالصدفة .. وبعد تحاليل أجريت له .. ولم تكن التحاليل تجرى له بصفة دورية .. كان يرفض ذلك .. بحجة أنه لا يملك الوقت اللازم لهذه التحاليل .

ولا علاقة لمفاوضاته المؤلمة مع السوفييت بإصابته بهذا المرض .. أو اكتشافه .. فالسكر لا يأتي من الغضب ، أو من شدة الانفعال ، أو من الإرهاق ، أو من المتاعب النفسية .. وإن كانت مثل هذه العوامل تزيده ، وتضاعف من انطلاقه فيما بعد .

وأغلب مرضى السكر ، يزعمون أن المرض ظهر عقب تعرضهم لهزة نفسية ، أو انفعال حاد .. حتى أنهم يعتقدون أن ذلك هو السبب .. وهذا غير صحيح ..

---

(٣) حديث مسجل معه ــ ١٩٨٨/٦/١٦ .

فالأزمات لا يبدأ تأثيرها إلا بعد ظهور المرض .. ويزداد بزيادتها .

وقد رفعت مفاوضات جمال عبدالناصر العاجلة ، والمتعبة ، مع السوفييت ، في ذلك الوقت ، من معدل السكر بحيث أمكن التأكد من وجود المرض في البول ، والدم .

وكان من السهل السيطرة على ارتفاع السكر .. كل الطرق كانت تؤدي إلى ذلك .. الوحدة التي أعلنت قبل شهور مع سوريا .. قيام الجمهورية العربية المتحدة .. بروز جمال عبدالناصر زعيما للأمة العربية .. استجابة السوفييت لطلب دعم ثورة عبدالكريم قاسم .. وتولي د .أنور المفتي مسئولية العلاج .. وهذه قصة أخرى .

كذلك .. فإن جمال عبدالناصر لم يكن أكولا ، ولا شرها للطعام ، ولم يغيره السكر .. مع أنه يفعل ذلك .. والشائع أنه كان يفضل تناول « الجبن » البيضاء مع الخبز الناشف .. حتى أنهم كانوا يحملون له صفائح الجبن في رحلاته .. وقد أنكرت ابنته هدى ذلك .. أي أنها شائعة أغرت المصريين بتصديقها ، وأصبحت حقيقة من الصعب إنكارها .

لقد كان جمال عبدالناصر يأكل مثل أغلب المصريين .. فنجان شاي مع طبعات الصحف الصباحية المختلفة ، يكمله — في الفراش — وهو يجري اتصالاته التليفونية مع بعض مساعديه .. فنجان شاي آخر في حجرة المائدة (الصالة العلوية من البيت) بجوار زوجته .. ثم يتناول إفطاره المكون من الفول المدمس ، والبيض المسلوق ، والجبن .. وفي الغداء (حيث يجتمع شمل الأسرة) كان يأكل الخضار والسلاطة وقطعة من اللحم .. ثم يدخل حجرة نومه ، ليقرأ الصحف العربية ، وملخصات دقيقة للصحف الأجنبية والإسرائيلية ..[٤] وفي العشاء فاكهة وزبادي .

---

(٤) هدى عبدالناصر وحاتم صادق — مجلة الوادي — يناير ١٩٨٣ .

وبسبب تلك الطبيعة لم يكن الطاهي يجد فرصة للتعبير عن مواهبه .. كما كانت ربة البيت قادرة على فرض « الريجيم » المناسب للسكر .. وإن كان تجاوزٌ ماقد حدث في سنواته الأخيرة ، عندما كان يجد تشجيعا على ذلك في بيت أنور السادات .

وفي كتابه « البحث عن الذات » ، يقول أنور السادات ، إنه اتفق مع جمال عبدالناصر ، بعد ظهر يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، على السفر إلى « الإسكندرية للاستجمام والراحة » .. ويقول إن سكرتير جمال عبدالناصر الخاص اتصل به في بيته « ليقول لي إن عبدالناصر سيحضر عندي لتناول العشاء » .

لكن .. ذلك لم يتم .. فقد مات « الرئيس » ! .

وفي صفحة ٢٩٠ من مذكراتها (سيدة من مصر) تقول جيهان السادات :

إنها في اليوم الأخير من حياة جمال عبدالناصر ، عرفت من زوجها أنه سيتناول طعام العشاء معه .. فذهبت إلى المطبخ لتشرف على إعداد الطعام ، وأخبرت الطاهي « بأن الرئيس سوف يتناول طعام العشاء » عندهم ، واقترحت عليه طعاما وصفته بأنه « طعام بسيط » .. « كباب » .. « محشي ورق عنب » .. و« سلاطة » .

وإذا كان هذا الطعام .. « بسيطا » .. خاصة بالنسبة لمريض مثل جمال عبدالناصر مصاب بالسكر (كما عرفنا) وزيادة الدهون في الدم ، وتصلب الشرايين ، وانسداد الأوعية الدموية (كما سنعرف) .. فماذا يكون الطعام « الثقيل » ؟! .

وفي الأيام الأخيرة .. كان الطعام المفروض على عبدالناصر لا يتجاوز الخضار المسلوق ، بالزيت والليمون .. وكانت زوجته تصر عليه ، وتشرف على إعداده ، وتقديمه ، بنفسها .. وأغلب الظن .. أنه كان يضج من هذا الطعام ، ومن النظام الصارم الذي يحيط به .. ومن ثم كان يأخذ راحته في بيت السادات .. سواء في القاهرة .. أم في الإسكندرية .

والحقيقة .. أن هذا التجاوز الذي وصل إلى حدود « الانفلات » ، كان غريبا عليه .. تماما .. فهو — كما قلنا — لم يكن شرها في الطعام .. وهو — كما يؤكد

هيكل — لم تكن له « شهوة في طعام أو شراب » — (ص ٢٥ من الطبعة الرابعة لكتاب لمصر لا لعبد الناصر) .

ويضيف هيكل :

« وكان أفخر الطعام عنده على حد تعبيره « لحما وأرزا وخضارا » .. و(**ماذا يأكل الناس غير ذلك**) .. كان تساؤله ذلك مشوبا بالدهشة والاستغراب حينما كنت أقول له في بعض المرات مداعبا (إن الدنيا تقدمت ، ومع التقدم ، تطور المطبخ ، ولم يعد الطعام وسيلة للشبع ولكنه أصبح فنا من فنون الحياة) .. وكان ذلك في رأيه تجديفا يكاد يقترب من الكفر بنعمة الله » .

فما الذي حدث ؟! .

هل أحس بأن الدنيا تتسرب من بين يديه ، دون أن ينال حظه منها ؟!

هل السبب ، مرض السكر ، الذي يجعل صاحبه في حالة شراهة مفاجئة نحو الطعام ، فيندفع إليه ، مهما تكن النتائج ؟ .

أم أنه « شيطان » الآخرين الذي « زين » له « شهوة » الحياة في وقت غير مناسب ؟! .

□ □

في ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ .. قبل وفاة جمال عبدالناصر بتسع سنوات تماما .. وقع انفصال سوريا عن دولة الوحدة ، بانقلاب عسكري ، يميني ، شجعته المخابرات المركزية .. وقد عاش جمال عبدالناصر ساعات من القلق والحيرة ، لا يعرف كيف يواجه ماحدث .. هل يرد على الانقلاب بالتدخل العسكري ، ويترك القوة تحدد المصير .. أم يقبل ماحدث ، ويستسلم للواقع ، حتى لا تسفك دماء السوريين ، بأسلحة المظليين المصريين .. وكان أن فضل الاختيار الثاني .. وكان أن انطلق السكر متجاوزا حدود الأمان .. وارتفعت نسبته في الدم إلى ٥ جرامات في اللتر الواحد .. وهبطت كميات التموينات الاحتياطية في جسمه .. وبدأ اللعاب يجف .. والإحساس بالعطش يزداد .. [illegible] تكسر البروتين !! .

ولا جدال في أن الانفصال كان بداية العد التنازلي لهبوط نجمه السياسي .. فكل ماجاء بعد الانفصال ، كان يعمل ضده .. عودة المشير عبدالحكيم عامر المهينة من دمشق .. زيادة نفوذ المشير وجماعته داخل وخارج الثكنات .. انفلات الكثير من خيوط القوة ، والسلطة من بين يديه .. ماجرى في اليمن .. انحياز صلاح نصر وبعض مساعديه إلى خصومه في صراع الكواليس — الخفي والمكتوم — على الحكم .. إن ذلك كله جعل منحنى القوة ينزل ، ومنحنى السكر يرتفع .

ففي السياسة ، والمرض .. كل فعل له رد فعل .. مساوٍ له في المقدار ومضاد في الاتجاه .

ويروي محمود الجيار :

إن المشير نزل من الطائرة التي حملته من دمشق ، وهو « في حالة واضحة من العصبية والذهول » وذهب مع كمال الدين حسين (الذي كان في استقباله) إلى بيت عبدالناصر .. وهناك وجدا عبدالناصر يسمع أقذع الشتائم من الإذاعات السورية .. ثم .. فجأة نهض ، وترك الحجرة ، وانصرف إلى الحمام ، ولكن طبعا لم استطع أن أفتح عليه الباب .. ووقفت أنصت إلى سعاله وأنا أدعو الله ألا يحدث شيء .. ثم فجأة ، توقف السعال ، وتوقف أي صوت آخر ! .. وعندئذ لم أستطع إلا أن أغامر وأفتح الباب .. ووجدته واقفا في الممر الذي وراء الباب صامتا ، يفكر بحزن .. ويبدو أنه كبر عدة أعوام »(٥) .

وتدخل الدكتور أنور المفتي من جديد ليواجه السكر .. وبداية مضاعفاته ! .

ففرض على جمال عبدالناصر إجراء التحاليل ثلاث مرات يوميا ، مهما تكن مشاغله ، ومهما يكن المكان الموجود فيه .. واستجاب جمال عبدالناصر .. كذلك فإن جرعة مكثفة من الأنسولين ، تكفيه ٢٤ ساعة ، كان يُحقن بها ، كل صباح .. وكانت الجرعة تحوي ٨٠ وحدة علاجية .. أي ٤ أضعاف ماكان يُحقن به من قبل .

---

(٥) ضياء الدين بيبرس — الأسرار الشخصية لجمال عبدالناصر — الناشر · مكتبة مدبولي — ص ٦٩ .

ولم تكن هناك مشكلة فى الطعام .. لكن .. كانت المشكلة فى ضبط الانفعال ، وإبعاد جمال عبد الناصر عنه .. وتقليل مجهود العمل .. وبدأ الكلام لأول مرة عن ضرورة الراحة .. وعن ضرورة الإقلاع عن التدخين .

كان جمال عبد الناصر يدخن ٨٠ سيجارة فى اليوم .. وقد علَّمه عبد الحكيم عامر هذه العادة ، عندما كانا ضابطين حديثى التخرج ويقطنان معاً فى السكاكينى بمنطقة الظاهر .. وكان فى البداية يدخن من علبة سجائر عبد الحكيم عامر ، ثم أصبح يشترى سجائره .. ومع ازدياد الأعباء تزايد عدد السجائر[٦] .

ولأنه كان يستمتع بالتدخين ، فلم يقتصر على نوع واحد من السجائر .. وفى بداية الثورة لاحظ الدبلوماسيون الأجانب أنه يفضل سجائر « كنت » الأمريكية .. وبعد حرب « السويس » ، تحول إلى سجائر « كرافن » الإنجليزية .. وقبل أن يقلع نهائيا عن التدخين فى سنة ١٩٦٨ كان قد تحول إلى السجائر المصرية .

وفى تلك الفترة أيضا ، بدأ الملح يخف من الطعام .

وبدأ الفحص الشامل يصبح عادة أسبوعية .

□ □

بعد وفاة الدكتور المفتى (يناير ١٩٦٤) بثلاثة شهور ، تولى الدكتور منصور فايز (أستاذ الأمراض الباطنة ـــ كلية طب قصر العينى) مهمة ومسئولية العلاج .

تم ذلك بترشيح من طبيب الرئاسة أحمد ثروت .. والمسئول عن القسم الطبى بها .. وكان ضابطا أيضا .. وكان على علاقة شخصية قوية بالرئيس .. وقد أُبعد ، أو ابتعد عنه ، بعد يونيو ١٩٦٧ .. وربما كان السبب صلته بالمشير .. وربما كان السبب يرجع إلى ضعف صحته .. والمؤكد أنه تُوفى فى سنة ١٩٧٣ .

وكان الدكتور أحمد ثروت الطبيب المرافق للرئيس .. ثم ترك هذه المأمورية لطبيب أصغر منه هو د . الصاوى حبيب ، وتفرغ لرئاسة القسم الطبى إلى عام ١٩٦٧ .

وكان يساعده فى القسم الطبى برئاسة الجمهورية طبيبان من جيل د . الصاوى حبيب .

---

(٦) عبد المجيد فريد ـــ مجلة الدستور ـــ ٢٣ / ٩ / ١٩٨٥

ولم يكن هذا القسم مقصوراً على الرئيس وأسرته ، وإنما كان يتولى علاج كل موظفى الرئاسة بغير استثناء .. ودون تخصص محدد .

لذلك ... فقد كانوا موظفين يعالجون موظفين ... بكل ما تحمل العبارة من معان .. ومن عيوب بيروقراطية .. ولا أُضيف !

ولم يكن بعضهم يفخر بتحسين مستواه العلمى ، بقدر ما كان يفخر بأنه استُدعي لعلاج أحد أفراد أسرة الرئيس .. أو المشير .. أو مدير المخابرات العامة ... إلخ .

ويمكن أن نقول إن قاعدة « أهل الثقة » كانت القاعدة الرئيسية المعمول بها عند اختيارهم .

لذلك ...

كان من الصعب عليهم (لا أقول من المستحيل) فرض إرادتهم كأطباء ، على الرئيس ــ المريض .. ومع مريض عنيد مثل جمال عبد الناصر ، بدا ذلك نوعا من التفريط فى العلاج .. ولأنه لا أحد منهم انسحب برغم ذلك ، فإن القصور والإهمال يجب أن يكونا من نصيب البعض على الأقل .

فلا جدال فى أن حالة جمال عبد الناصر الصحية أخذت فى التدهور .. وبين فترة وأخرى كان السكر يرفع الراية الحمراء .. وعندما لا يجد من يوقفه عند حده ، كان يواصل المشوار .. وهذا بالتحديد ما جعل أطباء لهم شهرتهم وسمعتهم العلمية والمهنية ، يؤكدون ــ لى فيما بعد ــ أن السكر توحش فى جسد جمال عبد الناصر .. وتمكن منه بسرعة مخيفة .. أسرع مما يمكن تصوره .. مع أخذ كل الظروف السياسية والنفسية فى الاعتبار !

وقد رفع السكر راية الخطر عالية فى سنة ١٩٦٤ ، عندما هاجمت مضاعفاته جمال عبد الناصر وهو يزور مشروع مديرية التحرير ، مع رئيس الوزراء السوفييتى خروتشوف ، الذى كان فى زيارة رسمية لمصر .

فأثناء الرحلة ، توقف الموكب .. وجاء من يقول للدكتور الصاوى حبيب (الطبيب المرافق فى سيارة إسعاف الموكب) : « الريس تعبان »[٧] .

---

(٧) مجلة صباح الخير ــ ٦ / ١١ / ١٩٨٦ .

وأسرع إليه الطبيب ــ الشاب ليجده فى « حالة غثيان » .. وتسيطر على جهازه الهضمى « رغبة فى القيىء » .. وهذه الأعراض تتشابه مع أعراض ارتفاع نسبة الحموضة فى المعدة .. ويخدع هذا التشابه بعض الأطباء ، فيكون العلاج ساذجا .. أقراص مضادة للحموضة .. وحقن تهدىء من انقباضات المعدة .. ويمكن أن تنتهى الأعراض الظاهرية .. ويشعر المريض بالارتياح .

لكن .. مع مريض يعربد السكر فى جسمه ، مثل جمال عبد الناصر ، تكون مثل هذه الأعراض إنذارا بما هو أسوأ .. الكوما ــ Koma .. أو الغيبوبة .. وبداية وجود مادة الأسيتون فى الدم .. وهذا الإنذار يأتى فى صورة إعياء .. واضطراب .. وغثيان .. وفقدان الشهية .. ورغبة مستمرة فى التثاؤب .. وتغير فى التنفس ، بحيث يزداد عمقا ويقل عددا .. وارتخاء فى العضلات .

وأغلب الظن أن هذا الإنذار لم يجد من يلتقط إشارته .

فكان أن واصل السكر توحشه .

وبعد ٣ سنوات وصل إلى مرحلة الأسيتون ــ Aceton .

ويقول د . الصاوى حبيب :

« الأسيتون من مضاعفات مرض السكر ، فعندما لا يجد الجسم مادة نشوية ، أو مادة كربوهيدراتية ، يحرقها كى يحصل على الطاقة نتيجة فقد الجلوكوز فى البول ، يحتاج الجسم إلى طاقة فيأخذها من الدهن . وناتج حرق الدهن للحصول على طاقة هو الأسيتون . وهذا لا يحدث إلا عندما يزيد السكر جدا ، ويقل الأنسولين ، ويصبح الجسم فى حاجة إلى طاقة من مصدر غير نشوى »[٨] .

وهذا التفسير الذى يقدمه طبيب الرئيس ليس دقيقا .

والتفسير الأصح ... أن السكر يزيد فى البول والدم بسبب اضطراب فى كيمياء التمثيل الغذائى للمواد الكربوهيدراتية .. وتؤدى زيادة السكر إلى اضطراب فى هضم المواد الدهنية .. فلا يتم احتراقها كلها .. بل يكون الاحتراق فى حدود درجة

---

(٨) مجلة التضامن ــ ١٨ / ٦ / ١٩٨٨ ــ ص ٢٣ .

متوسطة ، ينتج عنها تكوين الأسيتون ، والخل ، وأحماض أخرى .. وهذه العناصر تجمع فى كلمة واحدة هى « عناصر الكيتون — Keton » .. وهى عناصر سامة يسعى الجسم إلى التخلص منها ، فى البول ، بعد تنقيتها من الدم .. وأحيانا يوجد فى الدم إذا ما زاد عن الحد .

أى أن الأسيتون لا يظهر بسبب « احتراق الدهن » ، وإنما بسبب « عدم احتراق الدهن » .. وشتان بيت التفسيرين !

والأسيتون (وغيره من عناصر الكيتون) مواد سامة ، تذهب — مع الدم — إلى الخلايا ، فتؤثر عليها .. وبالتالى على نشاط الجسم ، فيشعر المريض بانحطاط القوى ، لضياع الوحدات الحرارية (الكالورز) غير المحترقة فى البول .. فكل جرام واحد من الأسيتون يعادل ٧,٥ من السعرات الحرارية .

وفى الحالات الشديدة ، تعجز الكلى عن تنقية الدم ، من الأسيتون وغيره من الأحماض السامة ، فتتراكم فى الدم .. ويكون الطريق ممهدا أمام الغيبوبة أو الكوما .

ودون تحاليل ، يسهل على المريض ، ومن حوله ، اكتشاف الأسيتون .. حيث تفوح من المريض رائحة تشبه التفاح .

والحالات البسيطة من الأسيتون يمكن السيطرة عليها بنظام الأكل .. أما الحالات الشديدة .. فالأنسولين هو الحل .. لكن .. مع تعديل فى الكميات ، وعدد مرات الحقن .

ولا جدال فى أن حالة الأسيتون عند جمال عبد الناصر كانت من الحالات الشديدة .. وكان من المحتمل أن تدفع به إلى حافة الغيبوبة ... لذلك ، فقد أعلنت حالة الطوارىء .. وانضم الدكتور على البدرى إلى الدكتور منصور فايز .. وتقرر أن تنخفض جرعة الأنسولين من تركيز درجة ٨٠ وحدة إلى تركيز ٢٠ — ٤٠ وحدة .. على أن يزيد عدد مرات الحقن من مرة واحدة يوميا (حقنة ممتدة المفعول) إلى ٣ مرات (حقنة محدودة المفعول) .

ومثل عدد مرات الحقن يكون عدد مرات التحاليل .

لذلك ... كان انضمام د . ناصح أمين (أستاذ التحاليل) إلى فريق الأطباء ضرورة .

والدكتور ناصح أمين كان محل ثقة جمال عبد الناصر .. وكان يأخذ العينات بنفسه ، ويحللها فى معمله .. وكان يقوم بهذا العمل بانتظام .. ودون مقابل .

ولو صح ما قاله د . الصاوى حبيب (المصدر السابق ــ ص ٢٤) من أن الأسيتون زال من جسم جمال عبد الناصر بعد ٢٤ ساعة لكان الأطباء قد فعلوا الكثير .. والأكثر أن جمال عبد الناصر نفسه يكون قد أحس بالخطر .. فتعاون مع الأطباء .. ونجحوا جميعا .

على أن عدم استمرار الأسيتون لا يعنى أن أسبابه قد زالت .. ولكن .. يعنى أن أسلوبا جديدا فى علاج السكر قد بدأ .. وهو الأسلوب نفسه الذى اتبعه الأطباء وقت الأزمة .. أى أن النظام الطارىء أصبح نظاما دائما .

وهكذا ... كان على جمال عبد الناصر كل صباح أن يستقبل د . ناصح أمين ، ويقدم إليه عينتين للتحليل .. الأولى بعد استيقاظه مباشرة (الساعة السابعة) والأخرى عند قدوم الطبيب (الساعة التاسعة) .. وكان واضحا أن الرئيس قد أصبح لا يقل انضباطا عن الطبيب .

وكجزء من « روشتة » العلاج ، كان على جمال عبد الناصر أن يبذل مجهودا بدنيا ، محسوبا ، بدقة .. فكان يتمشى فى حديقة بيته ، كل يوم ، بعد العصر ، فى حوالى الساعة الخامسة ، برفقة زوجته ، أو أحد أحفاده .. وبعد ذلك يعود إلى التقارير ، والصحف ، والإذاعات الأجنبية التى كان يعرف مواعيدها ، ومكانها ، والتى كان ــ كما تقول ابنته الكبرى ــ (مجلة الوادى ــ المصدر السابق) مولعا بها ، خاصة القسم العربى من هيئة الإذاعة البريطانية (B . B . C .) .

وتضمنت روشتة العلاج البند المعتاد .. المستحيل .. ضبط الانفعال .. والابتعاد عن مصادر الإزعاج .

ولأن هذا البند لم يتحقق (برغم محاولات جمال عبد الناصر) فإن انفلات السكر ، وانطلاقه ، اتخذ سرعة جنونية .. وكان أن مد أنيابه إلى الجهاز العصبى .. وراحت الدوائر تدور .. وتدور فى اتجاه النهاية !

□ □ □

□ ٣ □

هل قُتل الدكتور المفتى ؟

فى ٥ أغسطس ١٩٧٥ ، وقع حادث غير متوقع ، كانت له علاقة قوية بمضاعفات مرض السكر فى دم جمال عبد الناصر الذى كان قد توفي قبل حوالى خمس سنوات .

تقدمت إلى النائب العام ، روجة الدكتور أنور المفتى ، السيدة فاطمة العبد ، ببلاغ طالبت فيه بالتحقيق فى أسباب مصرعه ، بعد أن قالت إنه مات مسموما .

كان نص البلاغ كالتالى :

« السيد / النائب العام

« جاء فى ملاحظات النيابة فى قضية مصطفى أمين ما يأتى بالحرف الواحد :

بمطالعة قضية انتحار المشير عبد الحكيم عامر ، تبين أن التحقيق تناول أنواع السموم ومدى تداولها . وإذ سُئل صلاح نصر فى ذلك التحقيق ، فقرر أن إدارة المخابرات العامة (فى عهده) تحوز بعضا من أنواع السموم لاستعمالها فى ظروف عديدة ، تناول بعضها فى ذلك التحقيق .

ولما كان زوجى الدكتور أنور المفتى رئيس قسم الأمراض الباطنة ، والطبيب الخاص للرئيس جمال عبد الناصر قد مات مسموما .

ولما كنت أعلم أن سبب قتله هو أنه أدلى برأى لم يرض مراكز القوى (تقصد جمال عبد الناصر) فى ذلك الحين .

فإننى أطلب التحقيق فى أسباب مصرعه ، وأطلب ضم اعترافات صلاح نصر فى قضية المشير التى أشار إليها مصطفى أمين فى أقواله أمام النيابة فى قضية التعذيب .

إن من حق الشعب أن يعلم الحقيقة فى سبب مصرع طبيب من أكبر أطباء مصر وأستاذ من أكبر أساتذة الطب فيها .

إن زوجى أسلم الروح فى ١٦ يناير سنة ١٩٦٤ ، وقد أثبت النائب العام فى التحقيق أن السم القاتل استورده صلاح نصر من الخارج فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦٢ » .

فاطمة العبد

٥ أغسطس ١٩٧٥

□ □

عودة إلى الوراء .

ولد الدكتور أنور المفتى فى ٧ مارس سنة ١٩١٣ .. بمدينة القاهرة .. تخرج فى كلية طب « قصر العينى » فى سنة ١٩٣٦ .. عمل نائبا بقسم الدكتور عبد العزيز إسماعيل .. أقدم طبيب مصرى ، تخصص فى الأمراض الباطنة .. ثم معيدا بقسم الكيمياء الحيوية .. فى سنة ١٩٤٠ ، حصل على الدكتوراه فى الأمراض الباطنة من جامعة القاهرة .. وبعد ٤ سنوات حصل على عضوية كلية الأطباء الملكية فى لندن .. تدرج فى المناصب الأكاديمية حتى أصبح رئيس قسم الأمراض الباطنة فى كلية طب القاهرة .. فى سنة ١٩٥٢ أنشأ أول وحدة بحوث طبية للغدد الصماء ، أُطلق عليها اسمه فيما بعد .

قدم أبحاثا متطورة إلى كلية « هاوسميث » للدراسات الطبية العليا فى لندن ، وجامعة « كولومبيا » فى نيويورك .

فى سنة ١٩٥٤ بدأ تجاربه المعملية على دواء جديد ضد تصلب الشرايين .. والطريف أن المهندس سيد مرعى كان يرسل له « الكتاكيت » اللازمة للتجارب .. وبعد ٥ سنوات كاملة ، قال : « أستطيع أن أقول إننا تقدمنا خطوة من خطى النمل » .. وكان ذلك منتهى التواضع فبرغم فقر الإمكانيات فإن ما توصل إليه استُثمر — فيما بعد — فى إنتاج أدوية إذابة الدهون فى الدم ، وتخفيض نسبة الكولسترول ، واحتفاظ الشرايين بمرونتها .

كان ضد الإفراط فى تناول الفيتامينات والمقويات .. ووصف هذا الإفراط « بجنون تخيل القوة » .. وأمام مؤتمر للأطباء ، عقد فى أول مايو ١٩٦٠ ، بالقاهرة ، ألقى

بحثا أشار فيه إلى سوء استعمال الكميات الكبيرة من الفيتامينات على غير هدى ، ونصح بضرورة معرفة النقص النوعى لهذه العناصر .. وقال : إن مفعول هـ ـ٣ (لإعادة الشباب) نفسانى وليس عضويا .

آخر بحث انتهى منه قبل وفاته ، أرسله إلى المؤتمر العالمى للكيمياء الحيوية ، الذى عقد فى نيويورك فى مايو ١٩٦٥ .. بعد رحيله بأكثر من عام .. وفى البحث أثبت عكس ما هو شائع ، وهو أنه ليس صحيحا أن السكريات هى الوقود الرئيسى فى الجسم .. وأكد أن الدهنيات هى المصدر الرئيسى للطاقة فى الجسم ، وأن حركة الدهنيات فى الدم أسرع ٢٠٠ مرة من حركة السكريات .. بل إن استعمال السكريات بحالتها مسألة نادرة إلى حد كبير .. فهى لا تستخدم بحالتها إلا بواسطة الجهاز الهضمى فقط .

بعد الانتهاء من قراءة البحث ومناقشته ، وقف المشتركون فى المؤتمر ، وراحوا يصفقون للطبيب المصرى ، الذى واصل رسالته العلمية حتى بعد وفاته !

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد .. ففى أكتوبر ١٩٧٩ (بعد أكثر من ١٥ سنة على رحيله) أثبتت الأبحاث الأمريكية أن السبب المباشر لنقص هرمون الغدة الدرقية ، وتدهور بعض حالات مرض السكر يرجع إلى نقص مادة غير فعالة تسمى « ثلاثى يودور الثيرونين » .. وقد كان لهذا الكشف أهمية كبرى ، حيث يحد من مشكلة تصلب الشرايين ، ومضاعفات مرض السكر ... والمذهل أن الدكتور أنور المفتى هو أول من توصل إلى هذه النظرية .. والشهادة هنا لتلميذه ، الدكتور أحمد عبد العزيز إسماعيل ، الذى واصل الدراسة فى هذا الاتجاه من بعده .

□ □

كان يُوصف بأنه « **نابغة** » .

وبأنه « **عبقرى** » .

لكن .. طبيب الأمراض الباطنة البارع ، الدكتور شريف عبد الفتاح ، يصر على أن مثل هذه الأوصاف لا توفيه حقه .. وقد قال لى : إنه عرفه عن قرب ، وإنه كان أستاذه ، وإنه كان يتمتع بمقدرة فائقة على الفهم والاستيعاب والاستنتاج ، ونقل

المعلومات إلى الآخرين باللغة التى يفهمونها ، ودون ملل .

وقال لى : إنه كان يرفض أن نتعامل مع المريض على أنه « **كبد** » فقط .. أو « **أمعاء** » فقط .. حسب أوجاعه ، أو تخصصاتنا .. وإنما لا بد أن نتعامل معه كإنسان ، يعيش فى مجتمع ، له ظروفه الخاصة ، ويجب أن نأخذ فى الحسبان ، ثقافته ، ومعتقداته ، وحالته النفسية .

ما قاله د . شريف عبد الفتاح حقيقة كان يؤمن بها د . أنور المفتى .. وهذا الإيمان دفعه ــ بجانب دراسة الطب ــ إلى دراسة الفلسفة ، والتاريخ ، والاجتماع .. كما أنه كان يلتهم روايات نجيب محفوظ ، ويفضل مسرحيات توفيق الحكيم ، ويرى أن إبداع العقاد الحقيقى فى دراسة الشخصيات لا فى نظم الشعر .

كذلك يسجل له أنه كان أول أستاذ جامعى يربط أبحاثه بالمجتمع الريفى .. وقد ذهب فى صيف ١٩٦٣ إلى قرية « سحالى » التى سُميت باسمه فيما بعد ، لدراسة متاعب أهلها على الطبيعة ، وتحدث جمال عبد الناصر بإعجاب عن هذه التجربة ، وسخر من الوزراء « **الذين لم يتعلموا الدرس من الدكتور المفتى وبقوا فى مكاتبهم** » .. وكان أن تبعه إلى « سحالى » وزراء الصحة (د . النبوى المهندس) والتربية والتعليم (د . عبد العزيز السيد) والبحث العلمى (صلاح هدايت) .. وكان أن أصبحت القرية المصرية المجهولة تحت الأضواء .

وبعد رحيله بأربعة أيام ، نشرت صحيفة « الأهرام » مقالا له على يومين متتاليين بعنوان « تنمية الريف يجب أن تنبع من القرية لا من المكاتب » .

وكان المقال آخر ما كتبه .

□ □

مثل جمال عبد الناصر كان يهوى التصوير الفوتوغرافى والسينمائى .

بالإضافة إلى ذلك كان يهتم بالشعر والنحت والرسم .

لذلك .. فقد كان يجيد فن الحديث .. وكان جمال عبد الناصر ينصت إليه إذا ما تكلم .. خاصة إذا كان الكلام فى التاريخ أو فى السياسة .. وكان يتفقان فى كثير من الآراء .. مثل فشل التجربة الليبرالية فى دول العالم الثالث .. وضرورة

وجود مخاض عظيم فى التجارب العظيمة .. والحاجة إلى نمط ديموقراطى مختلف عن النمط السائد ، يناسب خطط التنمية الاجتماعية ، والاقتصادية التى تنقذ الدول النامية من أنياب التخلف .

واختلفا على دور الفرد ـــ الزعيم فى نهضة الشعوب .

كان جمال عبد الناصر يرى أن هذا الدور « مسألة قدرية تفرضها الظروف » .

وكان أنور المفتى يرى أن هذا الدور لا يتجاوز « دور الشرارة » .

ولأنه لا اتفاق ـــ عادة ـــ فى مثل هذا النوع من الجدل ، فقد كان جمال عبد الناصر ، ينهى النقاش قائلا :

« **العبرة بالتجربة** » .

أما أنور المفتى فكان يرد :

« **العبرة بالنهاية** » .

لقد كان بالنسبة إلى جمال عبد الناصر أكثر من طبيب .. وأكثر من صديق .. والعبارة المناسبة هنا هى « أنه كان يستريح إليه » .. تماما .. كما كان الحال ، مع طبيب شهير آخر ، لم يُعرف عنه أنه كان من جلساء « **الرئيس** » .. مع أنه لم يكن فى حاجة إلى تخصصه .. هو الدكتور أنور الأتربى .. شيخ أطباء الأمراض الجلدية فى مصر .. وهو شخص جرىء .. زاهد .. يقول ما عنده دون خوف .. وكان جمال عبد الناصر ـــ على حد تعبيره ـــ « **بيحب يتكلم معاه** » .

وقد تعرف الدكتور أنور المفتى على جمال عبد الناصر ، بعد اكتشافه مرض السكر فى سنة ١٩٥٨ .. ويقول الفريق طبيب رفاعى كامل « إنه هو الذى اختار أنور المفتى لجمال عبد الناصر » ـــ (مجلة أكتوبر ٢٦ يونيو ١٩٨٨ ـــ ص ٦) .. على أساس أنه كان فى ذلك الوقت يملك القدرة على اختيار الأطباء .. فقد كان رئيسا للقسم الطبى بالقوات الجوية ، كما كان الطبيب المسئول عن « متابعة صحة المشير عبد الحكيم عامر » .. لكن .. هذه الرواية لا أساس لها من الصحة .. فالدكتور المفتى ـــ الذى كان أشهر أطباء مصر فى علاج مرض السكر ـــ لم يكن فى حاجة إلى من يختاره .. فقد كانت شهرته تسبقه .. كما أنه ثبت ، فيما بعد ، أن الدكتور

رفاعى كامل استجاب — فى بعض الأحيان — للضعف البشرى .. ولم يعجبه أن يصبح الدكتور المفتى قريبا من رئيس الجمهورية .. ويبدو أن هذا الضعف تجاوز الحدود المقبولة ... إلى ما هو أكثر من ذلك .. ولا أضيف !

وبينما كان الدكتور المفتى قادرا على مواجهة جمال عبد الناصر إلى حد الاختلاف ، لم يستطع « الفريق » طبيب رفاعى كامل أن يتحدث عنه إلا بعد رحيله بحوالى ١٨ سنة .. وبعد أن تجاوز السبعين .. وتمكن منه مرض السكر .. فأضعف من قدرته على الحركة وعلى الإبصار .. وأصبح فى حاجة إلى زوجته كى تنشط ذاكرته السياسية والطبية !

بل ... لا أتجاوز إذا ما قلت : إن إحساس الدكتور رفاعى كامل بالفخر — لأنه أجرى الكشف الطبى على جمال عبد الناصر وأنور السادات ، وزكريا محيى الدين ، وعبد اللطيف البغدادى ، وجمال سالم ، وحسن إبراهيم ، عند دخولهم المدرسة الحربية — جاء متأخرا جدا .. بعد ٣٦ سنة على قيام الثورة .

ولعل قدرته الفائقة على الصمت هى التى جعلته الطبيب الوحيد الذى يظل فى الخدمة حتى رتبة « الفريق » !

□ □

كان الدكتور أنور المفتى طبيبا شهيرا حتى وفاته .. بل إن شهرته نافست شهرة نجوم السينما والأدب والكرة .. وكان ذلك يمثل ظاهرة جديدة لم يشهد مثلها المجتمع المصرى من قبل .. وقد كانت أخباره الطبية والشخصية أخبارا مفضلة فى صحافة تلك الأيام ؛ حتى إن إحدى المجلات اهتمت برصد برنامجه اليومى ، فكتبت : « إنه قادر على العمل ساعات طويلة . يسهر الليل بطوله . ثم يقوم فى الصباح ، بعد أن ينام ساعة أو ساعتين ، فى أتم نشاط . وكان زملاؤه يتعجبون من قدرته على النوم فى أى وقت ، ثم قدرته على القيام بعمله على أتم وجه ، بالرغم من الإجهاد الشديد » .. الأسلوب نفسه الذى كان يُكتب به عن أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وتوفيق الحكيم .

وهو من عائلة أغلبها أطباء .

فقد كان الأخ الأصغر لأخويه : د . على المفتى ، ود . عثمان المفتى .

وعندما اشتكى جمال عبد الناصر من حساسية فى الجيوب الأنفية ، اختير طبيب الأنف والأذن والحنجرة د . على المفتى ليشرف على علاجه .. وكان ذلك بعد وفاة شقيقه د . أنور المفتى .

أما ابن أخيه .. شريف المفتى ، فطبيب أيضا ، وهو تلميذه ، ومساعده فى أبحاثه ، وزوج ابنته « مايسة » .. وقد تزوجا وسافرا إلى الولايات المتحدة لمزيد من الدراسات .. هو فى « نيويورك يونيفرستى » وهى فى « ستيت يونيفرستى » .. وعندما مات د . أنور المفتى ، أصدر جمال عبد الناصر قرارا بمنح كريمته « مرتب عضو البعثة وجميع الامتيازات الخاصة به فى الولايات المتحدة لمدة ٤ سنوات » .. وكان ذلك بعد قرار آخر بمنح أسرته معاشا استثنائيا يوازى ضعف المعاش المستحق لها .. « ١٠٠ جنيه » .

□ □

نجح الدكتور أنور المفتى فى السيطرة على مرض السكر الذى اكتُشف عند جمال عبد الناصر ..

وكان السكر قد أوشك أن يعود إلى معدله الطبيعى .

وقد كان جمال عبد الناصر يعتقد أنه أُصيب بالسكر بسبب شدة انفعاله فى مباحثاته مع خروشوف من أجل تأييد ثورة عبد الكريم قاسم فى العراق .. لكن .. الدكتور أنور المفتى أكد له أن ذلك ليس صحيحا .. فالانفعال الشديد لا يسبب السكر .. وإن كان من الممكن أن يضاعف من آثاره .. فالإصابة بالسكر تكون « كامنة » عند المريض .. والانفعال الشديد يجعله يعتقد أنه السبب .. لا سيما أن العادة جرت على إجراء التحاليل بعد الهزات النفسية .. كما أنه من الضرورى أخذ حالة المريض العصبية فى الاعتبار عند تحديد نظامى الأكل والعلاج .

وقد سأله جمال عبد الناصر عن مدى انتشار مرض السكر بالعدوى .. « خوفا على صحة الأولاد » .

فطمأنه د . المفتى من هذه الناحية .

وحاول د. المفتى أن يشرح ـــ دون تورط فى مصطلحات معقدة ـــ طبيعة مرض السكر .. لكن .. جمال عبد الناصر استوقفه قائلا :

« أنا عارف إنك شاطر » !

ثم أضاف :

« إنت حتروح منى فين » ؟! .

إن هناك عداء خفيا بين الأطباء والزعماء .. وهذا العداء يصل أحيانا إلى مرحلة الكراهية .. فالزعماء يشعرون أن الأطباء أول من يكتشف أنهم بشر ، وليسوا أنصاف آلهة .. بشر يمكن أن يتألموا .. ويتوجعوا .. ويشعروا بالضعف .. وأنهم لا يشعرون بالقوة دائما .. ولا بالسيطرة كل الوقت .. ولو أطاعتهم شعوبهم فإن أجسامهم قد تتمرد عليهم .. ولو شفيت أمراضهم فذاكرتهم لا تشفى .

والزعماء الذين تنحنى لهم الرؤوس (حتى لا تطير) يجدون أنفسهم فى موقف لا يحسدون عليه عندما يُفرض على الواحد منهم خلع ملابسه أمام الطبيب .. وأن يخرج لسانه .. وأن « يكح » .. وأن يقول « آه » .

ولأنهم يأمرون فيطاعون .. يصعب عليهم أن ينفذوا تعليمات الأطباء بدقة .. إنهم يحكمون العالم فكيف يحكمهم الأطباء ؟!

لذلك .. فالتمرد على روشتات العلاج ، عادة رئاسية .. واتهام الأطباء بالدجل والشعوذة أيضا .

وعلماء النفس يشكون فى إمكانية قيام علاقة صداقة بين زعيم وطبيب .. ولو وجدت فإنها تكون غير حقيقية .. إنها فى رأيهم محاولة « كاذبة » من الزعيم لإقناع نفسه بأن الطبيب لا يأتى لكشف ضعفه بالكشف عليه ، وإنما لأن يتسامرا .. ممكن .

وليست صدفة أن يقول ونستون تشرشل :

« على الأطباء أن يتناولوا أدويتهم وعقاقيرهم » .

وليست صدفة أن يقول ستالين :

« أين الجماهير .. أعطونى من هذا الدواء » .

وليست صدفة أن يصرخ ليندون جونسون وهو على فراش المرض :
« أبعدوهم .. إنهم يريدون قتلى » .
وكان يقصد أفضل أطباء الولايات المتحدة .
إنهم ... أصعب مرضى .
ولا جدال فى أن جمال عبد الناصر كان واحدا منهم .
لكن .. أنور المفتى لم يكن يعرف ذلك .
لم يكن ينظر إلى جمال عبد الناصر كزعيم فقط ، وإنما كزعيم ، وأب ، وإنسان ، ومريض ، ومسئول عن أسرة ، وعن دولة ، وأمة ، وتجربة ، ومستقبل .. لذلك .. أحس بأن مسئوليته تجاهه أكبر من أن يبعد عنه الأخبار السوداء ، ولا يقدم إليه إلا الأخبار المبهجة .. كما كان أغلب من حوله يفعلون .. بمن فيهم الأطباء .
فلا أحد منهم كان يجرؤ على أن يطلب من جمال عبد الناصر تنفيذ أمر من أوامره .. وإذا طلب ، ولم يستجب الرئيس .. لا يكرر الطلب .
وقد لاحظ أنور المفتى أن جمال عبد الناصر يعتقد فى حدوى الفيتامينات التى كان يحرص على تناولها بانتظام ، كبديل عن الطعام الذى كانت مشاغله تنسيه إياه ، أو تجعل منه مهمة ثقيلة أحيانا .. فقال له :
« إن هذه الأقراص ليست كما تعتقد دائما » .
قال جمال عبد الناصر :
« إنها تغنى عن الطعام » .
علق د . المفتى :
« بل .. هى مسألة نفسية » .
أنهى جمال عبد الناصر الحوار قائلا :
« ليكن » !
فى مساء اليوم نفسه أضاف د . المفتى إلى صديق قريب إلى قلبه (كان يشاركه عشق الكيمياء الحيوية) :
« لكم أتمنى أن يخترعوا أقراصا بدلا من الطعام من أجل ذلك الصعيدى العنيد » !

كذلك ...

لاحظ الدكتور المفتى أن أحد أطباء رئاسة الجمهورية كان يعد « خلطة » ما ، ويحقن بها المشير عبد الحكيم عامر .. وقد اعتبر هذا الطبيب هذه « الخلطة » من الأسرار العسكرية العليا التى لا يجوز كشفها .. ولما حاول أن يستفسر من المشير عما يُحقن به ، قال له :

ــ خليك انت فى السكر .. ياسكر !

وكان هذا يكفى لئلا يفتح الموضوع مرة أخرى .

وبعد وفاة المشير أُبعد الطبيب عن رئاسة الجمهورية .. ثم بعد ٩ سنوات توفى .. ودفن معه سر « الخلطة » التى كانت سيرتها تثير « الفخر » فى الأوساط الطبية التى عرفت بالأمر فى وقته .. وإن آثرت الصمت !

□ □

فى ٢ أبريل ١٩٦٣ ، خرج د . أنور المفتى من بيته ، وركب سيارته ، واستعد للسير بها ، عندما فوجىء بسيارة نقل (لورى) ضخمة ، تصطدم بسيارته .

داخل سيارته لم يكن أمامه سوى إغماض عينيه ، وتسليم أمره إلى الله ، لكنه لم يصب بأذى .

تحطمت السيارة ، وإن استطاع الخروج منها سالما .

توجه إلى بيته على الفور .

لم يستطع أن يواصل برنامجه ، ولا أن يباشر عمله ، طوال اليوم بسبب الصدمة العصبية التى تعرض لها .

بعد يومين نشرت الصحف الخبر فى صفحاتها الأولى .

والمصدر هنا ــ صحيفة « الأهرام » يوم ٤ أبريل ١٩٦٣ .

بعد أسبوع قال فى ندوة مفتوحة بجامعة القاهرة :

« إنه يؤمن بأن الحياة مباراة لا يجب أن يحزن الإنسان عندما يخسر فيها .. وعليه أن يتقبل الخسارة بروح رياضية » !

□ □

فى ١٦ يناير ١٩٦٤ ، لفظ د . أنور المفتى أنفاسه الأخيرة ، وصعدت روحه إلى السماء .

فى ذلك الوقت كان عمره أقل من ٥١ سنة بحوالى الشهرين .

أكثر من رواية صحفية ، نُشرت فى ذلك الوقت عن سبب الموت ، وأعراضه ، وكيف كانت اللحظات الأخيرة .. واللافت للنظر أن هذه الروايات بدت متناقضة .. ويغلب عليها التسرع .. كما أنها لم تكن محكمة .

□ **الرواية الأولى** : اتصل أحد أقاربه بجريدة « الأهرام » وقال : إن الدكتور أنور المفتى توفي ، وإن سبب الوفاة « **نزيف فى المخ** » !

ونشرت الصحف اليومية الخبر فى طبعاتها الأولى ، ثم رفع الخبر من الطبعات التالية[1] .

□ **الرواية الثانية** : أكد أغلب الأساتذة ، ممن زاروا د . المفتى — على أثر سماعهم الخبر — أن سبب الوفاة هو انسداد فى شرايين القلب بجلطة ، وقد أدى ذلك إلى الوفاة ، فى فترة قصيرة .

ونفت صحيفة « الأخبار » ما نشرته عن نزيف المخ ، وقالت : إن نزيف المخ لا يمكن أن يؤدى إلى حدوث الوفاة فى خلال فترة قصيرة كما حدث مع د . المفتى[2] .

لكن .. الصحيفة شككت فى تشخيص الوفاة بسبب القلب ، عندما أشارت — فى الخبر نفسه — إلى أن قلب د . المفتى كان « **سليما تماما** » .

وكان نص ما قالته :

« وهناك حقيقة أخرى يعرفها أصدقاء المفتى من الأطباء . لقد لاحظ الطبيب الكبير أنه يشعر بالألم فى صدره عند القيام بأى مجهود .

وعلى الفور اجتمع حوله زملاؤه وابناؤه من الأطباء ، وقاموا بالكشف عليه ، وعلى قلبه بواسطة جهاز الرسم الكهربائى ، وجاءت النتيجة مطمئنة . فقد ظهر أن قلبه سليم تماما . ومع ذلك امتنع د . المفتى عن التدخين ، منذ ذلك الوقت » .

---

(١) و(٢) صحيفة « الأخبار » — الطبعة الثانية — ١٧ / ١ / ١٩٦٤ .

☐ **الرواية الثالثة** : قرب منتصف الليل ، استمعت السيدة حرمه إلى صوت غريب يصدر منه أثناء نومه . وقامت لتطل عليه ، فوجدت أن لونه يميل إلى الزرقة ، وانزعجت حينما وجدت أن هناك « رغاوى » بيضاء تخرج من فمه .. ونادت عليه ، فلم يجب .. ثم أسرعت إلى التليفون ، ولم تتذكر فى هذه الساعة غير الدكتور صادق فودة أستاذ أمراض النساء والولادة ، وهو يسكن بالقرب منهم .

وصرخت الزوجة تنادى كريمته ماجدة (١٦ سنة) : (ياماجدة .. ياماجدة .. الحقى بابا) .. واستيقظت ماجدة من النوم فزعة ، واتجهت إلى سرير والدها ، وحملت رأسه بين يديها ، وأسلم الروح .

أسرع د . صادق إلى منزل د . المفتى ، ودخل إلى غرفة النوم ، وبعد الفحص ، قال : « لا فائدة . مات الدكتور أنور المفتى[٣] » .

الرواية الرابعة: وهى رواية نشرها الكاتب الصحفى الكبير « أحمد الصاوى محمد » فى « يوميات الأخبار » بعد ١٠ أيام من الوفاة[٤] .

« نهض من فراشه صحيحا ، معافى ، منتعشا لآخر مرة . وذهب إلى كليته ، وألقى محاضرة ، وذهب إلى عنبر المرضى بالمستشفى ، يعالج المرضى ويداعبهم ، باعثا فيهم الأمل ، وحب الحياة .

وانتهى من عيادته الخاصة فى ساعة متأخرة ، وخرج من عمارة « اللواء » حيث توجد عيادته ، نشيطا ، محييا بوابها ، وقضى ليلته مع صديقه د . شفيق الريدى (أستاذ الكيمياء الحيوية بجامعة القاهرة) وزوجته ، وتركهما فى الساعة الواحدة صباحا ، وأوى إلى فراشه بعد أن أوصى زوجته « فاطمة » بأن توقظه فيما بعد لتناول طعام السحور ، وذهبت فاطمة لتعود بعد لحظات ، فتسمع لزوجها شخيرا عجيبا ، جزعت له نفسها الحساسة ، فجرت نحوه توقظه فوجدته قد انتهى » .

وهذه الرواية ، رواية كاتب « **محترم** » ، كانت الجسور بينه وبين السلطة محترقة ،

---

(٣) الأخبار — ١٧ / ١ / ١٩٦٤ .
(٤) الأخبار — ٢٦ / ١ / ١٩٦٤ .

كما أن جمال عبد الناصر سبق وخلعه من منصب رئيس التحرير ، كذلك فإنه كان على علاقة شخصية وعائلية قوية بالدكتور المفتى ، وكان مصدر روايته السيدة فاطمة العبد ، ثم .. إن هذه الرواية جاءت بعد ١٠ أيام من الوفاة .. وأخيرا .. فإن صاحبها لم يكن مضطرا لكتابتها .

□ □

لكن ...

بعد أكثر من ١١ سنة أضيف إلى هذه الروايات ، رواية خامسة ، كانت — بلغة السينما — أكثرها إثارة .

لقد قُتل الدكتور أنور المفتى بالسم .

وكانت هذه الرواية رواية الزوجة نفسها التى قدمتها فى بلاغها إلى النائب العام فى صيف ١٩٧٥ .

ولو كان لنا أن نتساءل عن اختيار هذا التوقيت بالذات ، لوجدنا بعض الاعتبارات الحيوية ، تفرض نفسها علينا .

إن السيدة فاطمة العبد انتظرت مدة أطول من اللازم ، حتى قدمت بلاغها إلى النائب العام .. حوالى ٨ سنوات على ترك صلاح نصر جهاز المخابرات العامة .. حوالى ٥ سنوات على رحيل جمال عبد الناصر .. حوالى ٤ سنوات على سقوط من اسمتهم بمراكز القوى .. فما الذى شجعها على فتح الملفات القديمة ؟

فى أبريل ١٩٧٤ ، أصدر أنور السادات عفوا صحيا عن الكاتب المعروف مصطفى أمين ، الذى حُوكم وسُجن بتهمة التخابر مع وكالة المخابرات المركزية (الأمريكية) .. وعندما عاد إلى مؤسسة « أخبار اليوم » كان من الطبيعى أن يسعى جاهدا إلى نفى التهمة ، وتصفية حساباته مع فترة حكم جمال عبد الناصر .. وكان أن أصبح بينه وبين صلاح نصر قضايا أمام القضاء .. تولاها نيابة عنه المحامى شوكت التونى .

وقد لُوحظ فى بلاغ زوجة المفتى إشارة إلى مصطفى أمين ، وإلى قضية التعذيب المرفوعة ضد صلاح نصر .

ولُوحظ أن البلاغ يتضمن عبارة اشتهر بها مصطفى أمين ، ورددها كثيرا فى كتاباته .. عبارة « إن من حق الشعب أن يعلم الحقيقة » .

ولُوحظ أن صحف دار « أخبار اليوم » هى التى اهتمت باتهام قتل الدكتور المفتى بالسم .. ولم تنشر الصحف الأخرى أى شىء إلا بعد أن بدأ المحامى العام التحقيق فى البلاغ .

ولُوحظ أن المحامى الذى حضر التحقيق مع أسرة المفتى كان شوكت التونى ، محامى مصطفى أمين نفسه .

لذلك ... فأغلب الظن أن يداً غير يد زوجة د . المفتى هى التى صاغت البلاغ .. وإن كان هذا لا يمنع أنها وافقت ، ووقعت عليه .

فى يوم ٢٤ أغسطس ١٩٧٥ استمع المستشار محمد الخولى ـــ المحامى العام لنيابة استئناف القاهرة ـــ إلى أقوال مقدمة البلاغ .. التى ذكرت فى أقوالها :

ـــ إن زوجها قد صرح لها قبل وفاته بأنه سيموت خلال ثمان وأربعين ساعة ، لأنه « تناول سما . وأن هذا السم قد سرى فى جسمه ووصل إلى عينيه » .

وأنه عندما صرح لها بذلك ، كان يقف أمام المرآة ، وينظر إلى عينيه .

وقالت :

« إن الوفاة حدثت فى يوم ١٦ يناير ١٩٦٤ ، فى نفس التاريخ الذى حدده لها زوجها » .

وأضافت :

« إنها تشك فى أن مراكز القوى فى عهد ما قبل التصحيح (١٥ مايو ١٩٧١) قد دست له السم لأنه أدلى برأى لم يرض مراكز القوى فى ذلك الحين ، وأن الذى دفعها لتقديم بلاغها ما نشر عن استعمال إدارة المخابرات العامة فى عهد صلاح نصر لأنواع من السموم لا تظهر آثارها .. ومنها السم الذى تناوله المشير عبد الحكيم عامر » .

وطلبت ، ضم اعترافات صلاح نصر ، فى قضية انتحار المشير إلى ملف التحقيق .

وكان مما قالته فى التحقيق :

إنها ألحت فى إحضار أطباء لإسعاف زوجها ، لكنه قال لها : « فات الأوان » .. فالعلاج « لن يجدى » .

وقد « أغلق الدكتور المفتى غرفته على نفسه حتى انتهى » .

وقالت :

« إنها شاهدته يحادث نفسه داخل الحجرة مراجعا ذاكرته لتحديد الشخصيات التى قابلها ، والطريقة التى تم بواسطتها وضع السم له » .

« وظل يتطلع إلى عينيه فى المرآة حتى سقط على الأرض وفاضت روحه » .

وأضافت :

« إن زوجها ظل قلقا .. وإنه كان يخشى عل حياته بعد أن أبدى رأيا يتعلق بصحة جمال عبد الناصر ، ومدى قدرته على تحمل مسئوليات الحكم .. كان يرى ضرورة تخلى جمال عبد الناصر عن مهام منصبه حتى يشفى من مرضه الخطير .

إن ما كان يخشى منه زوجى قد حدث .. وأعطوه السم » .

□ □

فى نهاية الشهر نفسه ، استُدعيت ماجدة المفتى لتدلى بأقوالها .. قالت :

ــ إن والدها صرح لها فى لحظاته الأخيرة بأن السم قد دُس له .. وإنه كان مضطرب الأعصاب فى لحظاته الأخيرة ، على غير عادته ، وإن مظاهر الانتفاخ ، والتصلب ظهرت واضحة فى عضلات يديه ، وساقيه فور الوفاة .

ورفض زيارة أى طبيب لفحصه !

س : هل تتهمى أحدا بتقديم السم لوالدك ؟

جـ : لا .

س : ألم يحدد والدك الشخص الذى دس السم له ؟

جـ : لا .. وإن كان قال : « عملوها فيّه » .

س : من اللى عملوها فيه ؟

جـ : لا أعرف .

فى اليوم نفسه قال المستشار محمد الخولى :

ــ إن أقوال السيدة ماجدة المفتى ، تطابقت مع الأقوال التى أدلى بها خبير السموم (د . على محمود دياب أستاذ تحاليل السموم بالمركز القومى للبحوث) حول أنواع السموم التى تحدث الوفاة دون أثر ومنها الكورستين ، والدوكوستين ، والاكونتين ، وتتوافق أعراضها مع الأعراض التى ظهرت على الدكتور أنور المفتى .

لم توجه أسرة المفتى التهمة إلى أحد .. كما أنها رفضت استخراج الجثة ، وتشريحها .. كذلك ، فإن حركة التنقلات والترقيات المعتادة ، فرضت على المستشار محمد الخولى ترك النيابة العامة .. وهكذا أغلق الملف على ذلك .. ولم يكن لأحد ــ فيما بعد ــ مصلحة لإعادة فتحه ، بما فى ذلك أسرة المفتى ، التى كان يكفيها ــ على ما يبدو ــ الفرقعة التى حدثت ، والتى كانت مثل الألعاب النارية فى ليالى الصيف الحارة .

□ □

ماذا فعل د . أنور المفتى لكى يقتله ــ بالسم ــ جمال عبد الناصر ؟! .

هناك ــ كالعادة ــ أكثر من رواية .. تختلف فى التفاصيل ، وتتفق فى النتيجة !

قيل إنه اكتشف أن نوع السكر الذى أُصيب به جمال عبد الناصر ، كان من النوع « **الأحمر** » .. الخطير .. وهو ما يُسمى بالبرونز ديابيت .. أو السكر البرونزى .. وسُمى بالبرونزى لأنه يضفى على بشرة المصاب لونا برونزيا ، وكأنها تعرضت لشمس الشواطىء مدة لا بأس بها .

وسُمى بالسكر « **الأحمر** » لأن « بول » المريض يكون فى لون « الحديد » المنصهر .. لكن .. ليس فى سخونته .. والاحمرار سببه زيادة معدل الحديد فى الجسم .. وفى الدم .

وأحيانا .. يُسمى هذا المرض باسم مرض « أديسون » .. نسبة إلى المخترع ، العالم توماس أديسون الذى أُصيب به .

وعند فحص مومياء « رمسيس » الثانى بواسطة الأطباء الفرنسيين ، فى منتصف السبعينات ، شكوا فى أنه مصاب « بالبرونز ديابيت » .

وأشهر من أُصيب به فى العصر الحديث ، الرئيس الأمريكى الأسبق « جون

كيندى » .. الذى اغتيل فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣ ، فى مدينة دالاس ، بولاية تكساس ، برصاصات لم يُعرف من الذى أطلقها حتى الآن .

يقول د . شريف عبد الفتاح :

ـــ البرونز ديابيت يأتى نتيجة زيادة تخزين الحديد فى الجسم .. ويحدث التخزين فى بعض الأعضاء حتى تتلف .. الكبد .. القلب .. المخ .. البنكرياس .. الخصيتين ... إلخ .. ومن أعراضه تساقط الشعر ، وزحف الصلع ، والخمول ، واللامبالاة .. والنساء لا تصاب به ، بسبب فقد الدماء بحكم الطبيعة .. والرجال يصابون به عادة ما بين ٣٥ ــ ٤٠ سنة .. وأحيانا تتأخر الإصابة إلى سن الخمسين .

ويؤكد الأخصائيون « أن لمرض أديسون آثارا نفسية كبيرة ، فهذا المرض يكون مصحوبا بنوبات عصبية » .. كما أن المصابين به « يبدو عليهم الخمول والسلبية فى ٨٤ ٪ من الحالات ، وأكد الطبيب النفسانى السويسرى ، البروفيسور فرنرستول أن المرضى يعانون أيضا من ضعف عضلى واضطراب بالذاكرة ، والأرق »[٥] .

كذلك فإن « مرض أديسون يؤدى إلى الاضطرابات المخية مع ميول للهستيريا والهلوسة ، كما أن العلاج الطويل بالكورتيزون يؤدى إلى أضرار جانبية ، عضوية ونفسية »[٦] .

« أما الأضرار النفسية فهى لا تعتبر أقل خطورة ، فتعاطى الكورتيزون يؤدى إلى الإدمان ويعتبر كالمخدر . وذلك يسبب الهلوسة ؛ كما يطلق عليه فى بعض المستشفيات : مخدر الأغنياء ، أو مخدر أصحاب الملايين »[٧] .

إن هذه الأعراض ــ حسب هذه الرواية ــ جعلت المفتى يقول : « إن صحة الرئيس تقتضى أن يخرج من الحكم فورا » ولم تكن هذه الجملة مما يمكن أن يمر دون حساب .. لذلك .. قُتل بالسم .

ينفى د . شريف عبد الفتاح أن جمال عبد الناصر أُصيب بهذا المرض .

---

(٥) و(٦) و(٧) زهيرة البيلى ــ التاريخ يصنعه المرضى ــ دار المعارف ــ ١٩٧٩ ــ ص ٥٠ .

ويقدم أكثر من دليل على ذلك .

١ ــ إن هذا المرض وراثى .. ولا بد أن تظهر بعض أعراضه ، على الأقل ، على الأقارب .. وقد فحصت عددا كبيرا من أقاربه و لم ألحظ مثل أعراض البرونز ديابيت .

٢ ــ إن العلاج يجبر المريض على القيام بعملية « فصد دم » ، مرة كل شهر ، للتخلص من الحديد الزائد ، ولم نسمع أن جمال عبد الناصر فعل ذلك .

٣ ــ أيضا لم نسمع أن جمال عبد الناصر كان يتناول الكورتيزون .

٤ ــ كذلك فإنه حتى أيامه الأخيرة كان قويا ، وحميا ، ونشطا ، ولم يكن خاملا ، أو كسولا .

ود . شريف عبد الفتاح ليس ناصريا ، ولا يؤمن بتجربة جمال عبد الناصر ، لذلك فشهادته لوجه الله ، والعلم ، والضمير المهنى .

ويقول د . رفاعى كامل :

ــ إن جمال عبد الناصر بعد الانفصال (٢٨ سبتمبر ١٩٦١) تعرض لانفعالات نفسية ساعدت على ارتفاع منحنى السكر .. وقد فهم من عبد الحكيم عامر أن جمال عبد الناصر بدأ يعانى من أزمات نفسية ، فكان على المشير استدعاء طبيب أخصائى فى الأمراض النفسية والعصبية من إحدى الدول الأوروبية .

ومنعا من انتشار الخبر ــ إذا جيىء بالطبيب من إحدى الدول الكبرى ــ فقد اتفق مع المشير على إحضاره من إحدى الدول الصغيرة التى ليست لها اهتمامات أو قضايا خاصة مع مصر ، ومن ثم وقع الاختيار على طبيب نرويجى كان معروفا باختصاصه فى علاج مثل هذه الأمراض[٨] .

« وبحسب أقوال الدكتور رفاعى كامل فقد تم ترتيب لقاء الطبيب النرويجى مع عبد الناصر دون إبلاغ عبد الناصر بحقيقة تخصص الطبيب . وبعد عدة لقاءات كتب الطبيب النرويجى تقريرا أشار فيه إلى أن عبد الناصر مصاب بمرض اسمه « **البارانويا** » وأن هذا المرض يحتاج إلى الراحة التامة والابتعاد عن إدارة شئون الدولة وإصدار

---

(٨) صلاح منتصر ــ من قتل عبد الناصر ــ مجلة أكتوبر ٢٦ / ٦ / ١٩٨٨ ــ ص ٦ .

القرارات المهمة .. والبارانويا (جنون العظمة) مرض يُتهم المصاب به بتمسكه بأفكار خاطئة ضد المنطق ، ويصر على تنفيذها »[٩] .

« وكان المفروض إذا صح هذا الكلام أن يبقى مثل هذا الأمر فى طى الكتمان ، وكما يقول الدكتور رفاعى كامل فإن الدكتور أنور المفتى ــ وقد عرف بمضمون تقرير الطبيب النرويجى ــ تحدث عن السر وأدلى به إلى بعض زملائه الأطباء »[١٠] .

وكان أن بلغ الأمر جمال عبد الناصر ... وكان ما كان !

وهذه هى الرواية الثانية .. وهذه الرواية تؤكد أن الشيخوخة زحفت على ذاكرة الطبيب ــ العجوز .. أو « **الفريق** » ــ المريض .. وهناك أكثر من دليل على ذلك :

١ ــ إن الطبيب لم يكن من النرويج وإنما من الدانمارك ، واسمه د . بولسن ، ولم يكن متخصصا فى الأمراض النفسية والعصبية ، وإنما فى السكر[١١] .

٢ ــ إن د . بولسن لم يكن بمفرده ، وكان معه طبيب ألمانى يدعى د . فايفر .

٣ ــ إن عبد الناصر فوجىء بالطبيبين ، لكنه كان يعرف حقيقة مهمتهما ، وقد دار بينه وبين الدكتور بولسن حديث « انتهى بنصيحة من الطبيب العالمى بضرورة الامتناع عن التدخين » .

٤ ــ إن عبد الناصر ، كان يثق فى الأطباء المصريين ، وعندما قدم له د . بولسن تقريره شفاهة كان رده : « الدكتور الصاوى رأيه كده برضه » .

٥ ــ إن عبد الناصر لم يشعر بما يثير استفزازه من وجود الطبيب الدانماركى .. حتى أنه ــ فيما بعد ــ كلفه باختيار طبيب آخر ، متخصص فى القلب ، يمكن الوثوق فيه ، كى يفحصه فى مطلع سنة ١٩٧٠ .. فجاء أخصائى القلب الدانماركى ، د . بوش بناء على هذا الاختيار .. ولو كان د . بولسن قد كتب أو نطق بما يشير إلى إصابة عبد الناصر بالبارانويا ، ما كان قد كُلف بهذه المهمة .

---

(٩) و(١٠) المرجع السابق .

(١١) أكد ذلك سكرتير جمال عبد الناصر ، الوزير محمد أحمد لصحيفة « الأهالى » ــ ١٥ / ٦ / ١٩٨٨ ، وأكده طبيبه الخاص د . الصاوى حبيب لمجلة صباح الخير ــ ١٧ / ١١ / ١٩٨٦

٦ ــ إن عبد الناصر عرف بوجود د . بولسن ، واستقبله فى تاريخ لاحق على رحيل د . المفتى .. فالثابت أن د . بولسن جاء بعد انضمام د . الصاوى حبيب إلى القسم الطبى بالرئاسة (راجع اعترافات د . الصاوى حبيب فى مجلة صباح الخير ــ ٦ / ١١ / ١٩٨٦) .. والثابت أن انضمامه كان بعد رحيل د . المفتى .

ويكفى ذلك ، كى تنسف رواية د . رفاعى كامل .

□ □

أما الرواية الثالثة .. فعلى لسان خبير السموم بالمركز القومى للبحوث .. د . على محمود دياب ، الذى قال :

ــ إن الدكتور المفتى ألح قبل وفاته لصديقه المشير عامر ، بضرورة أن يأخذ الرئيس عبد الناصر إجازة من العمل لأن أعصابه متوترة بسبب مرض السكر ، الذى أصيب به ، وقد يتسبب المرض فى اتخاذ الرئيس قرارات غير ملائمة .. وبحسن نية نقل المشير عامر هذا الرأى إلى الرئيس عبد الناصر ، فكان جزاء الدكتور المفتى هو التخلص منه .. « فكيف يجرؤ على القول بأن عبد الناصر يمكن أن يخطىء فى اتخاذ قرار »[١٢] .

وفى كتاب « **هؤلاء المرضى الذين يحكموننا** » :

ــ إن عبد الناصر ، استشار الدكتور المفتى ، الذى قال : إنه مريض منذ فترة طويلة بمرض السكر دون أن يعرف ، وأن المرض قد وصل إلى مرحلة خطيرة ، وكان معنى هذه الأعراض أن التهابا شريانيا ينمو ويزداد فى الأعضاء كلها . وقال : إن هذه الأعراض ستؤثر على قواه العقلية .. « ودفع الدكتور أنور المفتى ثمن صراحته ، فقد نفذ صلاح نصر الأوامر بقتله بالسم »[١٣] .

ويقال إن السم وضع له فى فنجان قهوة .

ويقال إنه تناوله فى عصير .

---

(١٢) صحيفة الوفد ــ ١٣ / ٨ / ١٩٨٧ ــ ص ٣ .

(١٣) الكتاب صدر بالفرنسية ــ تأليف بيراكوس ود ، ود بير وتتشيك ، وقد ترجمته زهيرة البيلى ، ونشرته تحت عنوان « التاريخ يصنعه المرضى » ــ مصدر سبقت الإشارة إليه

ويقال إنه تناول السم فى بيت جمال عبد الناصر ..

ويقال فى مكان آخر ..

ويقال إن طبيبا كبيرا هو الذى وشى به ..

ومهما يكن الاختلاف ، والتضارب ، فى كل هذه الروايات (وهذا فى حد ذاته يقلل من شأنها) فإنها تتفق على شيء واحد .. إن الدكتور المفتى اكتشف أن جمال عبد الناصر وصل إلى حالة صحية ونفسية ، لم يكن يصلح معها لاتخاذ قرارات سليمة .. وإنه أفصح عن ذلك .. لذلك قُتل !

ولا جدال فى أن الدكتور المفتى قال ما يُنسب إليه .. تأكدت من ذلك .

فالحقيقة أنه قال ما قال لأشخاص أكثر من اللازم .. ومن الصعب حصرهم .. وكان أغلب هؤلاء من الأطباء .. وبعضهم لم يكن على علاقة حميمة به .. وكأنه تحول إلى جهاز إعلام متحرك مهمته كشف مرض جمال عبد الناصر كما شخصه ..

ويروى لى الدكتور شريف عبد الفتاح .. أنه فى سنة ١٩٦٢ ، كان فى لندن ، عندما اتصل به الدكتور المفتى ، ودعاه ، هو وزوجته على العشاء .. وقد تعجب الدكتور شريف عبد الفتاح من الدعوة .. فبرغم أن المفتى أستاذه ، فإن العلاقة بينهما لم تصل إلى حد « **أن يتعشيا معا** » وعلى العشاء حكى الدكتور المفتى « دون تحفظ » عن جمال عبد الناصر ، وقال : إنه « واقع تحت ضغط عصبى ، شديد جدا » .. وإنه (أى الدكتور المفتى) يرى « أن تصرفاته غير طبيعية نتيجة ذلك » .

ويضيف د . شريف عبد الفتاح : إن الدكتور المفتى « حكى لى بعض الأعراض العصبية والنفسية التى كان يراها فى جمال عبد الناصر ، والتى جعلت تصرفاته غير منضبطة » .. و « أنا فى حل من أن أذكر ما قاله حفاظا على سر المريض » .

« كان محور الحديث كله ، أنه كان عاوزنى أعرف هذه المعلومات » !

« وقد خرج من كلامه باستنتاج محدد .. هو أنه لا بد من خضوع الحكام وكبار رجال الدولة لكشف طبى ، دورى ، للتأكد من صلاحيتهم الجسمانية والنفسية ، حتى لا تتأثر قراراتهم — التى تدفع الشعوب ثمنها — بعدم الصلاحية .. وأن يتم هذا الكشف بواسطة هيئة طبية محايدة ، يختارها ممثلو الشعب .. أصحاب الحق فى معرفة ذلك .. على أن تنشر النتيجة قبل انتخاب الرئيس ، أو قبل إعادة انتخابه » .

« والمثير للدهشة أن الدكتور المفتى — وقبل سنوات من وفاته — **كان يوحى بقرب أجله (!!) .. لماذا ؟ .. لا أعرف .. وكان يتحدث فى هذا الموضوع وكأنه** وصيته الأخيرة .. أو كأنه يقول لنا : « **خدوه منى قبل أن يفوت الأوان** » .. وما تلحقوش تسمعوه » !

إذن ... الدكتور المفتى .. قال !

لكن ..

هل ما قاله يتسم بدقة التشخيص ؟

وهل دفع ثمنه .. حياته ؟

وهل تجاوز — بما فعل — سر المهنة وقدسيتها .. حيث أقسم على أن لا يفشى أسرار مرضاه التى عرفها كطبيب ؟

□ □

فى سنة ١٩٦٩ ، صدر كتاب مايلز كوبلاند الشهير « **لعبة الأمم** » .. كان ذلك قبل وفاة جمال عبد الناصر بحوالى السنة .. وبعد أن تمكن السكر منه ، وامتدت مضاعفاته إلى حد التهاب الأعصاب ، وضيق الشرايين ، والتعرض لأزمة قلبية ..

وبرغم ذلك يقول كوبلاند :

« إن كان فى نفس أى إنسان حاجة ليعرف رأيى عن نفسية عبد الناصر ، وحالته الراهنة ، فلن أتردد فى القول إنه — بغض النظر عن سياسته معنا — لا يزال يتمتع بكامل قواه العقلية ، ولم يفقد شيئا من قوتها ومرونتها »[١٤] .

ويعتقد كوبلاند أن احتكاكه « بعبد الناصر على مر السنين » كان « **أكثر من أى شخص غربى آخر** »[١٥] .

ولأن كوبلاند كان من أبرز ضباط وكالة المخابرات المركزية ، فإنه استغل معرفته بعبد الناصر ، فى متابعة حالته الصحية ، والنفسية ، والعقلية ، وكان ذلك بناء على تكليف من قيادته فى الوكالة .. التى كانت — باعترافه — تهتم بهذا الموضوع ..

---

(١٤) و(١٥) مايلز كوبلاند « لعبة الأمم » ترجمة مروان خير — انترناشيونال سنتر — بيروت — الطبعة الأولى — ١٩٧٠ — ص ١١٢

كما أن كوبلاند ــ باعترافه أيضا ــ كان يفعل ذلك خدمة لأطباء نفسانيين ، على صلة به .

وبرغم توحش مرض السكر ، فإن جمال عبد الناصر لم يفقد الوعى حتى لحظاته الأخيرة .. كما كان حتى تلك اللحظات يقرأ التقارير التى تقدم له ثلاث مرات يوميا .. فى مواعيد منتظمة .. وكان قادرا على متابعة التفاصيل .. ولم يكن يتجاوزها .

وإذا كان ما حدث فى ٥ يونيو ١٩٦٧ ، لا ينم عن تفكير سليم ، فإن ذلك كان لأسباب ترتبط بصراع السلطة فى الكواليس ، لا بأسباب صحية ، ذاتية .. لأن خطة العبور التى نُفذت ــ فيما بعد ــ فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، وُضعت بمعرفته فى الأساس ، ثم طُورت ، على أكثر من مرحلة ، وحسب الظروف القتالية .

باختصار ... لم يكن تشخيص الدكتور المفتى لحالة عبد الناصر العقلية تشخيصا يتسم بالدقة .. ولم يكن فى مستوى تشخيصه لحالة السكر ، العضوية .. وأغلب الظن أن تقديرات الدكتور المفتى الذاتية ، غلبت تقديراته كطبيب .. فكان ما كان !

□ □ .

حسب ما جاء على لسان أسرة الدكتور المفتى أمام المحامى العام ، فإن رب العائلة ، قال لزوجته وابنته .. « إن وفاته مؤكدة خلال ٤٨ ساعة » !

وأضافت الزوجة : « .. وقد حدث ما توقعه زوجى » !

أما السم ، الذى قيل ، إنه دُس له فى الشراب ، فهو من فصيلة الاكونتين .. وهى فصيلة من السموم ، تقتل ، ولا تترك أثرا .

والاكونتين عقار يوجد فى شكل بللورى ، أو فى شكل مسحوق ناعم .. والصورة البللورية أشد ١٥ ــ ١٠ مرات .. على خلاف القاعدة .. والجرعة القاتلة لا تتعدى ١ ــ ٢ مللى جرام .. وأهم مظاهر التسمم بالاكونتين .. حموة فى اللسان والفم والحلق .. ارتجافات ورعشات مميزة وشديدة للشفتين والعضلات المحيطة بهما .. ازدياد إفراز اللعاب .. انتقال الرعشة إلى الأطراف .. بطء التنفس .. ثم عدم انتظامه .. ثم سرعته .. ويعقب ذلك صعوبة الحركة .. واتساع حدقة العين

.. وتحدث الوفاة إما نتيجة توقف عملية التنفس ، أو توقف القلب ، بسبب التأثير المباشر لهذا السم على عضلة القلب ومركز العصب الحائر ، ومراكز تنظيم الدورة الدموية بالمخ .

والوفاة قد تحدث سريعا فى ظرف دقائق .. لكن فى المتوسط تتراوح المدة بين تناول السم ، والوفاة بين نصف ساعة وست ساعات .. وإذا زادت الحياة عن ٨ ـــ ١٠ ساعات ، يتوقع الشفاء .

وسم الاكونتين يستخرج من نبات هندى اسمه « **خانق الذئب** » .. والوفاة بسببه ليست لها صفات تشريحية « مميزة على الإطلاق » .. ويستخدم بعد خلطه بأوراق بعض النباتات لإخفاء طعمه الحارق .. ويمكن القول بأن هناك وجه شبه بين طعمه وطعم عصير الجوافة .. ويمتاز كسم قاتل برخص ثمنه وسهولة الحصول عليه ، وصغر الجرعة المؤثرة .. وسرعة تأثيرها .. وإمكان إخفاء طعمه بإذابته فى بعض المشروبات .. وتكسره إلى مواد يصعب التعرف عليها بمجرد أن يبدأ الجسم الميت فى التحلل الرمى[١٦] .

وتتشابه بعض هذه الأعراض مع الأعراض التى ظهرت على الدكتور المفتى ، ووصفتها أسرته للمحامى العام .. لكنْ .. هناك اختلاف فى تقدير الوقت بين تناول السم والوفاة .. ولو كان ذلك الوقت ٤٨ ساعة ، كما جاء فى التحقيقات ، فإنه لا يكون قد توفى بالاكونتين ، ولا بإحدى فصائله .. ولأن الاتهام ينحصر فى القتل بنوع من السموم لا يمكن الكشف عنه ، فإن من المستحيل الآن .. أو وقت تقديم البلاغ ، معرفة الحقيقة ، ولو بتشريح الجثة .

يضاف إلى ذلك بعض الملاحظات التى تجعل « **تشغيل** » العقل فضيلة لا بد من التمسك بها ، فى مواجهة رياح الإعلام العاتية التى ترفع الثياب ، وتكشف العورات ، لأسباب ليس من الصعب التوصل إليها :

---

(١٦) المعلومات الواردة عن الاكونتين ، مصدرها ، تقرير د على محمود دياب ـــ خبير السموم بالمركز القومى للبحوث ـــ عن حالة وفاة المشير عبد الحكيم عامر

١ ــ إن ما راح الدكتور المفتى يردده فى كل مكان ، حدث بعد ضربة الانفصال ، فى سبتمبر ١٩٦١ ، وقد استمر يعلن ما توصل إليه ، لمدة تزيد عن السنتين .. أى حتى وفاته .. وهى مدة طويلة بكل مقاييس ذلك الوقت .. وما كان من الممكن تركه دون عقاب إذا تقرر ذلك .. فإذا كانوا قد قتلوه فلماذا انتظروا عليه أكثر من سنتين ؟! .. خاصة وأن الأمر يمس قوى جمال عبد الناصر العقلية ؟! .

٢ ــ إن الدكتور المفتى كانت تسيطر عليه أحاسيس أشبه بالهواجس ، خلال الفترة الأخيرة من حياته .. جعلته يعتبر ما يقوله عن جمال عبد الناصر وصية ورسالة ، يجب أن تصل إلى أكبر عدد ممكن من المصريين .. وجعلته يشعر بدنو أجله .. فهل كان لهذه الأحاسيس تأثير على ما قاله لأسرته وهو فى اللحظات الأخيرة ؟! .

٣ ــ إن جمال عبد الناصر سلم نفسه كمريض ــ فيما بعد ــ للدكتور على المفتى ، شقيق الدكتور أنور المفتى الأكبر منه .. فهل يُعقل أن يستسلم القاتل ، لأدوية وعقاقير ، شقيق القتيل ؟[١٧]

□ □

وهناك احتمال أخير ...

أن يكون الدكتور المفتى قد قُتل دون علم جمال عبد الناصر .

أن يكون السم قد دُس فى كوب العصير أو فنجان القهوة بواسطة أحد أعوان صلاح نصر الذى كان قد تجاوز ــ بنفوذه ــ مؤسسة الرئاسة .. كما أصبح ــ بحكم الرهان على المشير عامر ــ يرى أن البلد أصبحت مثل العجينة اللينة ، يشكلها حسب مزاجه .

وفى هذه الحالة يكون الدافع للقتل هو أن الدكتور المفتى أساء لِهَيْبَةِ الحكم .. وهو ما كان صلاح نصر يحافظ عليه شكلا .. ويفسده فعلا .. بتصرفاته التى حُوكم عليها فيما بعد فى قضية انحراف المخابرات .

إن الجرأة فى أى شىء .. كانت تكفى مبررا للقتل .

---

(١٧) أشار صلاح منتصر لهذه الملاحظة فى مجلة أكتوبر ــ المصدر السابق

ولا بد أن نعترف بأن جمال عبد الناصر ، كان فى ذلك الوقت محاصرا ، وغير قادر على تجاوز مراكز القوى التى تحالفت ضده .. الجيش والمخابرات .

ولم تسنح له الفرصة لضربها إلا بعد الهزيمة .

والمثير للدهشة أن جمال عبد الناصر — فى ذلك الوقت — كان يحذر البعض من صلاح نصر .. ومن إمكانية الاغتيال بالسم .

كذلك ...

كان يحذر البعض الآخر من مركز قوى كان قريباً منه جدا .. فى مكتبه ويقول عنه : إن نابه أزرق !

ولو كان هذا الاحتمال صحيحا فإن مسئولية جمال عبد الناصر الجنائية تنتفى .. لكن .. مسئوليته السياسية تبقى .

على أننا لم نجد إشارة واحدة لهذا الاحتمال عند محاكمة صلاح نصر وبعض مساعديه (القضية رقم ١ — محكمة الثورة — ١٩٦٨) .. فقد اقتصرت المحاكمة على الانحرافات الجنسية .

أيضا ... لا يستقيم هذا الاحتمال ، مع ما سبق أن ذكرناه حول اختيار شقيق الدكتور المفتى ليكون طبيبا لعبد الناصر ... إلا إذا كان الاختيار نوعا من إذلال الدكتور على المفتى .. وهو تصور لا معنى له ، لأن الأمر فى النهاية يتعلق بحياة رئيس الجمهورية .

□ □

إن مثل هذه الألغاز من المستحيل حلها ... وإلا كنا قد عرفنا من الذى اغتال الرئيس الأسبق جون كيندى .

لكن ...

لا بأس من المحاولة ..

لأنها — على الأقل — كشفت لنا الكثير مما كنا نجهله عن مرض جمال عبد الناصر .

ورب ضارة نافعة !

□ □ □

□ ٤ □

الطريق إلى تسخالطوبو !

فى الأسطورة ..

أن الآلهة غمست أخيل فى ماء الخلود ، عدا كعبه الذى أصبح نقطة ضعفه ، وفيه كان مقتله .

كان يكفى أن يشك بدبوس ، أو بحجر مدبب ، فى كعبه ، حتى يسقط من طوله .. ويفقد قوته الجبارة ..

كذلك ... أصبح جمال عبد الناصر ، بعد فترة من توحش مرض السكر .

فقد أضعف السكر شرايين الكعبين .. وهى شرايين بالطبيعة ضيقة وهزيلة .. وتتعرض لاحتكاك دائم وتتأثر بسرعة .. وتسد أكثر وأسرع من غيرها .. وتنتهى عندها الأعصاب الطرفية .. وحدث أن جُرح جمال عبد الناصر فى أحد كعبيه .. ولم يشعر إلا ببقع من الدم على الجورب .. ولم يكن الجرح قد التأم .. كما هو الحال مع جروح مرضى السكر .. فنصحه الأطباء بالعناية الشديدة بالقدمين .. وخاصة الكعبين .. حتى لا تتدهور الحالة ويموت الإحساس فيهما .. ولا يصل الدم إليهما .

ونفذ جمال عبد الناصر التعليمات .. فكان يضع قدميه فى ماء دافىء مملح .. الطريقة الشعبية المعروفة .. وكان يفعل ذلك مرة — على الأقل — فى اليوم .. وكان يفعل الشىء نفسه عقب كل خطاب يلقيه وهو واقف على قدميه .

وبسبب السكر أيضا ، أُصيب جمال عبد الناصر بتصلب الشرايين فى ساقه اليمنى

.. وذلك حسب تقرير طبيبه الخاص ، بعد توقيع الكشف الدقيق عليه ، فى يوم ١٣ يونيو ١٩٦٧ .

وتصلب الشرايين من أمراض العصر ، ويطلق عليه « **طاعون القرن العشرين** » ، ويأتى على رأس قائمة الأمراض التى تسبب الوفاة .. وعادة يكون من مضاعفات السكر الوراثى .. أو من مضاعفات السكر الذى يصيب الإنسان فى سن مبكرة .. وفى بعض الحالات لا يتعرض مريض السكر لتصلب الشرايين .. والأطباء لا يملكون التفسير .

وتصلب الشرايين يعنى أن الشرايين تقدمت فى السن .. أصبحت « عجوزا » .. أما لو كان السبب من السكر ، فهذا يعنى أنها فى حالة « شيخوخة مبكرة » .

ويحدث تصلب الشرايين بسبب ترسيب الكولسترول .. والكولسترول مادة دهنية توجد تحت الغشاء الداخلى المبطن للشرايين من الداخل .. يصنعها الجسم حسب الطلب .. ولا يستطيع الأطباء معرفة سر ترسيبها .. لكن .. هذا الترسيب يفقد الشرايين ليونتها ، ومرونتها .. فيحدث لها حالة أشبه بالتشنج .. وشتان بين أن يجرى الدم فى أنابيب مثل المطاط .. وأنابيب مثل الصلب .. ومع ازدياد ترسيب الكولسترول تضيق الشرايين .. ثم تغلق ، وتسد .. وغالبا ما يتقرح الغشاء الداخلى الأملس ، فوق منطقة الترسيب ، مما يسبب خشونة فى جدران الشرايين ، الأمر الذى يساعد على تجلط الدم داخل الشريان .. فيُسد .. وتقطع الطريق الموصلة بين الجلطة وأعضاء يغذيها هذا الشريان بالدم ..

ولو حدثت الجلطة فى الشريان التاجى .. كانت الذبحة لا محالة .

والذبحة عبارة عن ألم شديد جدا يشعر به المريض خلف عظمة القفص الصدرى ، عندما يقوم بأى مجهود زائد .. فالشريان التاجى لا يوصل — فى هذه الحالة — الدم والأوكسوجين إلى القلب .. ويمكن أن تؤدى الذبحة إلى الوفاة الفورية .. لكن .. الإنقاذ سهل تحت الرعاية الفائقة وقد يحدث ترسيب الكولسترول فى الشريان الأورطى ، أو الشريان الأبهر ، الممتدة فروعه فى الساقين .. وفى هذه الحالة يتسبب الضيق فى الشريان ، فى وجود آلام شديدة ، بعد المشى ٢٠٠ متر على الأكثر ..

ولا بد من الراحة بضع دقائق كل ٢٠٠ متر .

« وبعد مضى بضع سنين قد يحدث تجلط فى الشريان يقفله تماما ، وهذا بالتالى يسبب نقصا شديدا فى كمية الدم والأوكسوجين والغذاء التى تصل إلى الساق خصوصا القدم » .

« هنا يبدأ المريض هذه المرحلة بالشكوى من ألم شديد بالقدم عند النوم ، ثم يلاحظ أن أحد أصابع القدم قد أخذ لونها يسود تدريجيا ، وهذه هى الحالة المعروفة باسم الغرغرينا ، وإذا أُهمل علاج المريض فإن الغرغرينا تنتشر تدريجيا حتى تشمل القدم ، وقد تمتد إلى الساق ، وفى هذه الحالة تجرى عملية بتر الساق لإنقاذ حياة المريض »[1] .

يضاف إلى ذلك إمكانية التهاب الأعصاب فى الساقين .

وهنا ... يصبح الألم فى حاجة إلى جبل كى يحتمله .

□ □

كانت الهزيمة أشد من الانفصال .

الضربة أقوى ، والجسد أضعف ، والمستقبل ظلام ، والماضى مهدد بالضياع ، والحاضر فى حاجة إلى انضباط .

أى ظروف مناسبة أفضل كى يمد السكر أنيابه وأظافره ، ويكسب داخل جمال عبد الناصر كل يوم أرضا جديدة .

لقد احتلت إسرائيل سيناء والجولان والضفة الغربية .. واحتلت مضاعفات السكر ، الساق اليمنى ، والرئة اليسرى ، وقناة التنفس .

فحسب تقرير الفحص الطبى ، بعد الهزيمة بأسبوع واحد ، وجد أنه :

— مريض بالسكر .

— مريض بتصلب الشرايين فى الساقين .

— مريض بدوالى فى الشُعَب بإحدى الرئتين .

---

(١) د محمد رفعت — أمراض القلب — دار المعرفة — بيروت — ص ٩٢

— مريض بالتهابات فى القناة التنفسية .

— مريض بالتهاب فى الأعصاب الطرفية[٢] .

ومن جديد بدأت معركة جديدة ، شرسة ، مع السكر .. كان السكر فيها الأقوى .. وكان موقف الأطباء أشبه بحرب الاستنزاف .. ضربات مؤثرة .. عاجلة .. لكنها ليست حاسمة .

ويقول د . الصاوى حبيب : إن الهدف كان ضبط نسبة السكر فى الدم .. **« وقمنا بمجموعة تحاليل ، وكان من السهل أن نحثه على تنفيذ التعليمات الخاصة بالنظام الغذائى ، أو المجهود العضلى ، إنما المشكلة الحقيقية ، كانت فى الحالة النفسية »**[٣] .

ولأول مرة عرفت المهدئات طريقها إلى جوفه .. لينام .. فقد كان النوم — فى تلك الظروف الحرجة — علاجا .

وسأل جمال عبد الناصر الأطباء (أحمد ثروت ، ومنصور فايز ، وناصح أمين) عن حالته .. فهونوا عليه الأمر .. ولم يذكروا تصلب شرايين ساقه اليمنى .. وكل ما قالوه : إن النبض فى هذه الساق غير محسوس .. فلم يعلق .. ولم يبد أى رد فعل .. أغلب الظن أنه فهم أن المسألة ليست مزمنة .. مع أنها كانت مزمنة .

فقد كانت الآلام فى ساقه اليمنى لا تطاق .. كأن أسياخا من اللهب حلت محل العروق ، والأعصاب .. ولأنه لا يشكو .. ولا يصرخ .. فقد كانت الآلام تظهر على وجهه .. فتشد عضلات الوجه ، وتثبت نظرة العينين .. وتحمل الأسنان ضغوطا هائلة .

وأحيانا .. كانت الآلام أسرع من أن يستعد لها .. فكان فى هذه الحالة يقول إنه يتألم .. وكان هذا يعنى أنه يتعذب .

وعندما كان يفرد بنفسه فى حجرة النوم ، كان يرى أن الفرصة مناسبة لأن يتأوه .. وأن يصدر صوتا يعبر به عن عذابه .

---

(٢) و(٣) صباح الخير — ٦ / ١١ / ١٩٨٦

ولأن الآلام تحول الإنسان إلى « برجل » .. يرسم دوائر وهمية من الصراخ المكتوم .. فقد كان ينام بعرض السرير .. لا بطوله .

وقد كانت آلام الساقين تزول إذا جلس أو استراح .. ثم أصبح ذلك لا وجود له .. فالآلام أصبحت مثل ظله .. لا تفارقه .. وكانت له بالمرصاد .. إذا قام ، أو جلس .. إذا تحرك أو نام .. إذا أشار ، أو صمت .

والتفسير الطبى لهذه الحالة ... اختلفوا عليه .

وكانت جملة التفسيرات كالتالى :

– التهاب فى الأعصاب ، لا قصور فى الدورة الدموية كأثر من مضاعفات السكر .. د . جيستربراند الطبيب النمساوى الذى عالج الملك سعود بن عبد العزيز من حالة مشابهة فى ساقه .

– لا علاقة بين هذه النوعية من الآلام والتهاب الأعصاب .. والسبب ضعف شرايين الساق اليمنى .. طبيب نرويجى استعان به الدكتور منصور فايز .

– المرض ، هو مرض « بيرجر » .. وسببه تجمد الشعيرات الدموية فى الساقين .. ويأتى من السكر والتدخين والتوتر .. تحليل عن بعد ، نشره الطبيب الفرنسي د . بيير ونتشنيك .

– السبب .. زيادة جرعات الأنسولين مع ازدياد معدل السكر ، وتوقف البنكرياس عن العمل نهائيا .. فقد أدى ذلك إلى ترسيب أملاح حول أعصاب الساق اليمنى ، وحول الشرايين الملاصقة لها .

– الترسيب لم يكن ترسيب أملاح ، وإنما ترسيب كولسترول ، وقد حدث على فرع الشريان الأبهر (الموجود فى البطن) الذى يغذى الساق اليمنى ، فقلل من كفاءة مرور الدم والأوكسوجين إلى عضلات الساق (خاصة السمانة) فنتجت الآلام الشرسة .

والتفسير الأخير يحظى بأصوات أكثر .

ومن مؤيديه الطبيب السوفيتى « يفجينى تشازوف » الذى ساهم فى علاج جمال عبد الناصر حتى وفاته .

ود . تشازوف تولى وزارة الصحة .. وكان طبيب بريجيف .. ومن أبرز أطباء القلب فى العالم .. وشغل منصب مدير المركز العلمى لأمراض القلب ، ومدير أكاديمية العلوم .. وقد نشر فى سنة ١٩٨٥ سيرته الذاتية ، تعرض خلالها لمرض جمال عبد الناصر ، وقد ترجمت مجلة « الدستور » هذا الجزء ونشرته فى عدد ٢٣ سبتمبر من العام نفسه ، بمناسبة مرور ١٥ سنة على رحيل جمال عبد الناصر .

قال د . تشازوف :

« استشار الرئيس المصرى جمال عبد الناصر ، الأطباء السوفييت حول الآلام التى كان يشعر بها فى ساقه ، وفى منطقة أسفل الظهر ، والتى كانت تشتد أثناء المشى ، حتى أنه كان لا يستطيع السير بدون آلام إلا بضع مئات من الأمتار .

لقد شخصت إصابته بمرض السكر منذ عام ١٩٥٨ بالتحديد .

و لم تترك نتائج الفحوصات الموضوعية التى أجريتها عليه ــ بما فى ذلك على القلب والشرايين ــ أى شك لدينا بأنه مصاب بتصلب شرايين الساقين ، وكان مما يزيد الأمر تعقيدا أن إصابات نهايات الشرايين ، جعلت من المستحيل إجراء عملية جراحية لاستئصال الأجزاء التالفة .

وقد علمنا أن جمال عبد الناصر استشار قبلنا عددا من الإخصائيين ، ولكن العلاج لم يسفر عن أية نتائج إيجابية فعالة .

وهكذا ...

انبثق أمامنا خطر تطور الأمر إلى ظهور العرغرينا وحتمية بتر الساقين .

لكن ...

اقترح البعض أن نجرب العلاج بالمياه المعدنية » .

□ □

انفجرت قنابل اللهب فى ساق جمال عبد الناصر فى نوفمبر ١٩٦٧ .

وفى ذلك الشهر ، وبعد خمسة شهور ، من المقاومة ، أمكن ترويض جنون السكر ، والحد من تدهوره .

وسبق ذلك ، ولمدة شهرين ، انتشار البثور فى بعض أجزاء من جسمه ، جعلت

أى احتكاك بينها وبين الملابس يسبب آلاما رهيبة ، وأزمات عصبية شديدة ، وعولج منها بالهرمونات المضادة التى وصفها طبيب إنجليزى ، كشف عليه .. والمصدر هنا أنور السادات (البحث عن الذات ــ ص ٢١٤) .

ولا جدال .. أن ذلك كان من مضاعفات السكر .

وقد كانت هذه البثور تتزايد فى منطقتى الرقبة والمقعدة .

وكانت تثير الرغبة فى الهرش .. وكان الهرش يحولها إلى جروح .. وكانت الجروح لا تندمل بسهولة .. وكانت تثير شهية الميكروبات .. فتحولها إلى تقيحات متناثرة تسبب الآلام ، وتفلت الأعصاب .

□ □

تنصح الموسوعات الطبية مريض السكر بالاعتدال فى العمل .. حتى لا ترهق العضلات .. فالمطلوب قليل من الحركة يكفى لحرق المزيد من السكر فى الدم .. أما المجهود الأكثر فيعنى كارثة أسرع .. وترى هذه الموسوعات أن أفضل الأعمال لمريض سكر مزمن مثل جمال عبد الناصر .. تنسيق الزهور .. تهذيب الحشائش .. المشى لمدة نصف ساعة على مرتين ، قبل الظهر ، وبعد المغرب .. ومشاهدة الأفلام الكوميدية .. أو أفلام الأكشن والكاوبوى .

ولو طلب الأطباء من جمال عبد الناصر أن ينفذ هذه النصائح لضربهم بالنار .. أو لأودعهم بنفسه مستشفى الأمراض العقلية .

وأقصى ما فعلوه أنهم نصحوه بعمل أقل وراحة أكثر .. وأقصى ما نفذه تمشية لمدة نصف ساعة مرتين فى اليوم .

فكان لا بد من البحث عن وسائل أخرى تساعدهم .

وهكذا لجأوا إلى التدليك والعلاج الطبيعى ، قبل الأطباء السوفييت .

تقول الموسوعات الصحية إن المياه المعدنية تخفض السكر بالدم بعد شربها بنصف ساعة ، بشرط أن تكون من النبع مباشرة .. ويمكن الاستفادة من حمامات الشمس إذا لم يتضايق المريض من حرارتها .. والاستحمام بالمياه المعدنية مفيد .. كذلك الاستحمام بالماء العادى مع إضافة غازات خاصة تعبأ فى أنابيب .. وتفضل حمامات

« الدش » المتعاقبة .. وحمامات البخار .. والتدليك .. ومسح الجسم كله صباحا بالماء البارد .

أما ما قبله جمال عبد الناصر من كل هذه الأساليب .. فالمشى .. وبعض التمارين الرياضية .. والتدليك أحيانا .. وحمامات الماء التى تجبر الجسم على الاسترخاء .

واقترح السوفييت العلاج فى الحمامات المعدنية ، فى مصح تسخالطوبو الشهير فى منطقة تُسمى القفقاس .. « إذ قد يؤدى استحدامها إلى تطوير أوعية دموية إضافية (غير الأوعية المصابة) ويساعد على معالجة الشرايين المتصلبة » .

وحددوا المدة بستة شهور .

وضمنوا النتائج .

ونقل جمال عبد الناصر العرض إلى الدكتور فايز ، الذى فضل (بحكم طبيعته) ألا يقرر بمفرده ، وهكذا جمع « كونسلتو » من ١٠ أطباء متخصصين فى القلب ، والسكر ، والأعصاب ، والدورة الدموية .. وبالإجماع وافقوا على السفر .

وفى يوليو ١٩٦٨ ، سافر جمال عبد الناصر .. وعلى الطائرة كان معه محمد حسنين هيكل .. ود . منصور فايز .. ود . الصاوى حبيب .. وياسر عرفات الذى « دعاه لمرافقته للاتحاد السوفييتى ليقدمه للقادة السوفييت ، لأول مرة .. وكان سفره تحت اسم مستعار (محسن أمين) وبوظيفة مستعارة فى رئاسة الجمهورية » .. كما كتب محمد حسنين هيكل فيما بعد .

كان محمد حسنين هيكل يجلس أمامه فى الطائرة .. وفوجىء بأنه لا يستطيع الجلوس فى مقعده من شدة الألم .. وكان أن فرش له الأطباء سريرا فى الجزء المخصص له فى مقدمة الطائرة .. وعلى هذا السرير ناقش ياسر عرفات فى المحادثات التى سيجريها مع السوفييت حول مساعدة الفلسطينيين ... « بينما الألم يعتصر جسده .. وحركة لا شعورية بالضغط على نواجزه تشير إلى ما يعانيه من آلام » .

وفى مستشفى « بريخة » فحصه د . تشازوف .. وتعرض لفحص شامل من « كونسلتو » .. ضم أربعة أطباء سوفييت .. فكان التشخيص الذى ذكره د . تشازوف فى مذكراته الخاصة .. وكان القرار أن يعود ــ مرة أخرى ــ بعد أسبوعين لعلاجه بالمياه المعدنية .

وعاد جمال عبد الناصر إلى القاهرة ...

ثم سافر بعد فترة إلى تسخالطوبو .. وهناك قضى ٣ أسابيع ! .. بالتحديد ٢٦ يوما .

□ □

حسب ما قاله د . تشازوف فإن العلاج الطبيعى فى ينابيع منطقة القفقاس المعدنية يمكن أن يُشفى التهاب الأعصاب ، لو كان التغيير الذى حدث ، تغييرا كيميائيا فقط .. أما إذا كانت الحالة قد وصلت إلى تغيير عضوى فلا أمل فى إعادة الشرايين المعطوبة إلى ما كانت عليه .

لكن .. الأمل فى زيادة كفاءة الشرايين البديلة .. لتوصل الدم إلى الساقين .. وأن يتأقلم الجسم على ذلك .. وذلك بمرور الوقت .

وأهم ما فى هذا الأسلوب من العلاج .. أن جمال عبد الناصر وجد فرصة الراحة الذهنية .. وابتعد عن متاعب الحكم .. وإذاعات الأعداء الشامتة .. والتقارير اليومية .. ووجد نفسه فى منطقة ساحرة الجمال .. يسيطر عليها السكون .. وساعد الأطباء بضبط نظام العلاج والغذاء .. ومن ثم .. كانت النتيجة — على حد قول د . تشازوف — مذهلة .. « فبعد الانتهاء من دورة العلاج فى الحمامات ، تحسنت صحته ، بحيث لم يستطع السير بدون آلام وحسب ، بل وصار يمارس لعبة التنس أيضا » .

وقد كانت لعبة التنس ، اللعبة المفضلة له .. وكان يلعبها ثلاث مرات فى الأسبوع .. وبسبب آلام الساق اليمنى لم يعد يمارسها .. لكن .. بعد تسخالطوبو ، عاد إليها .. دون إفراط .. ولمدة لا تزيد عن ربع ساعة فى المرة الواحدة .

ويقول د . تشازوف :

إن عبد الناصر « كان يجمع بين الإرادة والجاذبية .. وأذكر أننا حاولنا أن نطلب منه بأسلوب دبلوماسى ، مهذب ، الامتناع عن التدخين ، فإذا به يلتفت إلى مرافقه ويقول له ببساطة ودون تصنع : (لا داعى للسجائر) . وبالفعل فإننا لم نره بعد ذلك أبدا ، وهو يدخن أمامنا » .

وفيما بعد ، سأل عبد الناصر عن علاقة التدخين بحالة الساق .. فقيل له : إن التدخين يفرض على الجسم كولسترول أكثر .. مما يضيق الشرايين أسرع .. ويجعل درجة تصلبها أكبر .. كما أنه بالذات يؤدى إلى تغيرات فى الشريان الأبهر ، الذى يغذى الساقين .. وتكون النتيجة أن النيكوتين يقلل من ورود الدم إلى الأطراف .

وعرف عبد الناصر أن مرضه يُسمى « **بيرجر** » .. أو « **بيودجر** » .. وقدم أحد أطباء المصحة واسمه « ايفان » إليه تقريرا عن هذا المرض .. وعن مراحله ، وأعراضه .. كان ما فيه ينطبق على ما جرى له .

يقول تقرير « ايفان » :

ــ إن هذا المرض يبدأ بتعب عاجل فى الساقين .. مع آلام يمكن تحملها فى البداية .. وبعض التقلصات فى العضلات تؤدى إلى خلل بسيط فى التوازن عند السير .. أو إلى العرج .. ومع استفحال المرض تشحب أصابع القدمين ، وتميل إلى اللون الأزرق .. ويمكن أن ينتهى ذلك بالغرغرينا .. وعندما يصل المرض إلى الذروة تكون الآلام طريقا إلى الجنون .

والمرحلة الأخيرة هى التى كان عليها عبد الناصر وهو فى طريقه إلى تسخالطوبو .. فعندما كان ينزل من السيارة ، كان يمد ساقه أولا ، ثم يزحف ليهبط من المقعد .. وأحيانا .. كان يعجز عن هذا الزحف .

ويقول محمود الجيار : إنه بكى عندما شاهده فى هذه الحالة .. وسارع إليه يساعده ، وهو لا يصدق عينيه ، ولا يريد أن يصدق .

ويضيف :

« وبعدها انتهزت أول فرصة ، وخلوت إلى نفسى ، لأبكى على راحتى .

وزاد من تعاستى ما شاهدته من آلامه بعد ذلك .. وما زلت أذكر ذلك اليوم ، الذى قال لى فيه وهو فى قمة الألم :

ــ أنا ما ينفعنيش دكتور يا « جدع » .. شوف لى نجار يطلع المسامير اللى فى ضهرى »[٤] !

---

(٤) بيرس ــ المرجع السابق ــ ص ٨٨

كان محمود الجيار معه فى تسخالطوبو .. ولأنه يعرف أن متاعب عبد الناصر النفسية تُفقد أى علاج تأثيره .. فقد بلّغ السوفييت — على حد روايته — بضرورة إمداده بالسلاح الذى يحتاجه ، و « ما ينقص الطيران والدفاع الجوى بوجه خاص » .. فذلك ما يشغل تفكيره ، ويؤخر علاجه ، ويضاعف آلامه .. « فعلاج عبد الناصر ليس فى الحمامات » وإنما بتزويده « بحاجات المعركة » .. إذا « كنتم تريدون شفاءه حقا »[٥] .

وقال لهم الجيار :

« إنكم لا تعالجون مجرد مريض .. وإنما نعالجون قائدا يخوض معركة .. ومفتاح شفائه هو هذه المعركة .. أعطوه السلاح وسترون أنه لن يعود فى حاجة إلى علاج »[٦] .

والمذهل أن ما فعله الجيار (برغم أنه تجاوز لحدوده) قد نجح .. وجرت اتصالات (بشأن السلاح) بين عبد الناصر ، وبريجنيف ، وجروميكو .. وقال عبد الناصر للجيار (فيما بعد) .. « **أنت خدمتنى ، وقلت الكلام اللى كنت عاوز أقوله** »[٧] .

□ □

يتعجب الجيار من أن جمال عبد الناصر الذى لا يتحمل السير ثلاث دقائق ، كان يتحمل أن يخطب — وهو واقف على قدميه — ثلاث ساعات ... كيف ؟!

ويصفه أنور السادات بأنه كان « مثل الأسد الجريح » .. يكتم آلامه ليظهر أمام الناس بكل هيبته وبالهالة الضخمة التى كانت تحيط به .. فإذا ما انفرد بنفسه ، صرخ بأعلى صوته ![٨] .

وقد كان الشيء نفسه يحدث مع الرئيس الأمريكى جون كيندى .. الذى سحقه

---

(٥) المرجع السابق — ص ٨٩ .
(٦) المرجع السابق — ص ٩٠ .
(٧) المرجع السابق — ص ٩٢ .
(٨) البحث عن الذات — ص ٢٤

الألم .. وهو يبتسم .. ولم يكن الشعب الأمريكى ، يعرف أن رئيسه الشاب ، الوسيم ، المرح ، يكاد يجن من الألم فى كل ثانية يقف فيها أمامه ، بسبب تآكل غضاريف العمود الفقرى .

أما الزعيم الروسى فلاديمير ايلتش لينين .. فكان أكثر شجاعة .. وجرأة .. فبعد ٣ سنوات على قيام الثورة أعلن بنفسه مرضه على الجماهير .. منتهى الشجاعة .. لكنها شجاعة لم تأت إلا بعد أن أصبح عاجزا عن النوم والكتابة .. وقد كان مريضا بتصلب الشرايين ، وتجلط العروق ، وبعض حالات النزيف الداخلى .. وكان إذا مشى على الأرض أحس أنه مثل فقراء الهنود يمشى على مسامير وأشواك .. إلا أن ذلك كان يزول تماما إذا ما وقف يخطب .. كان يشعر أنه عاد إلى شبابه ، وإلى صحته ، فهل هتافات الجماهير كانت الدواء ؟ .

هل كان ستالين على حق عندما تساءل : « أين الجماهير .. أين الدواء ؟ » .

لقد لاحظ الحكام العرب ، فى قمة « الخرطوم » أن عبد الناصر تأخر .. وبالرغم من أنهم جاءوا لنجدته، فهم ينتظرونه .. وعندما دخل عليهم كانت تبدو على ملامحه علامات النصر لا الهزيمة .. وأن معنوياته فى القمة .. ومرحه يكاد يقفز من عينيه .. وعرفوا السبب .. لقد حملت الجماهير سيارته .. وهتفت بحياته .. فتأكد من أن الشىء الذى يسعده لم تحطمه الطائرات الإسرائيلية فى ٥ يونيو ١٩٦٧ .. وهذا صحيح .

ولأن الأنسولين . لأسباب صحية ، انخفضت جرعته ، فقد كان لا بد أن يحمل عبد الناصر فى جيبه أقراصاً طبية ، يبتلعها حتى لا يتعرض للغيبوبة .. وفيما بعد .. فى ديسمبر ١٩٦٩ ، كان فى ليبيا .. وفوجىء بالجماهير هناك تسد الطريق من المطار إلى قصر الضيافة ، وظل فى سيارة جيب يرد التحية لمدة ٤ ساعات .. كان من المؤكد أنها مدةتكفى لإصابته بالغيبوبة إذا تعرض لهذا المجهود ولم يبتلع الأقراص .. لكن .. ذلك لم يحدث .. لأنه تناول دواء أشد ... صرخات الجماهير .

إن هذا الدواء أشبه بأكسير الحياة عند زعيم من طراز جمال عبد الناصر .. يشعر بالقوة عندما يشعر أن الجماهير فى حاجة إليه .. وأنها تعلق مستقبلها عليه .. وأن

انقيادها له شرف تاريخى لا تحلم بالحصول عليه .. وأنه قدرها .. ومصيرها .. ونور عيونها .

ولو لم تخرج الجماهير المصرية تطالبه بأن لا يتنحى .. لمات كمدا .. لكن .. عندما فعل المصريون ذلك .. واعتبروا استقالته مستحيلة .. خرج من الهزيمة « أقوى مما كان عليه فى أى يوم مضى » .. والعبارة الأخيرة لمايلز كوبلاند .. وتعنى الكثير .

□ □

فى تسخالطوبو ، كان علاج جمال عبد الناصر بمادة « رادو » المشعة ، الموجودة فى المياه المعدنية .. ويقول د . الصاوى حبيب :

« أنا من جانبى جربت هذه المياه لأننى كنت أريد أن أتوثق من فائدتها »[9] .

لكن ...

هذه التجربة لم تزد — على ما يبدو — على أنه ألقى نفسه فى المياه .. وأخذ « غطسا » .. لأنه قال فى موضع آخر :

« .. ولم نكن نعلم بالضبط ما طبيعة هذا العلاج »[10] .

والحقيقة أن طبيعة عمل الدكتور الصاوى حبيب لم تكن تسمح له بأن يعرف ما ليس من حقه أن يعرفه .. فبدت شهادته خالية من التصور الدقيق .. الشامل .. وبدا أن المصريين ، قبلوا أن يدخل جمال عبد الناصر الحمامات السوفييتية ، دون أن يعرفوا ما سيجرى له فيها .

والمؤكد أن تقريرا يوميا عن العلاج ، كانت تعده المخابرات المصرية .. كما أن تحليلا دقيقا عن المياه ، وأجهزة التدليك ، والأطباء السوفييت قد أعد .. وقد استعانت رئاسة الجمهورية بمبعوث مصرى ، كان فى بعثة دكتوراه هناك ، لمعرفة الصورة الفنية لما يجرى للرئيس .. وفيما بعد أصبح هذا المبعوث وكيلا لمعهد العلاج الطبيعى بالقاهرة .

ولا يمكن تخيل هذا الأمر على أنه « مؤامرة » سوفييتية للتخلص من جمال عبد الناصر .. فالواقع أنها إجراءات أمن روتينية ، يفرضها شخص الرئيس ... أى رئيس .

---

(٩) التصامس — ١٨ / ٦ / ١٩٨٨ .

(١٠) صباح الخير — ٦ / ١١ / ١٩٨٦ .

بل ...

إننا نزعم أن قبول عبد الناصر العلاج فى تسحالطوبو كان يعنى منتهى الثقة فى الأطباء السوفييت .. الثقة الطبية .. والسياسية أيضا .

فقد كان عبد الناصر يعتبر مرضه من أسرار الدولة العليا ، التى تسعى لكشفها أجهزة المخابرات الغربية .. ومن ثم كان حريصا فى اختيار الأطباء .. وكان يفضل دائما ألا يسلم نفسه إلا للأطباء المصريين .

□ □

بعد ٢٦ يوما فى تسخالطوبو عاد جمال عبد الناصر إلى القاهرة .

بدأت الآلام تزول .. ونشطت الشرايين البديلة .. وخف التهاب الأعصاب .. وكان ذلك معجزة بكل المقاييس الطبية .

« وبدأ يسير سيرا طبيعيا .. بل إنه صاح فرحا عندما اكتشف أنه قادر على السير : إننى أستطيع السير بخطوة الأوزة .. خطوة المشى فى الجيش الألمانى »[11] .

واستمر فى ذلك ٦ شهور .

وساعده .. أن حالته النفسية كانت طيبة بعد ضرب المدمرة الإسرائيلية إيلات .. وبعد بناء خط الدفاع الأول غرب القناة .. وبعد أن استجاب الاتحاد السوفييتى لطلبات الدفاع الجوى .

وخلال تلك المدة كان العلاج الطبيعى مستمرا ..

وساعد ذلك ، على أن يقال ــ فيما بعد ــ إنه قُتل بالسم ، الذى كان يدلكه به أخصائى مصرى فى العلاج الطبيعى ، اتضح أنه جاسوس إسرائيلى ، هو على العطفى .. وهذه قصة أخرى .

لم يصدق جمال عبد الناصر نفسه .

فأفرط عليها ... وفرط فيها .

فكانت متاعب القلب فى انتظاره !

□ □ □

---

(١١) موسى صبرى ــ وثائق ١٥ مايو ــ المكتب المصرى الحديث ــ ١٩٧٦ ــ ص ٢٩٤

□ ٥ □

الجاسوس .. والتدليك بالسم ؟!

فى ١٥ يناير ١٩٨٢ ، احتفل حزب « التجمع » ــ كالعادة ــ بذكرى ميلاد جمال عبد الناصر .

كان « نجم » الاحتفال شيخ المحامين « عبد العزيز الشوربجى » الذى كان قد وقف بالمرصاد فى وجه « كل » محاولات « أنور السادات » لتفجير نقابة « المحامين » ، والقضاء على دورها الوطنى .

وبرغم أن « عبد العزيز الشوربجى » كان قد تجاوز السبعين فإن صوته كان لا يزال قويا ، وبلاغته فى الخطابة لم تصب بتلعثم الشيخوخة .

ومن ثم ... راح يتحدث بحماسة وفتوة عن « **الرجل الجبل** » .. « **الرجل البطل** » .. جمال عبد الناصر ثم .. التفت إلى خالد محيى الدين قائلا :

« إن فى عنق محبى جمال عبد الناصر أمانة لا يمكن التفريط فيها .. أمانة الكشف عن قاتله » !

وقبل أن تتراقص وتتلوى ، علامات الاستفهام ، والحيرة ، وربما الدهشة أيضا ، أمام عيون الحاضرين ، أضاف المحامى العجوز :

ــ لقد اعترف لى الجاسوس الإسرائيلى ، الذى يدعى الدكتور « على العطفى » بنفسه ونحن فى السجن أنه « قتل » جمال عبد الناصر بالسم البطىء ، عندما كان يدلك له ساقيه أثناء مرضه ، بمراهم ودهانات خاصة تتسلل إلى الدورة الدموية ، فتفسدها ، تدريجيا ، دون أن يشك أحد !

كان عبد العزيز الشوربجى قد اعتُقل ضمن ١٥٣٦ شخصا من مختلف القوى والمذاهب قبل اغتيال أنور السادات بحوالى الشهر، فى الأيام الأولى من « سبتمبر »

١٩٨١ ، وكان السبب المباشر للقبض عليه أنه قال علنا فى نقابة المحامين : « **ألا يوجد فى هذا البلد رجل واحد يخلصها ويخلصنا من هذا الفرعون** » .. وكان يقصد أنور السادات .. ويتمنى إراحته .. وكان هذه يكفى لأن يجد نفسه فى سجن « طره » .. وهناك التقى بالدكتور ـــ اللغز « **على العطفى** » ، وسمع منه ما أعلنه فى حزب « التجمع » .

□ □

استجابت السماء لعبد العزيز الشوربجى ، واغتيل أنور السادات فى ٦ أكتوبر ١٩٨١ ، وشاء القدر أن ينضم المحامى الكبير إلى هيئة الدفاع عن قتلة « **الفرعون** » .. لكن .. الموت لم يمهله .. فخرجت أنفاسه الأخيرة قبل أن تنتهى المحاكمة .

من بين أعضاء هيئة الدفاع كان المحامى الناصرى ، عضو اللجنة التنفيذية العليا لحزب « العمل » .. « شوقى خالد » الذى أشار فى مرافعته عن المتهم الثانى (عبد الحميد عبد السلام) إلى أن السادات قد خفف الحكم عن الجاسوس الإسرائيلى « على العطفى » من الإعدام إلى السجن ١٥ سنة .. وأن « على العطفى هو أحد المتهمين بقتل جمال عبد الناصر بالسم عن طريق التدليك لساقه المريضة »[11] .

□ □

أضافت هذه الشهادات « البنزين » على الشائعات التى راحت تنتشر بجنون فى النوادى ، والمقاهى ، والكباريهات .. وعلى المصاطب .. وكان أن أصبح على العطفى أسطورة .

وضاعف من « حبكة » الأسطورة أن جهاز المخابرات العامة الذى قبض على الدكتور « على العطفى » حُرم من كشف قضيته بتعليمات صارمة من السادات ، بعد أن أقنعه رئيس وزراء إسرائيل الأسبق بأن نشر قصة هذا الجاسوس على الرأى العام ، سيؤثر على « مسيرة » السلام .

وكان أن منح « التكتم » الرأى العام الفرصة كى ينطلق خياله إلى أبعد حد ..

---

(١١) شوقى خالد ـــ محاكمة فرعون ـــ دار سينا ـــ القاهرة ـــ ١٩٨٦

وكان أن نقلت مجلة « الوادى » الشهرية (عدد يناير ١٩٨٣) عن أحد كتب التجسس : إن جمال عبد الناصر « مات بطريقة غير طبيعية بتخطيط من دولة أجنبية ، وألقى القبض على الدكتور على العطفى ، أخصائى العلاج الطبيعى بالنادى الأهلى بتهمة تنفيذ هذه الخطة البشعة » .

وأضافت المجلة (ص — ١٩) نقلا عن المصدر نفسه :

« المعروف أن عبد الناصر كان قد أُصيب بجلطة فى الساق اضطرته للسفر إلى تسخالطوبو فى الاتحاد السوفييتى لإجراء جراحة عاجلة . وبعد عودته كان معه توصية بإجراء جلسات علاج طبيعى ، فقامت رئاسة الجمهورية بترشيح الدكتور على العطفى لهذه المهمة ..

وكان على العطفى متزوجا من سيدة إيطالية ، اشتهرت فى الأوساط الرياضية باسم « لوليتا » ، وكانت دائمة السفر إلى روما لزيارة أسرتها ، وهناك نجحت المخابرات الإسرائيلية فى تجنيدها ، والاتصال بها ، وتسليمها مرهما خاصاً ليقوم زوجها باستخدامه فى تدليك ساق عبد الناصر .. وقد تشربت المسام المرهم الممزوج بالسم ، فأدى ذلك إلى إصابة الرئيس الراحل بأزمة قلبية أنهت حياته » .

القصة نفسها ، نُشرت فيما بعد فى كتاب يحمل اسم على العطفى نفسه ، وقد تسربت بعض نسخ من الكتاب إلى دول فى الخليج ، قرأها مصريون يعملون هناك ، وتكفلوا بنقل ما جاء فيها إلى أقاربهم ومعارفهم فى مصر .. وكان أن راحت دائرة الأسطورة تتسع ، وتتسع .

الكتاب مجهول الهوية .. ناشره غير معروف .. وعندما طُرح سرا فى الأسواق ، كان مؤلفه فى سجن « طرة » يقضى مدة العقوبة ، التى من المفروض ألا تنتهى قبل سنة ١٩٩٤ .

فكيف كتب على العطفى الكتاب ؟ وكيف تسرب من وراء جدران السجن إلى الخارج ؟ ومن الذى حمله إلى الناشر ، ودفع به إلى أنياب المطابع ؟

أغلب الظن أن الكتاب من تأليف المخابرات الإسرائيلية .. وأنها ناشره الحقيقى .. والمسئولة عن توزيعه ، والمستفيدة من ترويج ما فيه .

فمن مصلحة المخابرات الإسرائيلية أن يُنسب لها قتل جمال عبد الناصر ؛
رجل كان يدلك ساقيه بالسم .. إن ذلك يعنى أن يدها أطول بكثير مما نتص
فقد وصلت إلى بيت جمال عبد الناصر ، وحجرة نومه ، وفراشه ، و
وجسده ، وخلايا ساقيه .. وراحت تعبث بهذه الخلايا ، وتحطمها ، وتنة
خلالها السم إلى القلب والدورة الدموية .

أى نجاح أكثر من ذلك يمكن أن يحققه جهاز مخابرات فى العالم ؟!

لا يوجد !

□ □

حتى ننسف هذه الأسطورة لا بد من حل لغز على العطفى .

وقد حاول الكثيرون أن يضعوا أيديهم على الحقيقة أو حتى الاقتراب ،
لكنهم .. فشلوا .. ولأنهم لم يعترفوا بفشلهم ، فقد أضافوا إلى الأسطو
يدعمها ... مع أن هدفهم كان تحطيمها ... فالطريق إلى جهنم مفروش
الطيبة .

ولأن الحصول على المعلومات — فى مثل هذه القضايا — من غير مص
الأصلية مسألة شديدة الصعوبة ، فقد وجدت نفسى دائما فى طرق مسدو
ولكن .. مع الرغبة فى المعرفة الممزوجة بالإصرار ، والصبر ، كان من الممكن
من ثقب فى جدار .. والوصول إلى الكثير .. وكان ما توصلت إليه كافيا لحل ال
أو هكذا .. أعتقد .

□ □

لم يحصل « على العطفى » إلا على شهادة « **الإعدادية** » .

ولد فى النصف الثانى من العشرينات .. من أسرة متواضعة .. وكان ذل
السبب المباشر وراء عدم استكماله التعليم .. وقد وجد نفسه ينزل إلى سوق
مبكرا .. لكن .. ذلك لم يقض على طموحه الجامح الذى كبحه بعض الو
بحكم الظروف القاسية .

استهوته حرفة « التدليك » .. أو « المساج » ، وبدت مناسبة لطبيعته ، و

فهذه الحرفة تفتح أمام صاحبها أبواب غرف نوم الأثرياء والوجهاء ، وأصحاب النفوذ ، الذين يجدون فى « التدليك » رياضة ، غير مرهقة ، يجددون بها حيويتهم ، ويجدون فيه فرصة للاسترخاء النفسى والعصبى ، الذى تسببه أصابع « المدلك » ، المغموسة فى الزيوت والدهانات .

وهذه الحرفة تتميز بجلب عائد مادى لا يمكن تصوره .. حيث لا يبخل — من يسلم جسده عاريا لضربات يد « المدلك » المحسوبة — فى منح الهبات .. بخلاف المكاسب غير المباشرة التى يمكن الحصول عليها عندما يكون « الزبون » شخصية « مهمة » .

تعلم على العطفى « التدليك » على يد الأجانب الذين كانوا فى مصر قبل حرب « السويس » .. وعندما هاجر « هؤلاء » بعد الحرب خوفا من التمصير والتأميم كان قد أصبح خبيرا ، ولم يتردد فى أن يقول : إنه « الأب الشرعى للتدليك والعلاج الطبيعى فى مصر » ..

ولأنه برع فى حرفته ، فقد تهافتت عليه الأندية الرياضية الكبرى ، التى كانت فى حاجة ماسة إلى هذا التخصص .. وكان أن انتهى به المطاف فى النادى « الأهلى » .

ولأنه برع فى إخفاء مؤهلاته ، فقد كان يعامل معاملة « الخبير » و « الأخصائى » فى علم لم يكن معروفا لدينا ، هو علم العلاج الطبيعى ، والطب الرياضى ، وأمراض الملاعب .

ولأنه برع فى إظهار نفسه بمظهر لائق ، فقد نجح فى فرض نفسه على المجتمعات الراقية كواحد منها ، ودعم هذا النجاح بعلاقات قوية مع بعض أصحاب الشأن ، أضافت إليه الكثير .. وجعلت منه شخصية مرموقة .. لها نفوذ .. واتصالات .

كل ذلك جعله ينضم إلى قائمة مدربى العلاج الطبيعى الذى بدأت دراسته فى مصر فى سنة ١٩٥٤ تحت إشراف منظمة الصحة العالمية .. وكانت الدفعات الأولى التى درسته من خريجى وخريجات معاهد التربية الرياضية .

بعد ... سنتين بدأت البعثات الخارجية إلى الولايات المتحدة ، وبريطانيا ، والاتحاد

السوفييتى ، وألمانيا الغربية .. وفى سنة ١٩٥٩ ، عاد المبعوثون يحملون شهادات الدكتوراه فى تخصصات العلاج الطبيعى المختلفة .. وشجع ذلك على التفكير فى إنشاء معهد عال للعلاج الطبيعى .. على أن يلحق مؤقتا كشعبة بالمعهد العالى للتربية الرياضية .. وكان ذلك فى سنة ١٩٦٢ .. وقد انضم على العطفى إلى هيئة التدريس وإن كان فى قرارة نفسه يشعر بالنقص بسبب نقص مؤهلاته الدراسية ، كذلك كان يشعر بالخوف من أن يسحب الشباب المسلح بشهادات الدكتوراه البساط من تحت قدميه .. ومن ثم لم يتردد فى السخرية من هؤلاء الشبان ، وراح بأساليب ملتوية يحاول إزاحتهم من طريقه .

وحسب حيثيات الحكم الذى أصدرته محكمة القيم فى ١٥ أكتوبر ١٩٨٠ ، برئاسة المستشار الدكتور أحمد خفاجى — والذى سنتعرض له فيما بعد — فإن على خليل العطفى ، وشهرته على العطفى ، أُرسل فى بعثة رسمية للتدريب الراق على تخصص العلاج الطبيعى ، فى سنة ١٩٥٨ ، إلى ألمانيا الاتحادية ، وعاد منها فى سنة ١٩٦١ .

وأنه — بعد ذلك — شارك فى إنشاء معهد العلاج الطبيعى .

وفى سنة ١٩٦٣ ، حصل على منحة دراسية للولايات المتحدة الأمريكية ، واستمر فيها حتى سنة ١٩٦٥ .. حيث عاد إلى مصر ، ورقى إلى درجة أستاذ مساعد بالمعهد .

كما عمل أستاذا للدراسات العليا بمعاهد التربية الرياضية ، وأستاذا لمادة الإصابات بها .

وأصبح رئيس عام الاتحاد المصرى للعلاج الطبيعى .

وابتداء من سنة ١٩٧٢ ، اتسع نشاطه ، وأصبح يشغل الوظائف التالية :

١ — خبير العلاج الطبيعى الذى يمثل مصر فى المؤتمرات العلمية لهذا التخصص .

٢ — عميد معهد العلاج الطبيعى .

٣ — مسئول النشاط الرياضى بالنادى الأهلى .

٤ — المشرف على قسم العلاج الطبيعى بمستشفى الشبراويشى .

٥ ــ المشرف على فرقة باليه القاهرة .

٦ ــ أخصائى العلاج الطبيعى لمرضى البنك الأهلى ، وشركة الشرق للتأمين وشركة وولتكس .

وحسب المصدر نفسه ..

فإنه فى سنة ١٩٧٤ سافر إلى إيطاليا ، وألقى محاضرات فى جامعاتها ، وذلك مقابل ما يعادل ١٥٠٠ جنيه مصرى .

وفى السنة التالية سافر إلى تشيكوسلوفاكيا فى غرض مشابه .

وفى سنة ١٩٧٦ ، سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، ضمن الاتفاق الثقافى بين جامعة القاهرة ووكالة التعاون الدولى الأمريكية .. وعاد بألف دولار .

وفى أجازات الصيف ، كان يسافر إلى هولندا ، الموطن الأصلى لزوجته ، ويعمل هناك كمعالج طبيعى فى المستشفيات الخاصة .

يضاف إلى ذلك ...

أنه أصبح « المدلك » الخاص لرئيس الجمهورية .

ولأسرته .

وفى تلك الفترة أيضا ...

كان جاسوسا لإسرائيل !

□ □

فى سنة ١٩٦٩ استطاع معهد العلاج الطبيعى أن ينفصل ويصبح معهدا مستقلا ، فحاول على العطفى المستحيل حتى يصبح عميدا له ، لكن شهادة الدكتوراه التى يحملها غيره ، جعلت الحلم مستحيلا دون أن يحصل على شهادة مماثلة .. وكان أن سُلمت عمادة المعهد إلى سيدة هى « فوقية عزب سليم » ، التى بقيت فى منصبها حتى سنة ١٩٧٢ ، ثم سافرت إلى دولة الكويت لتعمل هناك .. ولم تعد إلى الآن .

لا جدال فى أن على العطفى أحس بأكبر صدمة فى حياته عندما أيقن أن منصب العميد مسألة مستحيلة وأن الجاه والمال اللذين يتمتع بهما لن يرفعاه إلى مرتبة اجتماعية أكبر من مرتبة « المدلك » ... ويمكن أن نقول إنه كان فى حالة أشبه بالجنون ..

دفعته للبحث عن طريق يوصله إلى شهادة دكتوراه بأى ثمن ... وللأسف كان الثمن المطلوب خيانة الوطن .

وهكذا ...

أصبح على العطفى جاسوسا !

□ □

فيما بعد ...

بعد القبض عليه ، حاول على العطفى تضليل المحقق ، عندما سأله عن كيفية تجنيده فى المخابرات الإسرائيلية .. فقد ادعى أنه كان فى زيارة للعاصمة الهولندية «امستردام» ، فتعرف على فتاة من هناك ، وبينما هما يسهران فى أحد الملاهى الليلية ، عرفته الفتاة بتاجر يهودى ، أقنعه بالدخول معه فى صفقات تجارية .. ثم اتضح أن هذه الصفقات غطاء لما هو أخطر وأدهى ... العمل مع المخابرات الإسرائيلية .

لكن ...

سرعان ما اتضح أن هذه القصة لا أساس لها من الصحة ...

فقد اعترف بأنه هو الذى ذهب بقدميه إلى السفارة الإسرائيلية فى أمستردام ، وقدم نفسه إلى مسئول الأمن بالسفارة ، وعرض عليه التجسس لحسابهم فى مصر .

أوصله مسئول الأمن بمندوب الموساد ، الذى استجوبه ساعات طويلة ، وعرضه لجهاز كشف الكذب ولاختبارات شديدة التعقيد ، تلجأ إليها أجهزة المخابرات عادة ، عندما يطرق بابها عميل متطوع على هذا النحو .

على أننا لا بد أن نتساءل عن سر اختيار على العطفى للمخابرات الإسرائيلية بالذات .. لماذا لم يختر مخابرات دولة معادية أخرى ، مثل المخابرات الأمريكية ، أو مخابرات ألمانيا الغربية ؟ .. لماذا فكر فى إسرائيل رأسا ؟ .. لماذا قرر أن يكون التجسس لحساب أشد الأعداء خصومة لبلاده ؟! .

أغلب الظن أن الإسرائيليين فى وقت سابق حاولوا تجنيده لحسابهم .. وأن ذلك كان عندما أشرف على « النادى الصحى » بفندق الهيلتون عند افتتاحه فى بداية الستينات .. وقد كان نادى الهيلتون الصحى (تدليك وساونا وحمامات بخار) الأول

من نوعه فى مصر .. لذلك فقد شد إليه الكثير من رجال المال والأعمال ، وعددا لا بأس به من شخصيات الحكم .. ومن ثم .. كان زرع عميل لإسرائيل فيه ضربة كبرى ، تأتى بثمار ناضجة من المعلومات .. والأسرار .. فعندما يخلع « الرجال » ثيابهم ، ويدغدغ البخار حواسهم ، وتغوص أصابع « المدلك » فى أجسادهم ، يسهل عليهم الثرثرة .. ولأنهم يعرفون الكثير ، فإن ثرثرتهم تكون أخطر من تصوراتهم .. يضاف إلى ذلك أنه لا أحد يمكن أن يشك فى « مدلك » .. خاصة إذا كان يتمتع بمواهب على العطفى .. الذكاء .. الهدوء .. والقدرة على مد جسور الحوار ببراعة .

تسلم على العطفى مسئولية هذا النادى من شخص آخر ، هاجر إلى إحدى دول أمريكا اللاتينية ، وكان هذا الشخص قد تولى مسئوليته بواسطة شخص ثالث ، هو مهندس الديكور الذى أشرف على تنسيق الفندق وهو يهودى مصرى اسمه سامى هرارى ... ومن خلال هذه الشبكة التى ليست فوق مستوى الشبهات ، عُرض على « على العطفى » أن يستثمر موقعه الجديد لخدمة المخابرات الإسرائيلية ... لكنه لم يجد مبررا لذلك ، إلا فيما بعد ... فى سنة ١٩٦٩ ، عندما ذهب إلى الإسرائيليين عارضا عليهم خدماته ، فى مقابل الحصول على شهادة دكتوراه .

أغلب الظن أن على العطفى تذكر العرض الإسرائيلى القديم ، فاستجاب له بعد حوالى ١٠ سنوات .. ولا جدال فى أنه كان مهيئا لأن يصبح جاسوسا .. ولا جدال فى أن الإسرائيليين نجحوا فى غسل مخه غسلا كاملا ، حتى أنه بعد القبض عليه ، ظل مقتنعا بأن إسرائيل لا تترك ولا تفرط فيمن يعمل معها ، وأنها لا تتركه مهما جرى له .

□ □

لماذا سفارة إسرائيل فى أمستردام ؟

فى نهاية الخمسينات سافر على العطفى إلى أمستردام ، وكان معه مدرب كرة القدم المعروف عبده صالح الوحش .. وفى هذه الزيارة تعرفا على فتاتين هولنديتين ، وكان أن تزوج على العطفى ، « آنا ماريا جوهانس » .. وتزوج عبده صالح الوحش صديقتها .

ولأن زوجته هولندية فالسفر إلى أمستردام لا يثير الشك .. وهكذا استخدم الزوجة غطاء لاتصالاته بالإسرائيليين .. وللإنصاف فإن الزوجة لم تكن تعرف ما يفعله زوجها ، حتى قُبض عليه .. وسيبدو مثيرا للدهشة أن نعترف بأنها كانت تحب مصر أكثر منه .. وكانت أكثر وفاء لها منه .

وقد عاشت معه فى القاهرة ، فى ضاحية الزمالك ، فى شارع « بهجت باشا على » ، فى عمارة يملكها ، وتتكون من ستة طوابق ، وكان مسكنه عبارة عن شقتين أزال الجدران بينهما .. وفى المسكن خصص مساحة كبيرة لحجرة المكتب التى غطى حوائطها بمكتبة ضخمة تتسع لأكثر من ١٠ آلاف كتاب .

والمذهل أنه علق على مدخل العمارة عبارة « **الله أكبر** » .

وكان يصلى صلاة « الجمعة » بانتظام فى المسجد الذى يقع على بعد خطوات من بيته .

وكان يذهب إلى النادى الأهلى مبكرا ، ويظل فيه حتى يصلى صلاة « الظهر » ثم يغادره عائدا إلى بيته .

وفى حجرة مكتبه كان يضع عدة مصاحف من مختلف الأحجام ، تلقاها فى مناسبات مختلفة ، ولم يجد حرجا فى الاحتفاظ بها .

وعندما قُبض عليه أُصيبت زوجته بانهيار عصبى ، وسألت أقرب شخص وجدته أمامها :

ــ هل زوجى جاسوس ؟

وبمجرد أن تلقت الإجابة ، وجدت نفسها ، تدخل حجرة المكتب ، وتمسك المصاحف فى هيستريا ، وقالت وهى تصرخ ، وتبكى ، وتشد شعرها :

ــ لو كان جاسوسا فماذا كان يفعل بالمصحف ؟ .. هل كان يضحك علينا ؟ .. هل كان يخدعنا ؟ .. هل كان يسخر منا ؟ .. لقد عشنا معه نكتة .. لكنها نكتة سخيفة .. تُدمِى ولا تُضحِك !

وقد حاول الزوج ــ الجاسوس أن يهدىء من روعها ، ويهون عليها ما فوجئت به .. قال لها وهو يحاول تقبيلها :

ـــ إنها مسألة روتينية وسيعود إليها .

لكنها أشاحت بوجهها ، ورفضت أن يقبلها ، وضربته بكوعها فى صدره .

وعندما سُمح له بالاتصال التليفونى ، رفضت أن ترد عليه .

لقد احتقرته .. ولفظته .. وندمت على السنوات التى عاشتها معه .. ولأنها أحبت مصر ، وعشقت أهلها ، فقد بقيت فيها .. ولأنها سيدة موهوبة ، فقد وجدت فرصة للعمل كمدرسة فى إحدى مدارس اللغات بالزمالك .

سبب آخر .. أهم ، فرض عليها البقاء فى مصر .. أنها أنجبت ولدين .. كان الأكبر فى كلية الهندسة يوم كُشف المستور ، وكان الآخر لا يزال فى الشهادة الإعدادية .. وقد نشر الأكبر إعلانا فى صحيفة يومية ، تبرأ فيه من والده ، واستنكر خيانته لوطنه .

وقد حاول الإسرائيليون الانتقام من الزوجة ، فنشروا أنها إيطالية لا هولندية ، وأن اسمها لوليتا لا آنا ، وأنها هى التى أحضرت السم لزوجها .. السم الذى دلك به ساق جمال عبد الناصر .. والمعنى أنها أخطر من زوجها .. وأنها نجحت فى تضليل المصريين .. وأن دموعها كانت دموع تماسيح .

وكان ذلك جزءاً من كذبة أكبر .

إن الزوجة لا تزال تعيش فى القاهرة .

وهى تمارس حياتها بثبات وثقة ، وتتردد يوميا على نادى الجزيرة .. وهذا يعنى أنها سيدة قوية ، نجحت فى تجاوز قدرها التعس .

□ □

وضع رجال المخابرات الإسرائيلية على العطفى تحت الاختبار .. وفترة الاختبار فى مثل هذه الحالة (حالة عميل يتقدم بنفسه ليصبح جاسوسا) لا بد أن تكون كافية .. ولا نعرف المدة التى قضاها على العطفى تحت الاختبار .. لكننا نعتقد أنها لا يمكن أن تقل بأى حال من الأحوال عن سنة .. وأغلب الظن أنها أكثر من سنة .. ربما ٣ سنوات .. وهى الفترة التى قدموا له بعدها شهادة الدكتوراه المزيفة فى العلاج الطبيعى من الولايات المتحدة الأمريكية .

كان ذلك فى سنة ١٩٧٢ ، بعد وفاة جمال عبد الناصر بحوالى العامين .

وقد قضت الترتيبات أن يحصل على العطفى على شهادة الدكتوراه دون أن يثير أدنى شك .. واقتضى ذلك أن يسير وفق خطوات مدروسة بعناية ، ومن خلال جدول زمنى مناسب .. فكان أن بدأ باختيار الموضوع ، وطُلب منه أن يعرضه على أشخاص بعينهم فى مصر حتى يصدق الآخرون ما يفعل .. ثم وضع عناصر البحث ، وحدد المراجع ، وكُتب له البحث فى النهاية .. وعندما عاد يحمل الشهادة المزورة لم يشك فيه أى شخص .

بل ... إنه فور حصوله على تلك الشهادة ، نجح فى أن يصبح عميد معهد العلاج الطبيعى ، فى الفترة من ١٩٧٢ إلى ١٩٧٧ ، وحقق حلمه الذى دفع فيه أكثر مما يستحق .. الخيانة العظمى .. ولأنه كان على علاقة قوية برؤوس الحكم فى مصر ، فى تلك الفترة ، فقد أزاح من طريقه عالماً فى تخصصه ، كان منصب العميد من حقه ، هو الدكتور يحيى أمين البطاوى ، الذى أصبح عميدا من بعده مرتين ، الأولى من ١٩٧٧ إلى ١٩٧٩ ، والثانية من ١٩٨٦ ، إلى ١٩٨٨ .

وبرغم أن على العطفى قد أصبح رسميا ، وفى عيون الآخرين من حملة الدكتوراه ، فإنه فى قرارة نفسه لم يكن يشعر بذلك .. ومن ثم .. ظل يضطهد الكفاءات العلمية ، ويقطع الطريق أمام تدرجها ونموها الطبيعى .. وأحاط نفسه بمجموعة من « المحاسيب » الذين كان قادرا على السيطرة عليهم .. وكان أن اصطدم به من يثقون فى أنفسهم وفى علمهم ، وكان على رأسهم الدكتور محمد جميل الحنك الذى أصبح عميدا للمعهد من ١٩٨٣ إلى ١٩٨٦ .

لقد ظل على العطفى حتى قُبض عليه يشعر أن فى رأسه « بطحة » وفى قلبه أيضا ، ومن ثم كان دائما يتحسس شعره وصدره .

ولا جدال فى أن ما فعله كان قبض الريح ، فقد شُطب اسمه من سجلات المعهد ، ولم يعد اسمه يُكتب فى دليل « الطلاب المستجدين » .. حيث تنشر من باب التكريم والوفاء ــ أسماء عمداء المعهد .

لكن ... أى تكريم لجاسوس .. وأى وفاء لشخص باع وطنه فى مقابل شهادة مزورة .

ثم ... إنه كان كارثة على المعهد ، الذى فقد استقلاليته بسببه ، وأصبح تحت مسئولية وسيطرة كلية الطب بجامعة القاهرة .

□ □

كان الإسرائيليون يعرفون أن شهادة الدكتوراه هى نقطة ضعفه ، فلم يقدموها إليه بسهولة .. وقد استثمروا ذلك جيدا ، حتى تمكنوا منه ، واطمأنوا إليه .. وخلال فترة حصوله على هذه الشهادة ، كان دائم السفر إلى الخارج .. وكانت حجته مناسبة ... البحث والدراسة .

وقبل أن يُمنح الشهادة كان قد نجح فى توطيد علاقته بأكبر رأس فى الدولة .. رئيس الجمهورية .. أنور السادات .

وقد سُئل فيما بعد عن الشخصيات التى تعرف إليها خلال فترة عمله كجاسوس ، فقال :

« كنت أعرف معظم الشخصيات فى البلد من أول رئيس الجمهورية حتى أصغر فراش فى النادى الأهلى » !

والمثير للذهول أنه كان موضع ثقة الشخصيات المهمة التى تعامل معها .. ولم يُشك فيه ولو بصورة عابرة .. وكانت الأبواب تفتح له بدون استئذان .. وعندما قُبض عليه لم يصدق أحد أنه جاسوس .. وقالت شخصية مهمة ، كانت قريبة بحكم المصاهرة من الرئيس أنور السادات :

« إننى يمكن أن أشك فى ابنى ولا أشك فى على العطفى » .

وفى مجلس آخر أضافت :

« لو كان على العطفى جاسوسا فأنا أيضا جاسوس » .

وفى عدم تصديق ، قال مسئول آخر :

« سيبكوا من حكاية جاسوس ... هو عمل ايه بالظبط » !

والمعنى أن على العطفى يمكن أن يفعل أى شىء ... إلا التجسس .

وهذا المسئول بالتحديد كان فى موقع شديد الحساسية يوم قُبض على « على العطفى » ، ثم أصبح فيما بعد رئيسا للوزراء ، وبعد ذلك خرج للأعمال الحرة ،

وكانت علاقته بهذا الجاسوس قوية لأسباب صحية .. وكان شقيقه (وهو شخصية معروفة أيضا) على علاقة به كذلك .

وبعد فضح على العطفى ، اعتزلت شخصية أخرى الحياة العامة ، وفضلت البقاء فى البيت لمدة تقرب من الشهر .. وأغلب الظن أنها توقعت القبض عليها .. فقد كانت وثيقة الصلة بعلى العطفى ، بحكم مسئوليتهما المشتركة عن إدارة النادى الأهلى .

فقد كان على العطفى حتى القبض عليه مسئولا عن النشاط الرياضى والعلاج الطبيعى فى النادى الأهلى .

وكان يختار مساعديه بعناية ، ودون أن يدروا كانوا يسهلون له مهمته .

وهو الذى أشرف على بناء صالة الألعاب المغلقة فى النادى .

كما أنه من خلال علاقته بجيهان السادات لعب دورا فى مشروع « الوفاء والأمل » .. وقد عُرف عنه أنه كان كثيرا ما يتعالى عليها .. وكثيرا ما كانت تُرسل إليه من يستدعيه ، لكنه كان يرفض .

بل ... إنه قبل فضح أمره بفترة كان مبتعدا — حسب التعليمات — عن أنور السادات .. وحسب التعليمات أيضا كان عليه أن يعيد الجسور التى قطعها لينقل ما يجرى فى بيت الرئيس .. لكن القدر لم يمكنه من ذلك .

□ □

حسب التعليمات كذلك ، كان عليه أن يسمع أكثر مما يتكلم ، وأن يشارك فى الحوار بالقدر المناسب الذى يسمح بالجدل .. لأن الجدل يعنى الاختلاف .. والاختلاف يعنى أن يسعى كل طرف إلى تدعيم وجهة نظره بالأدلة .. وهذا كله يشكل فى النهاية صيدا وفيرا ، يسهل جمعه دون مجهود .

وعندما يكون الجدل والاختلاف بين شخصيات لها ثقلها ، فإن الكثير من الأسرار العليا يكون مستباحا .

وعندما تستمع لهذا الحوار شخصية تتمتع بثقة عمياء ، فإن هذه الأسرار لا تلبث أن تتسرب — بطريقة ما — إلى الخارج .

وقد جن جنون مسئول سابق كان يشارك فى جلسات على العطفى ، وفيما بعد قال :

ــ يانهار أسود ... لو كان على العطفى جاسوسا ، فقطعا أنا أدليت له بمعلومات .. لا أعرف بالضبط ماذا قلت له .. لكن بالتأكيد قلت له ما استفاد منه !

□ □

لا يمكن أن ننكر أن على العطفى كان يتمتع بذكاء فطرى مناسب لوظيفة جاسوس .

لكنه ...

كان فى الوقت نفسه شديد البخل .. إلى درجة لا يمكن تصورها .. حتى أن بعض الظرفاء فى الوسط الرياضى ، قالوا : « **إنه كان يهوديا بالفطرة** » .. وقالوا : « **إن بخله كان سر إعجابه باليهود** » !

وعلماء النفس يقولون : إن البخيل شخص بلا عواطف .. أى أنه بخيل فى مشاعره أيضا .. ويقولون : إن دينه ووطنه القرش .. أى أنه مستعد أن يبيع دينه ووطنه بالمال ..

وهكذا ...

كان على العطفى .

وقد لاحظ الرياضيون الذين رافقوه فى رحلات إلى الخارج أنه يحتفظ بكل ما يقدم إليه فى الطائرات والفنادق .. مناديل الورق .. أدوات المائدة المصنوعة من البلاستيك الرخيص .. أكياس الملح والفلفل التى تستخدم مرة واحدة .. مناشف الحمام .. أقلام الحبر الجاف .. دفاتر الورق الصغيرة ..

ويقال إنهم عندما فتشوا أدراج مكتبه ــ فيما بعد ــ وجدوا فيها الكثير من هذه الأشياء التافهة .. وأثناء التفتيش كاد قلبه أن يتوقف .. ليس خوفا مما فعل ولا فزعا مما سيأتى ، وإنما رعبا على ضياع هذه الأشياء التافهة .. كيس ملح .. أو ملعقة بلاستيك .

ويقال إنه سقطت شوكة بلاستيك على الأرض وانكسرت ، فصرخ :

ـــ حرام عليكم !

وعندما قالوا له :

ــ إنك قلق على أشياء لا قيمة لها !

رد عليهم :

ـــ معظم النار من مستصغر الشرر !

ــ لكنك يمكن أن تشنق .. فكر فى نفسك واترك الشوك البلاستيك .

ـــ ليس أمام عينى !!

حوار يثير الغثيان ... أليس كذلك ؟

شخص يكاد يموت حرصا على شوكة بلاستيك ، ولا يهتز له جفن ، وهو يبيع وطنه إلى أعدائه .. سبحان الله .

هل كان الوطن بالنسبة له أرخص من منديل ورق يحصل عليه مجانا ؟

أى تركيبة نفسية هذا الرجل ؟

□ □

امتد الحرص من المال إلى التجسس !

كان سر نجاحه فى مهمته القذرة أنه كان شديد الاهتمام بالتفاصيل الصغيرة ... فكان مثلا .. إذا أراد أن يرسل خطابا إلى الخارج ، يركب سيارته ، ويظل يلف ويدور بها حتى يطمئن على أنه لا أحد يراقبه .. وفى كل مرة كان يلقى بالخطاب فى صندوق بريد يقع فى حى مختلف .. الباطنية .. شبرا الخيمة .. مصر القديمة .. وفى بعض الأحيان كان يلقى بالخطاب فى مدينة قريبة من القاهرة .. بنها .. مثلا .

وعندما كان يعود من الخارج ، من رحلة كان فيها بمفرده ، كان جواز سفره يحمل تأشيرات بلاد أخرى غير التى زارها .. وكان حريصا على أن لا يحمل من البلاد التى زارها ما يدل عليها .. علبة كبرت .. قميص .. صحيفة .. أى شيء ولو كان غير لافت للنظر .. أو مثير للريبة .

ولأنه كان شخصية مهمة ، فقد كان من حقه استعمال قاعة كبار الزوار ، ولأنه كان موضع ثقة أكبر رأس فى الدولة ، فقد كان من العيب أن تُفتح حقائبه ، وكانت الحقائب تسبقه إلى خارج المطار .. مع وافر الاحترام .

لكن ...

هذا الحرص تحول لأسباب متنوعة إلى لا مبالاة ... وربما استهتار .. وكان هذا من حسن حظنا .

فقد تمكن الإسرائيليون من السيطرة الكاملة على قواه العقلية ، فبات مقتنعا بأنهم أكبر من أن يُكشف لهم جاسوس ، وبأنهم قادرون على حمايته ، ورعايته ، والتقاطه من أى مكان .. حتى من غياهب السجون .

وكان هذا الاقتناع بداية الاسترخاء .

وبعد حرب أكتوبر ، ومفاوضات الكيلو « ١٠١ » ، واتفاقيتى فض الاشتباك الأولى ، والثانية ، أحس على العطفى بأن علاقة السادات بالإسرائيليين أصبحت كالسمن على العسل .. وأن ضراوة الصدام والصراع بين الجانبين تتحول إلى طريق أخرى .. ومن ثم وجد نفسه أكثر اطمئنانا .. فكان أن وصل الاسترخاء إلى مداه ووصل إلى درجة عدم الحرص .

وضاعف من شعوره بالاطمئنان أن مفاوضات جرت بين مصر وإسرائيل ، بواسطة وزير الخارجية الأمريكية الأسبق ، هنرى كيسنجر ، فى سنة ١٩٧٦ ، أسفرت عن صفقة ما ، تم بمقتضاها تسليم إسرائيل جواسيسها الذين كانوا فى السجون المصرية ، بل أكثر من ذلك تسلمت إسرائيل جثتى اليهوديين اللذين قتلا اللورد موين فى نوفمبر ١٩٤٤ ، وهما إلياهو حكيم ، وإلياهو بن تسورى ، وكانا قد أُعدما بعدتنفيذ الجريمة .

كذلك تسلمت إسرائيل جثتى د . ليتو مرزوق ، وصمويل عازار ، اللذين أُعدما فى يناير ١٩٥٥ بعد محاكمات الفضيحة الشهيرة التى تعرف باسم قضية لافون .

وقد وجد على العطفى نفسه ــ بعد معرفة هذه الأسرار ــ ينتقل من درجة عدم الحرص إلى درجة اللامبالاة .

وزار السادات القدس فى نوفمبر ١٩٧٧ ، وتابع الجاسوس الإسرائيلى فى بيته ما جرى هناك .. وسجل الزيارة على شريط « فيديو » كان يريحه أن يعاود مشاهدته .

وهكذا ...

وصل إلى مرحلة الاستهتار .

لم يعد يقوم بجولة السيارة المعتادة وأصبح يلقى خطابه فى أقرب صندوق بريد لبيته .. وكان يضع فى حقائب يده وملابسه — وهو مسافر أو عائد من السفر — ما يدينه بتهمة التجسس لو فُتحت هذه الحقائب .

وفى غانا ، حيث أُقيمت إحدى دورات الجامعات الرياضية ، لوحظ أنه كان كثير التغيب عن الوفد المصرى الذى كان يرأسه .. وكان ذلك على غير عادته .. حيث كان حريصا على متابعة شؤون الآخرين .. كما كان حريصا على الفصل بين الجنسين .. من باب « **الحفاظ على أخلاقنا وعاداتنا كشرقيين** » .

تحت رئاسته ، فى هذه البعثة كان د . صوفى أبو طالب (رئيس مجلس الشعب فيما بعد) ود . حسن حمدى (رئيس جامعة القاهرة فيما بعد) ود . إيهاب إسماعيل (نائب رئيس جامعة القاهرة فيما بعد) ويوسف أبو عوف (مسئول الرياضة فى وزارة الشباب قبل إلغائها) ومحمد لطيف (المعلق الرياضى الشهير) .

وعندما عادت البعثة إلى القاهرة هاجمته أقلام المحررين الرياضيين الذين سافروا للتغطية الصحفية ، واتهمته بالإهمال .. لكن .. لا أحد من الذين رافقوه ، أو هاجموه ، تخيل أنه كان يتصل بمندوب الموساد فى أكرا .. التى انتقل إليها الكثير من نشاط المخابرات الإسرائيلية بعد أن كان فى أديس أبابا ، حتى سقوط نظام حكم الإمبراطور هيلاسى لاسى .

□ □

الصدفة وحدها هى التى أوقعته .

.. والاستهتار .. أيضا .

فى آخر زيارة له لأمستردام وصلت جرأة على العطفى إلى أقصاها ، وذهب بقدميه إلى السفارة الإسرائيلية وتردد عليها أكثر من مرة .

ولأنه شخصية معروفة لرجال السفارة المصرية هناك ، فقد لاحظ أحدهم دخوله السفارة الإسرائيلية .. وكان أن وضع تحت المراقبة .. والتقطت له — عن بعد — عدة صور مع إسرائيليين يعملون مع الموساد .

وعلمت « القاهرة » بالخبر .

وصدرت تعليمات إلى أحد ضباط المخابرات أن يرافقه ـــ على الطائرة نفسها ـــ من أمستردام إلى القاهرة ، على أن يعرف موعد السفر ، ورقم الرحلة ، ومكانه على الطائرة .

وصدرت التعليمات بالقبض عليه فور نزوله مطار القاهرة .

كان من السهل معرفة موعد سفره من أمستردام ، فقد حدد على العطفى الموعد بنفسه ، وأعلنه فى جلسة تمت أثناء زيارته للسفارة المصرية .. قال : إنه سيسافر بعد يومين .. وقد تأكد ضابط المخابرات المكلف بمراقبته ومرافقته من صدق ما قال .. إلا أنه فى الموعد المحدد لم يجده بين المسافرين .

هبط ضابط المخابرات بمفرده فى مطار القاهرة ليجد كل ترتيبات القبض على الجواسيس جاهزة .. لكن المحاولة فشلت لأن على العطفى لم يكن على متن الطائرة .

سلطات الجوازات فى المطار أكدت ـــ بعد مراجعة بطاقات الوصول ـــ أنه دخل البلاد قبل ٤٨ ساعة .. أى فى اليوم نفسه الذى كان يزور فيه السفارة المصرية .. وضاعف هذا التضلبل من تضييق دائرة الشك حوله .

وبالفعل ... تأكدوا أنه فى بيته .. ويمارس حياته كالمعتاد !!

تقرر مهاجمة بيته والقبض عليه والتقاط مزيد من الأدلة التى تدينه وتلف حبل المشنقة حول رقبته .

كانت الخطة أن يتصلوا به تليفونيا ، ويحمدوا الله على سلامته ، ويطلبوا منه بصفتهم صحفيين فى إحدى المجلات الأسبوعية ، الشهيرة ، والمصورة ، إجراء حوار معه ، يتكلم فيه عن رحلته الأخيرة .. ولأن ذلك أمر معتاد ، فإنه لم يساوره الشك فى الطلب .. وقال لهم :

ـــ تفضلوا !

قالوا له :

ـــ لكن ... بشرط !

رد عليهم :

ـــ خير إن شاء الله !

قالوا :

ـــ الكلب !

ضحك بصوت مرتفع !

كان فى بيته كلب متوحش ، ضخم الجسم ، يمكن أن يفترس ثلاثة رجال أشداء معا .. ومع أنه كان من النوع الذى لا يصلح إلا لحراسة الفيلات والقصور ، فإن الاحتفاظ به فى الشقة كان لضمان ألا يتسلل إليها أحد ، ويتمكن من تفتيشها ، فيكشف المستور ، ويفضح ما لا يعرفه سوى على العطفى .

طلبوا منه أن يربط الكلب قبل أن يأتوا إليه .. وافق .. وطمأنهم قائلا : إنه سيربطه فى المطبخ ، وسيغلق عليه الباب إمعانا فى الاحتياط .

وبعد هذه المكالمة حانت ساعة الصفر .

□ □

كانت ساعة الصفر تمام الساعة التاسعة مساء .

وضعت شوارع « الزمالك » تحت السيطرة الكاملة .. وحوصر البيت حصارا قويا .. وبرغم ذلك لم يشعر أحد بما كان يجرى .

كان على قوة الضبط أن تتمالك نفسها ، وألا تدخل بصورتها المعروفة ، وألا تفصح عن مهمتها إلا بعد التأكد من أن الكلب مربوط فى المطبخ ، ولا خطر منه .. وقد حدث ذلك فعلا .. فعندما استقبلهم على العطفى ، طمأنهم من ناحية الكلب .. لكنهم من أجل المزيد من الاحتياط وضعوا حول المطبخ ثلاثة رجال يحملون المدافع الرشاشة .

فى هدوء دخل الجميع حجرة المكتب ، وأغلقوا الباب عليهم .

ثم ... كان أن كشفوا له عن مهمتهم .. وبدأ الصراع .. بدأت حرب الأعصاب ، بين الجاسوس والمخابرات .

جلس فى هدوء على مقعد وثير من الجلد .. وبين الحين والحين كان يضحك فى سخرية .. وكان يقول :

« ماذا تقولون ؟! .. أنا جاسوس ؟! .. على العطفى جاسوس ؟ » .

فتشوا المكتبة .. قلبوا الكتب .. خلعوا أدراج المكتب .. فتشوا حتى الثياب الداخلية .. لكنهم لم يعثروا على ما أرادوا من أدلة .

انتهى الإرسال التليفزيونى و لم تنته المهمة .. دخل ابنه الأكبر ليفاجأ بمشهد الحجرة وقد انقلبت رأسا على عقب ..

سأل والده :

« ايه ده يابابى » .

رد عليه :

« أبدا .. دول جماعة أصحابى » .

سأله باللغة الألمانية :

« هل اتصل بجمال السادات ليتصرف ؟!» .

من حسن الحظ أن أحد الضباط كان يعرف اللغة الألمانية ، فترجم السؤال إلى المحقق (يكون عادة وكيل نيابة أمن الدولة) الذى أمر بنزع أسلاك التليفون ، حتى لا يتدخل السادات فى وقت غير مناسب ، فيفسد القضية ، وبدلا من أن يحاكم الجاسوس ، يُعاقبون هم .

لم يكن الوقت فى صالح الجميع .. إلا أن على العطفى كان يخشى الفضيحة ..فضيحته أمام زوجته ، وولديه ، وجيرانه .. وكان أن بدأ التوتر يسرى فى ملامحه وحركاته .. واصطاد الطرف الآخر طيور التوتر التى انطلقت من وجهه .. وقيل له : إنه لن يُفضح .. وإنه يمكن تكتم الأمر .. وإن الفرصة أمامه ليكون عميلا مزدوجا .. وإنه إذا قبل ستحفظ القضية ما دام فى ذلك مصلحة عليا .

ووافق على العطفى .

وقال :

ـــ إنه نادم على ما فعل ، وإنه سيفعل المستحيل للتكفير عن خطاياه ، وإنهم فى إسرائيل طلبوا منه الحضور إليهم ، وإنه سيسافر ، ويعيش هناك ليكون عينا لوطنه على العدو !

ثم ...

وافق على أن يقول كل ما عنده بشرط ألا يترك بيته .

وكان من السهل قبول الشرط .. مؤقتا .

وقام إلى المكتبة وأحضر كتابا ، قدمه إلى ضابط المخابرات ، وقال له : إن الشفرة التى يستخدمها فى هذا الكتاب .. وبعد حسابات فنية دقيقة أجراها ضابط المخابرات استمرت حوالى الساعة ، أعلن أن على العطفى كاذب .. وأن الشفرة ليست فى هذا الكتاب .

أدرك على العطفى أنه اعترف .. وأن الطرف الآخر يفهم فى مهنته .. فقام ، وخرج من حجرة المكتب إلى الصالة ، وفتح درجا مسحورا فى مكتب صغير ، وأخرج منه كتاب الشفرة ، وجهاز إرسال ، وورقة من نوع خاص ، كانت وسط « بلوك نوت » ، لا يختلف ورقه عن هذه الورقة إلا فى عيون الخبراء وفى أطراف أصابعهم .

وضع على العطفى هذه الأشياء أمام رجال المخابرات ، فتنفسوا الصعداء ، لقد أصبحت القضية قضية !

□ □

كان ذلك فى الساعة السابعة من صباح اليوم التالى .

أى بعد ١٠ ساعات كاملة من الانفعال المكتوم .

طلب المحقق من على العطفى أن يذهب معهم .. لكنه اعترض قائلا :

ــ لقد وعدتمونى أن أبقى فى البيت .

قال المحقق :

ــ هذا إجراء روتينى لن يستمر سوى ساعتين ، والساعة الآن السابعة ، وممكن أن تعود فى الساعة التاسعة قبل أن ينتبه أحد إلى أى شيء .

استجاب على العطفى وترك بيته ، لكنه لم يعد إليه بعد ذلك ، إلا مع جهاز التحقيق ، ولفترات محدودة ، بحثا عن دليل جديد ، كان قد كشف عنه فى التحقيق .

وبعد ٢٠ يوما من التحقيق ، اعترف خلالها بكل شيء ، تجمعت أدلة عديدة

تكفى لإدانة شبكة تجسس لا جاسوس واحد .

من هذه الأدلة :

١ ــ ورقة « كربون » بيضاء من نوع متطور ، يصعب تمييزه عن الورق العادى .

وتستخدم هذه الورقة فى الكتابة بالضغط ، وعند تعريضها لبخار الماء تعود كما كانت .. وقد كان على العطفى يضع الورقة ــ التى طُبع على طرفها العلوى اسم « المعهد العالى للعلاج الطبيعى » ــ داخل « بلوك نوت » مطبوع على أوراقه اسم المعهد أيضا .. وكان من الصعب تمييز هذه الورقة عن ورق « **البلوك نوت** » ، حتى على العطفى نفسه كان يفشل فى تمييزها ، فكان أن كتب عليها بالقلم الرصاص الرفيع « **بسم الله الرحمن الرحيم** » .. منتهى الكذب .

وفى التحقيق الذى زاد عن ألف صفحة « فولسكاب » قال الجاسوس الإسرائيلى : إن خبراء الموساد حاولوا تدريبه على معرفة هذه الورقة من غيرها لكنه لم يفلح .. وتكررت المحاولة .. وتكرر الفشل .. فقرر تمييز الورقة بكتابة « **البسملة** » ، ووضعها وسط أوراق مشابهة وهو متأكد أن أحد لن يشك فيه .. فمن يتجرأ ويشك فى أن ورقة مكتوب عليها اسم « **الله** » يمكن أن تكون وسيلة سرية لمراسلات الجواسيس .

وقد كانت هذه الورقة أول دليل .. وسمعت أن المحقق عندما أمسك بها ، لم ينتبه إلى أنها تاهت بين الأوراق الأخرى .. فاصفر وجهه .. واضطربت أعصابه .. فأول الخيط فلت من يديه بعد طول صبر ومحاورة .. لكن .. على العطفى أشار إلى الورقة واعترف بأنه يميزها بالبسملة .. يا الله !

وأغلب الظن أن المخابرات الإسرائيلية هى التى طبعت « البلوك نوت » الذى يحمل اسم المعهد .. وقد رُوعى ألا يختلف عن نوع الورق ، وأسلوب الطباعة ، المنتشرين فى مصر .

٢ ــ جهاز الإرسال .

فى مرحلة التضليل ، قدم على العطفى جهاز راديو من النوع المعروف ، على أنه

جهاز الإرسال الذى يستخدمه ، وعندما لم يجد مفرا من الاعتراف ، قدم جهاز الإرسال الحقيقى ، وإن أقسم أنه لم يستخدمه .

وحسب ما جاء فى التحقيقات فإن جهاز المخابرات (الذى يسجل عادة كل محطات الإرسال والاستقبال غير المعروفة) رصد منذ سنة ١٩٧١ المحطة التى كانت ترسل إلى على العطفى ، لكن .. لم يتوصل إليه إلا بعد القبض عليه .

وقد حاول على العطفى أن يقنع المحقق بأنه لم يعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية إلا منذ سنة ١٩٧٦ فقط .. وليس قبل ذلك .. وسار المحقق فى هذا الطريق ١٠ أيام ، ثم جاءت معلومة تسجيل محطة الإرسال منذ ١٩٧١ ، لتجبره على الاعتراف بأنه يعمل جاسوسا منذ سنة ١٩٦٩ ، وإن لم يدخل مرحله الاستقبال اللاسلكى إلا بعد سنتين من الموافقة على تجنيده .

حتى بعد القبض عليه بشهور لم تكن المخابرات الإسرائيلية تعرف أن جاسوسها « **الهادىء** » ـــ الذى كان عمره فى ذلك الوقت ٥٢ سنة ـــ قد سقط .. لذلك كان من السهل تجريب عملية الإرسال والاستقبال من خلال على العطفى نفسه ... وكشفت هذه التجربة الكثير من خبايا تكنولوجيا التجسس .

٣ ـــ الكارت بوستال .

وهو الكارت بوستال (البطاقة السياحية) التى نعرفها ونستخدمها .. لكن فى حالة على العطفى كانت تستخدم فى حمل شرائح دقيقة من الميكروفيلم ، توضع بين طيات الورق .. وكانت المدينة المرسل منها « الكارت » تحدد مكان الميكروفيلم .. فلو أُرسل من مدينة أمستردام مثلا ، يكون الميكروفيلم أسفل الكارت على اليمين .. ولو أُرسل من مدينة روما مثلا ، يكون الميكروفيلم أعلى الكارت على اليسار ... وهكذا .

ويبدو أن هذا التحديد كان مطلوبا للتمويه من جهة .. ولتغيير مكان شريحة الميكروفيلم من جهة أخرى .. وحتى يعثر بسهولة على الشريحة دون أن تخدش من جهة ثالثة وأخيرة .

٤ ـــ عدسة خاصة لتكبير شرائح الميكروفيلم .

كانت هذه العدسة أشبه بجهاز فانوس سحرى مصغر ، وكانت تسمح بتكبير شرائح الميكروفيلم بيسر ووضوح ، وكان على العطفى يضعها على مكتبه ، ولم تكن تثير الشك .. فهى فى النهاية مجرد عدسة .

أغلب الظن أن هناك معدات وأدلة أخرى ، ضُمت إلى باقى أحراز القضية ، إلا أننى لم أستطع أن أتوصل إليها ، لأن مصادر معلوماتى ، لم تكن المصادر المباشرة فى القضية ، وإنما كانت المصادر غير المباشرة ... وهذا ما جعل مهمتى ، مهمة شاقة .

□ □

أشارت مصادرى إلى أن على العطفى كان كثير الإسهاب فى اعترافاته .. كان إذا بدأ الكلام لا يتوقف .. وقد كشفت اعترافاته الكثير من أساليب عمل المخابرات الإسرائيلية ، فى التجنيد ، والاتصال ، وكيفية الحصول على المعلومات .

وقد سئل عن السر فى تدفق اعترافاته بهذا الشكل غير المتوقع ، مع أنه كان يبدو رزينا .. هادئا .. متماسكا ، فى لحظات المواجهة الأولى .

فقال :

ـــ من قال إننى كنت متماسكا .. أنا كنت فى حالة ذهول ، جعلتنى أرفع عينى إلى السماء وأطلب من الله الستر والمغفرة ، فقد كان فى نيتى أن أتوب بعد أسبوع واحد .. حيث قررت السفر إلى بيت الله الحرام لأداء « العمرة » وغسل ذنوبى ، بدموعى هناك .. لكن .. مشيئة الله أبت إلا أن تجعل توبتى مستحيلة .

من الصعب أن نصدق هذا الكلام ... فكم من الجرائم ترتكب باسم الدين .. كما أن البشر يمكن أن يصبحوا فى مثل هذه الحالة تماسيح ... دموعهم كاذبة .. وتوبتهم ضلالة .. وضربهم بالرصاص حلال .

وفى اعترافاته المسهبة لم يشر من قريب أو بعيد إلى أنه دلك ساق جمال عبد الناصر ، ولا إلى أنه كُلف بدس السم له فى المراهم والدهانات .

وإن اعترف بأنه كان على علاقة قوية بأنور السادات ، وبأنه وضع برنامجه الصحى الخاص بالعلاج الطبيعى ، وبأنه كان صديقه ، وكان مسموحا له بدخول

حجرة نومه ، وبأنه كان قادرا على خصامه إذا صدرت التعليمات بذلك .

أيضا كان يعرف جيهان السادات معرفة شخصية ، وعائلية .. وزوجته كذلك .

ومن كبار شخصيات الدولة ، ذكر : كمال حسن على ، وشقيقه طلعت حسن على ، وسيد مرعى ، وعبد المحسن مرتجى ، وعثمان أحمد عثمان (أُدين ابن شقيقته بهجت حمدان بتهمة التجسس وأُعدم سنة ١٩٦٩)[٢] .

ويوم قُبِضَ عليه كان على موعد بالإسكندرية ، فى المعهد العالى للتربية الرياضية بأبى قير ، لمناقشة رسالة دكتوراه ، مقدمة هناك .

وقبل ذلك ناقش رسائل أخرى ، ومنح درجات علمية مختلفة ، واعتمد نتائج معهد العلاج الطبيعى خمس سنوات .. وبعد أن اتضح أن رسالة الدكتوراه التى حصل عليها مزورة .. أصبح السؤال الصعب ، عن مصير الدرجات العلمية التى منحها ، ومصير الذين حصلوا عليها ؟! .

وقد ظل السؤال بلا إجابة .. ثم طواه النسيان .

وكان على العطفى قد اعترف بأن شهادة الدكتوراه مزورة ، وحصلت جهات التحقيق عليها من ملفه فى المعهد ، وضُمت إلى باقى أحراز القضية .

واتضح أنه لم يناقش رسالة الدكتوراه ، بل ولم يكتب أبحاثها .. وكان ذلك متعمدا حتى يظل السيف على رقبته ، ويستمر عجينة لينة فى أصابع المخابرات الإسرائيلية .

وبحثاً عن المزيد من الأدلة فُتشت الأماكن التى كان دائم التردد عليها .. مكتبه فى المعهد .. مكتبه فى النادى الأهلى .. مكتب استيراد وتصدير يملكه شقيقه فى وسط القاهرة .

وقال شقيقه :

ـــ لقد جعل رؤوسنا فى الأرض .. لو كان قاتلا أو مرتشيا لهان الأمر .. لكن ماذا نقول وهو جاسوس ؟!

كان الله فى عون أسرته !

□ □

---

(٢) على لسان أمين هويدى ص ١١٦ من كتاب (تجربة عثمان) ، تأليف عبد الله إمام

قُدم على العطفى للمحاكمة أمام محكمة أمن دولة عسكرية عليا .
وكان رقم القضية ـ الجنائية ـ ٤ لسنة ١٩٧٩ .

وثبت للمحكمة بما لا يدع مجالا للشك أنه « **ارتكب جريمة التخابر مع دولة أجنبية هى إسرائيل للقيام بأعمال عدائية ضد جمهورية مصر العربية ، بأن أمدها بمعلومات لمعاونتها فى عملياتها الحربية للإضرار بالعمليات الحربية لمصر وكان من شأن هذه المعلومات الإضرار بمركز مصر الحربى والسياسى والدبلوماسى والاقتصادى** » .

وبرغم أن العقوبة المتوقعة كانت الإعدام ، فإن المحكمة اكتفت بالحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة (٢٥ سنة) .. إلا أن الرئيس أنور السادات (الضابط الأعلى المصدق على الحكم) خفض الحكم إلى ١٥ سنة أشغال شاقة فقط .

ولا شك فى أن السادات فعل ذلك استجابة لطلب مناحم بيجن (رئيس وزراء إسرائيل الأسبق) عندما التقيا بعد توقيع معاهدة « **كامب ديفيد** » .

وتشير بعض المصادر إلى أن بيجن طلب من السادات ما هو أكبر من ذلك ... الإفراج عنه .. لكن السادات أكد له أن ذلك ليس ممكنا على الأقل فى الوقت الراهن .

وقال له بيجن :

ـ إن نشر تفاصيل هذه القضية سيؤثر على مسيرة السلام التى بدأت بعد طول تعثر .

فأمر السادات بمنع النشر .

وأغلب الظن أن قرار منع النشر قد وجد هوى فى نفوس أغلب المسئولين ، الذين كانوا على علاقة بعلى العطفى ، وكان معظمهم يتوقع القبض عليه ، بعد أن استسلم على العطفى ، وراح يجيب دون حاجة للسؤال !

دخل الجاسوس ـ الرياضى سجن « طرة » ليقضى مدة العقوبة .. وقد أتاح له نشاطه السابق فى النوادى ، فرصة الإشراف الرياضى على المساجين .

وبرغم أنه يتردد أن السادات أفرج عنه فإن من المؤكد أن ذلك ليس صحيحا

.. وقد حدث أثناء مفاوضات « شرم الشيخ » فى صيف ١٩٨١ ، أن طلب بيجن من السادات إخلاء سبيله .. وأذاع راديو « لندن » الخبر .. وعلقت صحيفة « الأهالى » قائلة :

« إن الشرفاء يودعون السجون والجواسيس يخرجون إلى الحرية » !

وفى يوم السبت التالى ، نشرت مجلة « أكتوبر » فى باب « اتجاه الريح » تكذيبا لما أذاعه راديو « لندن » وأكدت أن لا صحة له ، وأضافت أن على العطفى لا يزال فى سجنه ، ونشرت بجوار التكذيب صورة فوتوغرافية له .

وحسب مصادر « أكتوبر » فإن ما كُتب كان بخط أنيس منصور (رئيس التحرير فى ذلك الوقت) بعد مكالمة تليفونية بينه وبين السادات .

ومن المؤكد أن على العطفى تقدم بأكثر من طلب إلى رئاسة الجمهورية لإصدار عفو صحى عنه .. وكان آخر طلب تقدم به فى سنة ١٩٨٧ ، وقد استند فى الطلب على أنه يعانى متاعب شديدة فى عينيه ، تهدده بالإصابة بالعمى .. وهذا إلى حد ما صحيح .. لكن أمراض العيون ليست من الأمراض التى جرى العرف على اعتبارها أمراضاً خطرة تستحق العفو الصحى ... أمراض القلب والسرطان فى المقدمة ... ومن ثم ، فقد رُفض طلبه .

□ □

فى ٣ أبريل ١٩٧٩ ، أمر المدعى العام الاشتراكى بمنع على العطفى وزوجته وولديه (عمر وشريف) من التصرف فى ممتلكاتهم ، وإدارتها ، وفرض الحراسة عليها .

واستند المدعى الاشتراكى فى دلك ، على ثبوت تهمة التجسس عليه ، « منذ منتصف عام ١٩٧٢ وحتى ١٨ مارس ١٩٧٩ » .. وعلى أنه « أتى أفعالا من شأنها الأضرار بأمن الدولة فى الداخل والخارج وذلك بارتكابه الجرائم المنسوبة إليه فى القضية رقم ٤ لسنة ١٩٧٩ أمن دولة عليا عسكرية » .. والتى ثبتت فى « **تحقيقات**

القضية رقم ٣١٨ لسنة ١٩٧٩ ــ حصر تحقيق أمن دولة عليا »[٣] .

وقد أثبتت هذه التحقيقات بما لا يدع مجالا للشك أنه « **أفشى عن عمد لهذه الدولة الأجنبية (إسرائيل) الأسرار الخاصة بالدفاع عن البلاد المصرية بأن نقل أخبارا عن الأسلحة والذخائر والمهمات الخاصة بالقوات المسلحة ، كما قام بتسليم تلك الدولة رسوما وخرائط خاصة بالمصالح الحكومية على خلاف الحظر الصادر من السلطات المصرية المختصة ، وكان ذلك فى زمن الحرب »**[٤] .

ونقلا عن المصدر نفسه أقر على العطفى بأنه كان يتقاضى من مندوب المخابرات الإسرائيلية مبالغ كالتالى :

١ ــ أجر شهرى ٢٠٠ دولار .

٢ ــ ٧٠٠ دولار قيمة تذكرة سفر وعودة من القاهرة إلى البلد الأجنبية التى سيتقابل فيها مع مندوب الموساد .

٣ ــ ١٠٠ دولار مصروف جيب (بوكت مَنِى) فى كل رحلة .

٤ ــ ٢٠ دولاراً بدل سفر عن كل يوم يقضيه فى الخارج .

٥ ــ مكافآت متنوعة القيمة ، حسب العمليات التى قام بها .

وقد اعترف على العطفى بأنه كان يوقع إيصالا بتسلم كل مبلغ يحصل عليه من المخابرات الإسرائيلية .. وأن هذه الإيصالات كانت تمثل سكينا حادة النصل على رقبته .

« **وثبت من التحقيقات المشار إليها أن المدعى عليه (على خليل العطفى)**

---

(٣) ص ٢ من أسباب حكم محكمة القيم ــ جلسة الأربعاء ١٥ أكتوبر ١٩٨٠ ، فى الدعوى رقم ٧ لسنة ١٩٧٩ ــ جهاز المدعى العام الاشتراكى ، والمقيدة بجدول المحكمة برقم ٧ لسنة ٩ ق ، وكانت المحكمة برئاسة المستشار الدكتور رفعت خفاجى ، وعضوية المستشارين : محمود طه زكى ، ومحسن عثمان عمار ، وماهر قلادة واصف .. ومن الشخصيات العامة : محمد محمد كامل (نائب رئيس محكمة استئناف القاهرة السابق) والمهندس ماهر بهاء الدين (وكيل وزارة الكهرباء) ود . رمسيس عبد العليم جمعة (وكيل وزارة الصحة) .. وبحضور مساعد المدعى الاشتراكى جمال صفوت رشدى ، وعبد الحليم الحلو ــ أمين السر .

(٤) ص ٣ ــ الوثيقة السابقة .

اشترى من حصيلة تلك المبالغ (على مدار سنوات عمله كجاسوس) أموالا عقارية ومنقولة باسمه وباسم زوجته وولديه » وقد غرمته المحكمة العسكرية العليا (بجانب حكم الأشغال الشاقة) ٥ آلاف جنيه ، وقضت بمصادرة المضبوطات التى كانت فى حوزته .

وقد أثبتت محكمة القيم أن المركز المالى لعلى العطفى ، وأسرته فور القبض عليه ، كان كالتالى :

☐ أموال سائلة باسم على العطفى :

— ٥٤,٩٣٩ جنيها رصيد حساب جارى — بنك الإسكندرية — فرع التحرير .

— ٩٥٠ جنيها رصيد حسابه لدى جمعية البناء والإسكان لأعضاء هيئة تدريس جامعة حلوان .

— ٢٥٠ جنيها حسابه لدى الجمعية التعاونية للإسكان — جامعة القاهرة .

— ٦٥٠ جنيها رصيد حسابه لدى جمعية خالد بن الوليد لأرض العجمى بالإسكندرية .

☐ أموال سائلة باسم روجته :

— ٤,٩٧٠ جنيها رصيد حساب جارى — بلك الإسكندرية — فرع الحرير .

— ٣١٨,٥٠ جنيها رصيد حساب حارى — بنك أمرو — رقم ٢٨٠٤٠٦ (عملات ألمانية وهولندية) .

— ٢٠٢٠٤٩ جيها رصيد حساب توفير — بنك الإسكندرية — رقم ١٤٠٨٤٢ .

— ٢١٦٨٣١٨,٦٠٠ جنيه رصيد حساب توفير لدى بنك أمرو — رقم ٢٧٠٥٦٦ (بالعملة الهولندية) .

— ٤٠٠٠ جنيه شهادات استثمار — المجموعة « ب » .

— ٣٠٠٠ جنيه شهادات الدخل الثابت ببنك الإسكندرية .

☐ أموال سائلة باسم الابن عمر على خليل العطفى :

ــ ١٣٠,٣٧٠ جنيها رصيد حساب توفير رقم ١٤٠٨٤٣ ــ بنك إسكندرية ــ فرع التحرير .

ــ ٢٥٠٠ جنيه شهادات استثمار ــ المجموعة « ب » .

☐ أموال سائلة باسم الابن شريف على خليل العطفى :

ــ ١٢٩,٩٤٠ جنيها رصيد حساب توفير رقم ١٤٠٨٤٤ ــ بنك الإسكندرية ــ فرع التحرير .

ــ ٢٥٠٠ جنيه شهادات استثمار ــ المجموعة « ب » .

☐ الأراضى :

ــ ١٢٢٦,٠٥٥ جنيها قيمة أرض فضاء رقم ٤١٦ ، بتقسيم الشركة ــ المعادى الجديدة ــ مساحتها ٣٠١,٥ متر مربعا ، باسم الولدين .

☐ العقارات :

ــ ٣٣٣٣,٣٣٣ جنيها قيمة جزء من العقار رقم ٣٦ ب شارع بهجت على الزمالك ، بواقع ٢ قيراط من ٢٤ قيراطاً باسم على العطفى ، قدرت قيمتها بمبلغ ٤٠٠٠٠ جنيه .

☐ المنقولات :

ــ ٤٥٤٠ جنيها قيمة محتويات الشقة مسكن على العطفى .

☐ السيارات :

ــ سيارة فولكس فاجن ــ ١٢٠٠ موديل ١٩٦٩ باسم على العطفى ــ قيمتها ٢٢٥٠ جنيها .

ــ سيارة بيجو ٤٠٤ موديل ١٩٦٧ باسم زوجته ، قيمتها ٢٨٠٠ جنيها .

☐ مستحقات أخرى :

ــ ٣٥٠٠ جنيها وثيقة تأمين على الحياة تنتهى عام ١٩٧٢ .

ـــ ٢٠٠٠ جنيه وثيقة تأمين على الحياة تنتهى عام ١٩٨٥ .

ـــ ١٠٠٠ جنيه وثيقة تأمين على الحياة تنتهى عام ١٩٧٧ .

ـــ ٣٥٠٠ جنبه وثيقة تأمين على الحياة تنتهى عام ١٩٩٢ .

☐ عملات ومشغولات :

ـــ ٢٧٠ جلدر هولندى ـــ ٥٥ كرون دانمركى ـــ ٤٨٦٤ دولار أمريكى ـــ ٢٠ فرنك فرنسى ـــ ٢٤ قطعة ذهبية على هيئة عملات تذكارية مختلفة الأشكال ـــ ٧ عملات ذهبية من فئة الجنيه المصرى ـــ ٧ عملات فضية من فئة نصف الجنيه وإحداهما من فئة نصف دولار ـــ ٧ عملات فضية من فئة الجنيه المصرى ـــ عملة واحدة معدنية تذكارية من فئة الجنيه المصرى ـــ ١٢ زراير قميص ذهبية مشغولة ـــ ٥ ميداليات ذهبية ـــ دبوس كرفتة دهبى على شكل صليب ـــ ٣ سلاسل مفاتيح من الذهب ـــ خاتم ذهب مرصع بنجمة وفصوص ـــ دبوس مشبك ذهبى ـــ ٣ ساعات فضية ـــ نظارة مكبرة ـــ ١٣ أقلام حبر ذهبية ـــ ١٣ أقلام حبر جاف ـــ ٣ أحجار كريمة ـــ ٣ سلاسل ذهبية بها ٤ قطع ذهبية مختلفة الأشكال ـــ ٥ قطع دهب بأشكال مختلفة .

وقد أُودعت هذه العملات والمشغولات خزينة محكمة استئناف القاهرة ، على ذمة القضية رقم ٣١٨ لسنة ١٩٧٩ أمن دولة عليا ، والمقيدة برقم ٤ لسنة ١٩٧٩ أمن دولة عسكرية عليا ، وقد ضبطت بمعرفة المدعى العام العسكرى ، وصودرت على ذمة دفع الغرامة ـــ ٥ آلاف جنيه !

☐ جملة الثروة :

٢ مليون و٢٠٠ ألف ، و٥٩٢ جنيها ، و٤٨١ مليما ..

وفى ١٥ أكتوبر ١٩٨٠ ، حكمت محكمة القيم بفرض الحراسة على ممتلكات على العطفى وأسرته ..

وفى أول مارس ١٩٨١ ، صُودرت هذه الممتلكات ... « **لصالح الشعب** » .

وكان الدفاع عن على العطفى وأسرته ، قد قال أمام المحكمة :

ــ إن على العطفى « ليست له خطورة الآن لأنه مسجون ومسلوب الحرية ، وليست هناك مبررات جدية تستوجب فرض الحراسة على أمواله » .

وردت المحكمة فى أسباب الحكم(٥) :

« إن الحراسة على المال جزاء يقضى به على الشخص متى تبين للمحكمة خطره ، وهو ما يقتضى درؤه بتجريده من أهم أسلحته ، وهو هذا المال ، لتحصين المجتمع من شروره وعدوانه على قيمه ، وهذا الخطر هو وصف لحالة لا تتأثر بوجوده داخل الليمان أو خارجه ، فلا شيء من هذا يمكن أن ينفى تلك الصفة المتصلة بشخصه ، والمكونة لطبعه ، والتى تعكس شروره دائما وإن طال الأمد وتقادم العهد » .

وقال الدفاع إن الأموال التى حصل عليها كانت بوسائل مشروعة .. فقد « حقق دخلا من صافى مرتبه السنوى ومكافأة التدريس بالمعهد العالى للعلاج الطبيعى فى المدة من سنة ١٩٧٢ إلى سنة ١٩٧٧ حوالى الألفين من الجنيهات . وكان يتقاضى من النادى الأهلى للرياضة البدنية مصروفات انتقال شهرية قدرها ١٠٠ جنيه ، و٦٠ جنيها من مستشفى الشبراويشى ، و٤٠ جنيها شهريا من فرقة باليه القاهرة ، و٥٠ جنيها شهريا مكافأة عن حصص التدريس الزائدة ومناقشة رسائل الماجستير بكلية التربية بالهرم ، و٨٠٠ جنيه سنويا قيمة ما تغله مبيعاته من الكتب ، وحوالى ١٠٠٠ جنيه سنويا مكافآت رئاسة لجان الامتحانات والتصحيح والإشراف ومناقشة رسائل الدراسات العليا ، و٣٠٠ جنيه شهريا دخله من العيادة الخاصة ، و٤ آلاف جنيه سنويا مقابل علاجه موظفى بعض الشركات .

كما أن زوجته كانت تعمل معه أثناء سفره إلى الخارج ، ومنذ أكثر من خمس عشرة سنة ، وهى تعمل بمدارس اللغات بالزمالك ، بمرتب شهرى ٥٧,٥ جنيها »(٦) .

---

(٥) ص ٧

(٦) ص ٦ ، ٧ ــ أسباب الحكم

وردت المحكمة :

ــ إن على العطفى اعترف بتقاضيه أموالا من إسرائيل ..

فضلا ... عن أن المحكمة ترى « **أنه ليس من المقبول عقلا أن يؤدى دخله وزوجته من كل تلك الأنشطة إلى أن يقتنيا وولداهما ممتلكات بلغت ــ بعد استنزال الخصوم ومنقولات الزوجة ــ مبلغ ٢٢٠٠٥٩٢,٤٨١ جنيها .. الأمر الذى يكون معه الدفاع بهذا الصدد غير سديد إطلاقا** »[٧] .

وقدرت المحكمة ١٠٠ جنيه نفقة شهرية للأسرة .

□ □

ثم ...

نأتى إلى حكاية قتله جمال عبد الناصر بالسم والتدليك !

لقد كان من الضرورى أن نفتح هذا الملف الذى لم يُفتح من قبل ، وأن نجمع هذه التفاصيل والأسرار التى لم تُكشف من قبل .. حتى نستطيع أن نعرف الحقيقة .. ونضع الأسطورة فى حجمها الحقيقى .

إن كل الدلائل تشير إلى أن رواية قتل جمال عبد الناصر بأصابع على العطفى المغموسة فى السم ، والمدربة على التدليك ، رواية لا تستطيع أن تقوم بمفردها .. ولا تستطيع أن تنهض إلا فى مجتمع لا يثق بنفسه .. ويرى أنه أصبح مجتمعا مستباحا .. يُقتل فيه الحاكم بالتدليك ، وحمامات الساونا !

لقد احتاج جمال عبد الناصر إلى التدليك ، والعلاج الطبيعى ، فى فترات زمنية ، لا يمكن الخطأ فى تحديدها ..

فترة بداية الآلام من أواخر عام ١٩٦٦ إلى ما بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ .

فترة انفجار الآلام من بعد الهزيمة بأسبوع إلى سفره وعلاجه فى تسخالطوبو .

فترة اختفاء الآلام ، أو التعايش معها بسهولة ، من بعد عودته من تسخالطوبو إلى إصابته بأزمة قلبية فى سبتمبر ١٩٦٩ .

---

(٧) ص ٨ ــ أسباب الحكم .

وبعد الإصابة بهذه الأزمة أصبح العلاج الطبيعى نوعا من الإرهاق البدنى لا يستطيع القلب تحمله .. وكان من غير المعقول معالجة آلام الساق على حساب إرهاق القلب .

والثابت أن على العطفى لم يذهب إلى الإسرائيليين إلا فى الوقت الذى لم يعد فيه جمال عبد الناصر فى حاجة إلى التدليك ، والساونا ، وحمامات المياه .

فحسب أوراق القضية فإن فترة التجسس كانت من سنة ١٩٧٢ إلى ١٨ مارس ١٩٧٩ (ص ٢ من حكم محكمة القيم فى الدعوى رقم ٧ لسنة ٩ ق) .

وحسب ما جاء فى التحقيقات (القضية رقم ٣١٨ لسنة ١٩٧٩ ـــ حصر تحقيق ـــ أمن دولة عليا) فإن على العطفى ذهب إلى الإسرائيليين بقدميه ، ودون ضغط فى سنة ١٩٦٩ .

يضاف إلى ذلك أن الإسرائيليين ـــ باعترافه ـــ لم يتقبلوه بسهولة .. وهذا منطقى .. وإلا كانوا بلهاء أن يثقوا فى كل من يطرق أبوابهم ، ويقترح التجسس لحسابهم .. وأدى ذلك إلى فترة اختبار ، حاز بعدها الثقة .

وأغلب الظن أنه لم يحز الثقة تماما إلا فى سنة ١٩٧١ ، عندما رصد جهاز المخابرات العامة محطة الإرسال المتبادل بينه وبين الإسرائيليين ، وإن لم يعرف الجهاز المصرى حقيقة هذه المحطة إلا بعد القبض عليه .

وفى ذلك الوقت كان جمال عبد الناصر قد رحل !

ولو كان على العطفى قد قام بتدليك ساق جمال عبد الناصر ، فإن ذلك لا بد أن يكون فى تاريخ سابق على ذهابه إلى الإسرائيليين .

إلا إذا كان تجنيده قديم فى تاريخ سابق عن التواريخ الثابتة فى التحقيقات والقضية ، ويكون قد نجح فى التضليل .. وتكون فترة اختباره والوثوق فيه خاطفة ، بسبب قيامه بعمل كبير .. جرىء .. مثل تدليك عبد الناصر بالسم القاتل .

وهذا الاحتمال يدعمه التناقض فى إثبات تاريخ تجنيده فى المخابرات الإسرائيلية .

وتدعمه براعته كجاسوس ، وقدرته على التضليل .

لكن ...

ذلك الاحتمال ــ من جهة أخرى ــ أضعف من أن يكون حقيقة ، لأن أزمة على العطفى الحقيقية لم تبدأ إلا فى سنة ١٩٦٩ ، عندما استقل معهد العلاج الطبيعى ، وحالت شهادة الدكتوراه بينه وبين عمادة المعهد ، فقدم نفسه إلى الإسرائيليين .

كذلك .. ليس هناك ما يثبت أو حتى يشير إلى أنه كان يقوم بتدليك جمال عبد الناصر .. فلا أحد من الذين كانوا لا يفارقون « الرئيس » قال إنه جاء إليه .. أو دخل بيته .. بل .. إن أغلبهم لم يسمع عنه إلا فيما بعد[٨] .

سامى شرف (مدير مكتب جمال عبد الناصر للمعلومات) لم يسمع عنه .. ولم يعرفه .

كذلك ...

محمد أحمد (سكرتيره الخاص والمسئول عن شؤون العلاج والطعام) .

وعبد المجيد فريد (أمين رئاسة الجمهورية لمدة ١١ سنة) الذى وصف ذلك بأنها « شائعات لا صحة لها على الإطلاق »[٩] .

ولو كان على العطفى دخل بيت جمال عبد الناصر لكان ذلك بمعرفة واحد من هؤلاء ، أو عن طريقه .. فهذا بالتحديد من صميم عملهم .. كما أنه من غير المعقول أن يتصل به الرئيس مباشرة ويدعوه إلى غرفة نومه .. أو يتصرف فى علاجه بنفسه ؟!

وقد جرت العادة أن تتولى المخابرات العامة اختيار الأشخاص الذين يعملون فى الرئاسة ، أو يترددون بحكم عملهم على بيت الرئيس .. من الأطباء إلى أطقم الحراسة .. ومن الموظفين الإداريين إلى الطهاة .. إلى مجموعة « الخدمات » الأخرى .

وحسب المعلومات المتوافرة ، فإن المخابرات العامة اختارت شابا رياضيا ، متفوقا فى الجودو ، والمصارعة ، ويجيد فن التدليك ، اسمه « زينهم » ..وكان موظفا على قوتها .. اختارته ليقوم بمهمة العلاج الطبيعى .. التدليك .. التمارين الرياضية

(٨) لمزيد من التفاصيل ــ راجع مجلة التضامن ــ ٢٨ / ٥ / ١٩٨٨ ــ ص ٨ ــ ١٠

(٩) مجلة الدستور ــ ٢٣ / ٩ / ١٩٨٥ ــ ص ٤١ .

الخفيفة .. الحمام الخاص .. وكان زينهم يأتى إلى بيت الرئيس مرتين أو ثلاث مرات على الأقل فى الأسبوع .. وأحيانا كان يأتى فى غير الأوقات المعتادة .. عند الطلب .

وقد انتقل زينهم إلى الرئاسة بعد تولى السادات السلطة ، وأصبح « مدلكه » الخاص ، وأحد أفراد حراسته .. وكان يرافقه فى سفرياته إلى الخارج ، على الطائرة الخاصة التى كانت تقل الرئيس السادات وكبار المسئولين فى الدولة .

ولم يترك زينهم عمله فى رئاسة الجمهورية إلا بعد مقتل السادات .

وحسب شهادة د . الصاوى حبيب ، فإن زينهم لم يكن الوحيد الذى قام بهذه المهمة لعبد الناصر ، فقبله « قام بالتدليك مقدم (بالقوات المسلحة) اسمه عبد اللطيف » وكان ذلك تحت إشراف « الدكتور فودة »[10] . لا الدكتور العطفى .

ولو كانت إسرائيل قد قتلت جمال عبد الناصر بسم يتسرب من الساقين إلى القلب ، تعرف مدة تأثيره ، فلماذا فوجئت بوفاته فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، كما نقلت وكالات الأنباء ؟! .

فيوم الوفاة دقت أجهزة التيكرز النبأ التالى من داخل إسرائيل :

« استقبلت إسرائيل نبأ وفاة عبد الناصر بذهول ، وتركت الأنباء الحكومة فى حيرة تامة ، فى وقت لم يكن فيه ثمة ما يدعو للظن بأن صحة الرئيس المصرى تدعو للقلق » .

انتهى النبأ !

ونقل عن جولدا مائير أنها قالت بعد أن عرفت أن عبد الناصر مات :

« من الذى أطلق هذه النكتة السخيفة » !

أى أنه َ ــ فى رأيها ــ لا يموت !

□ □ □

(١٠) مجلة التضامن ــ ٢٥ / ٦ / ١٩٨٨ ــ ص ٤١ .

□ ٦ □

سباق نحو الاغتيال !

لماذا الشك دائما فى أن جمال عبد الناصر مات مقتولا ؟ .

لماذا يميل الناس إلى قبول ذلك بسهولة ؟ .

أغلب الظن أن الإحساس بأن جمال عبد الناصر كان أسطورة ... أبرز الأسباب النفسية وراء ذلك التوقع ، وقبوله .. فالأسطورة لا تنتهى نهاية طبيعية .. أو نهاية معتادة .. وإلا ما كانت أسطورة .. وليس فى الأساطير ، بطل واحد ، مات كما يموت البشر .. يدخل النفس الأخير ولا يخرج .. أو يدخل النفس الأخير .. ويخرج السر الإلهى .. الروح .. هذا غير مقبول .. لأن أبطال الأساطير أنصاف آلهة .. ولأن ذلك يصدم الناس فى خيالاتها .. فى الأسطورة التى صاغتها ثم عبدتها .. إنها ليست صورة وإنما أيقونة .. تجلب الحظ والبركة .. وتحفظ حاملها من الشر والفقر والضعف وعوامل التعرية .

هذا يحدث أيضا مع بعض النجوم ... عبد الحليم حافظ مثلا !

لذلك .. فالاختلاط وارد بين القائد والنجم .. بين المغنى والزعيم .. بين الجمهور والجماهير .. فالزعيم يُطرب .. والمغنى يحكم .

والملايين التى خرجت تودع جمال عبد الناصر .. هى نفسها التى خرجت تبكى على فراق عبد الحليم حافظ .. وإن كانت حالات الانتحار أكثر فى جنازة عبد الحليم حافظ .. ست حالات انتحار على الأقل .. أما حالات الانهيار واليأس والتشنج فكانت لا نهاية لها فى جنازة جمال عبد الناصر .

لكن ... الجمهور كان يعرف تفاصيل مرض عبد الحليم حافظ ، ويتابع نشراته الطبية يوما بيوم .. وعندما مات .. كان سبب الوفاة معروفا مقدما قبل سنوات ..

وكانت الدموع جاهزة .

أما الجماهير ... فلم تعرف أى شيء .. عن مرض جمال عبد الناصر .. لم تعرف أصلا أنه مريض .. وكانت زوجته لا تعلم كل شيء .. وعندما فوجئت بالعمال يركبون مصعدا لدور واحد ، استنتجت أن قلبه لم يعد يحتمل صعود وهبوط ما لايزيد عن ٢٥ درجة سلم .. وكان عدد الذين يعرفون حقيقة مرضه لا يزيد عن ٩ أشخاص !!

جمال عبد الناصر نفسه لم يعرف بأن قلبه ليس سليما إلا بعد فترة من الوقت .. قالوا له : أنفلونزا .. ثم بعد أيام أضافوا .. لكنها انفلونزا حادة ستؤثر على القلب والتنفس .. وأخيرا .. وبعد أن استجمع الأطباء شجاعتهم .. عرف الحقيقة !

والشيء نفسه حدث مع زعماء آخرين .. قيل إن بريجنيف مصاب بالانفلونزا مع أنه كان يعانى من انسداد بشريان القلب .. وقيل إن ماوتسى تونج مرهق ، فى الوقت الذى كان فيه على وشك الموت .. وقيل إن جورج بومبيدو يعانى من الزكام ، وكان فى حالة متأخرة من سرطان الدم .

ولم يتصرف جمال عبد الناصر على أنه مريض .. أو حتى متعب .. على العكس ، كان يوحى بالقوة ، والصلابة .. ولم يفقد قدرته على الهجوم ، ولم يتوقف عن السخرية .. وكان لا يزال قادرا على أن يخطب — وهو واقف على قدميه — بالساعات ... وبعد الهزيمة — العسكرية والصحية — كان كل يوم فى الصحف ، وعلى شاشة التليفزيون .. وكان يجلس إلى ما بعد منتصف الليل فى الاجتماعات السياسية .. وكان يتنقل من موقع إلى موقع — بين الرمال والرجال — فى جبهة القتال .

كل ذلك جعل موته مفاجأة .. مذهلة .

مفاجأة .. مستحيلة .

إذ ... كيف يموت هذا البنيان القوى ، وعمره أقل من ٥٣ سنة ، ودون أن يشكو سوى من الانفلونزا ؟! .

لا بد أنه قُتل !

وهكذا ... تحول جمال عبد الناصر من أسطورة وهو على قيد الحياة إلى لغز بعد الموت !

□ □

كان نابليون أصلع الرأس .. ما عدا الخصلة التى كانت تتدلى على جبهته .. وقد احتفظ الفرنسيون بهذه الخصلة بعد أن مات فى منفاه فى جزيرة سانت هيلانة .. التى تقع فى المحيط الأطلنطى .. وبعد أكثر من قرن ونصف القرن حلل الفرنسيون شعر إمبراطورهم السابق ، فاكتشفوا أنه مات مسموما .. فقد كان الإنجليز — الذين نفوه — يضعون له الزرنيخ فى الطعام .. بجرعات صغيرة .. يومية .. كان يدسها الطبيب المشرف على صحته .

وقامت الدنيا ولم تقعد .

وأحس الفرنسيون بدماء الثأر تفور فى عروقهم .

ولم يهدأوا إلا بعد أن أعلن الأطباء فى بريطانيا أنهم أسقطوا صفة « الشرف » عن ذلك الطبيب الإنجليزى القاتل ، لأنه خان مهنته .

وهناك شك فى أن ستالين مات مقتولا .. فقد اسود وجهه بعد تناول الجرعة الأخيرة من الدواء .. وانتفخ جسده بعد أن لفظ أنفاسه .. وحاول ابنه « فاسيلى » أن يشرح الجثة للتأكد .. لكن .. ذلك لم يحدث .. وكل الذى حدث .. أن الابن فجأة .. صمت .. وحُنِّطت الجثة .. ودخلت المتحف السياسى .

وفى مؤتمر « الكونفرنس » — الذى عقده جورباتشوف فى سنة ١٩٨٨ — ألح البعض إلى ضرورة معرفة حقيقة موت ستالين .. وكان ذلك فى معرض الكلام عنه ، باعتباره كان آخر زعيم سوفييتى دعا الكونفرنس للانعقاد قبل ٤٧ سنة .

لكن ... لا أحد اهتم ... فقد كانت مشاكل إعادة البناء أهم !

ومنذ اغتيال جون كنيدى فى نوفمبر ١٩٦٣ ، والعالم يتساءل .. من الذى قتله ؟! .. رغم أن القاتل قُبض عليه ، ثم قُتل .. ورغم أن قاتل القاتل مات بعد شهور فى السجن ، بالسرطان ، مع أنه لم يشك من الزكام !!

وكل ذلك جعل الناس داخل وخارج الولايات المتحدة ، تؤمن بأن هؤلاء القتلة

ضحايا مثل القتيل .. وأنهم جزء من مؤامرة أكبر ، لم ولن تكشف أبعادها .

وكل عام تصدر فى الولايات المتحدة ثلاثة كتب على الأقل ، تحاول حل هذا اللغز ، فتكون النتيجة أنها تضاعف من تعقيده .. والمثير للدهشة أن هذه الكتب تتصدر قائمة أفضل المبيعات دائما .. مع أن الجريمة ارتُكِبت منذ ٢٥ سنة .. لكنها « شهوة المعرفة » عندما تستبد بالشعوب .. ورائحة الدم عندما تزكم الأنوف .. ثم .. إن الدم المعلق دم الرئيس !

إن تاريخ العالم مكتوب بدماء الحكام .

فلماذا لا يكون موت جمال عبد الناصر جزءاً من هذا التاريخ ؟!

□ □

يضاف إلى ذلك ...

أن تاريخنا القريب جدا يمتلىء بفصول دامية .. كان الاغتيال فيها ضرورة للإزاحة والتغيير .. ولأن لا أحدا لم يكشف لنا الحقيقة .. فمن حقنا أن نتخيلها ونستنتجها .. ومن حقنا أن نزيد ونضيف إليها .. ومن حقنا أن نضع نظارة حمراء على عيوننا فنرى كل موت جريمة اغتيال .. وكل نهاية ... مؤامرة !

فالملك فاروق قتلته عشيقته ، ودست السم له ، وقبضت مليون جنيه من صلاح نصر ، المدير الأسبق للمخابرات العامة !

والرئيس السادات ، رغم أنه أُغتيل علنا ، فى عز الظهر ، وأمام كاميرات الدنيا ، وبرغم أن من قتلوه قُبض عليهم وحُوكموا ، وأُعدموا ، فإن فى ضمير المصريين إحساساً ما بأن يدا خفية هى التى أطلقت الرصاصات الحاسمة !

ومع كل الاجتهاد .. لن يعرف أحد الحقيقة .. إذا كانت هناك حقيقة .

ولا يزال المصريون حيارى أمام حادث وفاة المشير عبد الحكيم عامر .. انتحر .. أم .. نُحر ؟ .. لا أحد يجزم !

واللغز نفسه يتكرر مع العميد على شفيق مدير مكتب المشير عبد الحكيم عامر ، الذى وُجد مقتولا فى شقته المؤجرة مفروشة ، فى « هارلى ستريت » .. شارع الأطباء فى لندن .. فى البيت رقم ١٣٣ ، شقة ٥ .

كان ذلك صباح يوم الثلاثاء ٥ يوليو ١٩٧٧ .. وقد كانت الشقة مقلوبة رأسا على عقب .. وكانت رأس على شفيق مهشمة .. والدماء تغطى وجهه .. ومخه إلى جواره ، على البلاط .. وقد فشل أبرع ضباط سكوتلنديارد (العميد ايسلى والمفتش براين) فى التوصل إلى شيء .

وأُلقى الليثى ناصف من شقة فى لندن تطل على حديقة هايد بارك .. فمات مقتولا .. وقالت الرواية الرسمية إنه انتحر .. والليثى ناصف هو قائد الحرس الجمهورى الذى وقف بجانب السادات فى ١٥ مايو ١٩٧١ .. وهو الذى دبر خطة القبض على من أُطلق عليهم « مراكز القوى » وأشرف على تنفيذها .. وكانت الخطة أن يُقبض عليهم فى وقت واحد بواسطة مجموعات مسلحة من الحرس الجمهورى ، تلقت أمرا بإطلاق النار على كل من يرفض تسليم نفسه !

وقد كان من الصعب على شخص فى جرأة الليثى ناصف أن ينتحر .. فلماذا قُتل ؟ .. وكيف ؟ .. ومن الذى نفذ ؟ .. لا أحد أجاب .. ولا أحد سيجيب .. إنها الأسرار العليا .. أو الجريمة المستترة التى لا يُعاقب مرتكبها وإنما يرقى !

وحادث مصرع الفريق أحمد بدوى و ١١ من قيادات القوات المسلحة ، فى الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم ٢ مارس ١٩٨١ .

هل هو حادث مدبر لأن الفريق أحمد بدوى قابل سرا الفريق سعد الشاذلى .. خصم السادات اللدود ؟

أم أن الحادث كان بسبب الإهمال وسوء التقدير ، حيث كان عدد ركاب الطائرة أكبر من المسموح به ، وحيث اعترض قائد الطائرة (مقدم طيار سمير غيث) على زيادة العدد ، ولم يستجب القائد العام لاعتراضه ، وحيث أُضيف لوزن الركاب ، وزن خزانى الوقود ، ووزن بعض خيرات الصحراء الغربية .. صفائح الزيتون ، والأغنام ، والمسوجات المحلية ؟!

وثار الشك حول وفاة الجندى سليمان خاطر .. وانتهى الحادث بلغز جديد !

ولا جدال ... أن بعض هذه الألغاز لن يحل .. لأن ما حدث هو ما قيل .. ولأن اللغز فى هذه الحالة وهم مثير .

ولا جدال ... أن البعض الآخر حقيقة .. لكننا ـــ لأسباب كثيرة ـــ لن نتوصل إليها .

وهكذا ..

اختلط الحابل بالنابل .. والواقع بالخيال .. والحقيقة بالشائعة .. وأصبح الشك عادة قومية .. امتدت ممارستها العامة إلى جمال عبد الناصر .. ووصلت إليه .. وكان أن وجدنا فى موته لغزا أشد إثارة وجاذبية من باقى الألغاز .. وكان أن وجدت حكاية « على العطفى » من يسمعها ، ويرددها .. ووجدت حكايات أخرى ، مشابهة ، الفرصة نفسها !

□ □

عندما أُبلغ جمال عبد الناصر نبأ اغتيال جون كينيدى .. كان تعليقه :

ـــ إذا كانوا قد فعلوا ذلك ... ففى استطاعتهم أن يفعلوا أى شيء !

وهذه الواقعة تُنسب إلى منير حافظ ـــ الرجل الثانى فى مكتب الرئيس بعد سامى شرف (صحيفة الأهالى ـــ ١٧ / ٨ / ١٩٨٣) .

لم يكن من الصعب فهم أن ضمير الغائب فى العبارة يعود إلى وكالة المخابرات المركزية .. والمعنى .. إذا كانت المخابرات المركزية قد قتلت الرئيس الأمريكى .. فلن يصعب عليها أن تقتل غيره .

والحقيقة أن اغتيال جمال عبد الناصر كان حلا مطروحا من جانب المخابرات الأمريكية للتخلص منه .. وكان حلا مغريا من جانب أجهزة مخابرات أخرى ، وقف ضد مصالح دولها .. بريطانيا .. وفرنسا .. وإسرائيل مثلا .. كذلك كان حلا لجأت إليه بعض القوى السياسية فى الداخل ، دفعها القدر للصراع معه ، ومن ثم سعت ، وحاولت التخلص منه .. الإخوان المسلمون مثلا .

وقد كانت هناك محاولات اغتيال كثيرة .. ومتنوعة .. وبعضها كان فيه ابتكار ينافس ابتكار مؤلفى الأفلام البوليسية .. وهذا بالتحديد أبرز الأسباب الواقعية التى جعلت الناس تشك فى وفاته ، وتتقبل فكرة قتله .

ورغم ذلك .. أن المحاولات التى كُشفت ، كان من الممكن أن تنجح .. أى

أنها كانت ممكنة .. وكانت قريبة .. وسهلة .. رغم كل مايحيط به من أمن صارم ، وعيون مفتوحة لا تنام .

وعندما تزداد المحاولات .. وعندما تُكشف فى الوقت المناسب ، تزداد الهواجس .. ويمكن تصديق الوهم .. ويسيطر الأمن على عقل الحاكم .. حدث ذلك أحيانا مع جمال عبد الناصر نفسه .. وفى قضية انحراف جهاز المخابرات العامة الدليل .

□ □

حسب محاضر التحقيق مع ضباط المدفعية ، بعد القبض عليهم فى يناير ١٩٥٣[1] فإن متهما أصبح شاهد ملك اعترف بأنهم فكروا فى القبض على أعضاء مجلس قيادة الثورة ، ووضع كل منهم فى شوال مع كتلة حجر ، ثم يلقون بهم فى النيل ، ليصبحوا طعاما شهيا للأسماك .. وكانت حجة الضباط الغاضبين أنهم تخلصوا من ملك واحد ، فجاء ١٣ غيره !

وأغلب الظن أن هذه المحاولة هى التى يقصدها حلمى سلام[2] وهو يتحدث عن أعصاب جمال عبد الناصر الفولاذية !

يقول حلمى سلام إن محاسبا بشركة النيل للصابون اتصل به ، وأبلغه أنه استطاع بصلته ببعض ضباط الجيش أن يعرف أنهم يدبرون لاغتيال أعضاء مجلس الثورة فى الاحتفال بالعيد الأول للثورة .

وفى بيت حلمى سلام ، قابل المحاسب ، جمال عبد الناصر ، وروى له ما عرف ، وأبدى استعداده لتنفيذ ما يُطلب منه ، فجاء أمين شاكر ومعه جهاز تسجيل ، وذهب مع المحاسب إلى بيته ، حيث كان الضباط « المتآمرون » سيجتمعون ، ويضعون اللمسات الأخيرة لخطة الاغتيال ، وظل أمين شاكر مختبئا يسجل لهم ما يقولون ، وكان من السهل بعد ذلك أن يقبض البوليس الحربى عليهم .

□ □

---

(١) كنت أول من نشر هذه المحاضر ـــ انظر كتابنا نهاية ثورة يوليو ـــ مكتبة مدبولى ـــ ١٩٨٣

(٢) حلمى سلام ـــ أنا وثوار يوليو ـــ دار ثابت ـــ ١٩٨٦ .

وعندما اختلف واصطدم الإخوان المسلمون بجمال عبد الناصر ، كان حادث المنشية الشهير فى سنة ١٩٥٤ ، وقد قُتل بحثا !

وفى سنة ١٩٥٩ كون مهندس بالمساحة اسمه محمد عبد الفتاح الشريف تنظيما إخوانيا كان الهدف منه الانتقام .. وحدث أن التقى فى « لوكاندة » بالمنصورة (فى صيف ١٩٦٣) بمجموعة أخرى من الإخوان وقال لهم[٣] :

« **إننا ينبغى أن نتحرك ونثبت وجودنا ولازم ننتقم من ضربة سنة ١٩٥٤ ، ونعمل عمليات اغتيالات سرية** » .

وسئل :

« طيب والبلد حايكون مصيرها إيه ؟ ومين اللى حايحكم بعد كده ؟! » .

قال :

« **إحنا حاليا كإخوان ما نقدرش نحكم البلد وأى واحد ييجى ما يهمناش** » !

ثم أضاف :

إنه « **يعرف واحد ضابط من مجموعة رشاد مهنا وإنهم عاوزين يعملوا انقلاب بس مش لاقيين واحد يقتل الريس « عبد الناصر » فعاوزين واحد إخوانى يقوم بالدور ده وهم يكملوا الانقلاب لصالح الإخوان ويجيبوا رشاد مهنا رئيس جمهورية** »[٤] .

وسئل :

« مين هم الضباط دول ؟ » .

فقال :

« **مش عاوزين يقولوا أى تفاصيل** » .

فكان الرد :

« المسألة بالشكل ده تبقى مفيش فيها أمان والإخوان حاتبقى مخلب قط لأن

---

(٣) القضية رقم ١٢ / ١٩٦٥ أمن دولة عليا — جـ ١١ — ص ١٠٥١

(٤) المصدر السابق — أقوال على عشماوى ص ٢٠٤ — ص ٢٠٨

فى حالة الفشل احنا اللى حاننضر ، والضباط مش حايجرى لهم حاجة ، وفى حالة النجاح هم اللى حا يكلوها » .

وبعد عامين .. حاول الإخوان المسلمون قلب نظام الحكم بالقوة .. ووراء هذه المحاولة كان هناك ما يشير إلى وجود يد للمخابرات المركزية[٥] .

وفى هذه المحاولة نجح الإخوان المسلمون فى تجنيد الحارس الخاص لجمال عبد الناصر ، وهو إسماعيل الفيومى .. وكان إسماعيل الفيومى من الذين يتمتعون بدقة التصويب .. وكان يقف على باب الرئيس .. وتقول الأوراق الرسمية إنه كان مكلفا بإطلاق الرصاص على جمال عبد الناصر .

وقد كان وراء كشفه جمال عبد الناصر نفسه .. فى موقف غاية فى الدهشة .

سأله قبل ساعة التنفيذ بقليل عن صحته وأولاده .. « **وعاملين إيه فى الدراسة** » فإذا به ينهار ، ويطلب من الرئيس أن يسامحه .. واعترف بالمؤامرة .. فسلمه جمال عبد الناصر إلى سلطات التحقيق .. وبعد المحاكمة ، صدر حكم بإعدامه .. وأصبح فى ذمة الإخوان المسلمين شهيدا .

والمذهل .. أنه كان يتصور أن جمال عبد الناصر يعرف ما يدبره ، وأن سؤاله عن الصحة والأولاد كان من باب السخرية .. وأنه قرأ ذلك فى عينيه .. لذلك انهار !

□ □

وفى أثناء حرب السويس ، سيطر على أجهزة الأمن اعتقاد بأن الطائرات البريطانية يمكن أن تدك بيت جمال عبد الناصر ، فى ضاحية هليوبوليس ، فنقل زوجته وأولاده إلى بيت فى ضاحية الزمالك .. حيث يعيش الأجانب ، ويصعب على المعتدين المغامرة بقصفها .

فى تلك الأيام العصيبة أيضا ، وصلت إلى أجهزة الأمن معلومات تشير إلى أن المخابرات البريطانية تسعى إلى اختطاف جمال عبد الناصر تمهيدا لاغتياله .. ولم

---

(٥) هناك إشارات واضحة لذلك فى اعترافات سيد قطب ـــ راجع كتابه « **لماذا أعدمونى** » ـــ الناشر الشركة السعودية للأبحاث والتسويق .

يستجب جمال عبد الناصر إلى تحذيرات هذه الأجهزة ، وأصر على أن يذهب إلى الجامع الأزهر لتأدية صلاة الجمعة فى سيارة مكشوفة .. وعاد من الأزهر إلى مقر مجلس قيادة الثورة فى السيارة نفسها التى ذابت طوال الطريق فى بحر من الجماهير .

كانت هذه الفترة مشحونة بمحاولات متنوعة للتخلص من جمال عبد الناصر ، لم تُكشف إلا فيما بعد .

ففى ربيع ١٩٧٥ ظهر مساعد سابق لمدير وكالة المخابرات المركزية على شاشة تليفزيون محطة « جرانادا » البريطانية .. ليعترف بأن الوكالة « سبق أن درست خطة لاغتيال جمال عبد الناصر غداة فشل العدوان الثلاثى ، وحرب السويس » .

وفى البرنامج التليفزيونى نفسه ، أكد كيرميت روزفلت (المسئول فى الوكالة عن الشرق الأوسط) أنه تلبية لطلب من بريطانيا ، قررت الوكالة إسقاط جمال عبد الناصر « بثورة من فوق » .. ولم يتحدث كيرميت روزفلت صراحة عن الاغتيال .

وفى كتابه « حبال من رمال » يشرح ضابط المخابرات الأمريكى ويلبركرين ايفلاند التفاصيل فيقول : إن المخابرات المركزية (C. I. A.) والمخابرات البريطانية (S. I. S.) كونتا مجموعة عمل مشتركة قبل حرب السويس بشهور ، لبحث الموقف من جمال عبد الناصر ، بعد أن تجرأ ، وعقد صفقة الأسلحة الروسية .

مثل المخابرات المركرية كيرميت روزفلت ، وجيمس ايكلبرجر مسئول الوكالة فى القاهرة ، الذى مارس نشاطه السرى تحت غطاء دبلوماسى ، حيث كان وزيرا مفوضا فى السفارة .. وانضم إليهما من واشنطن ويلبر كرين ايفلاند .

أما المخابرات البريطانية فكان يمثلها جورج يونج نائب رئيس إدارة الخدمة السرية .. وأحيانا كان يشارك فى الاجتماعات جون سنكلير رئيس الخدمة السرية الذى يحمل لقب « سير » .

ومنذ الاجتماع الأول ، كان واضحا أن بريطانيا تضع العصى بين التروس ، وتصر على عزل « عبد الناصر واعتبار العراق الدولة الأعظم فى الشرق الأوسط » .. كما أنها كانت مهتمة « بإيجاد شخصية قيادية مصرية ، أكثر إيجابية » بالنسبة لها من عبد الناصر .. وأغلب الظن أنها كانت تضع يدها على هذه الشخصية ، وتجهزها للظهور على المسرح .

وقد قال جورج يونج :

« إن مهمة الطرفين ، التحضير لعمليات مشتركة فى الشرق الأوسط لتحقيق الاستراتيجية البريطانية » .

وفى لقاء جرى فى الأسبوع الأخير من شهر مارس عام ١٩٥٦ ، قال جورج يونج :

« إن مصر والسعودية وسوريا تهدد المصالح الحيوية لبريطانيا ولا بد من تغيير جذرى فى حكومات هذه الدول » .

ثم أضاف :

« والمهم .. فى البدء الإطاحة بعبد الناصر حتى لا يستخدم الطائرات السوفييتية الصنع فى قصف إسرائيل » .. و هكذا « يجب أن يتم كل شىء خلال شهر على الأكثر » !

وعندما قال ايفلاند : « إن الحديث عن إزاحة عبد الناصر هو مجرد تمنيات لا أكثر » ، رد عليه جورج يونج ، وهو يحرك سيف يده على رقبته : « لا شك أنك نسيت قطع الرؤوس » !

و لم يتردد جورج يونج فى السخرية من كيرميت روزفلت ، لأنه أعاد شاه إيران ، وسجن د . محمد مصدق ، وقلص النفوذ البريطانى فى الخليج .. لكنه أضاف : « أما بالنسبة لمصر ، فنحن جعلنا من عبد الناصر عملاقا » ! .. أى واحدة بواحدة !

وبرغم أن جيمس ايكلبرجر ، كان يرى أن جمال عبد الناصر « ليس شيوعيا » فإنه فى هذه الاجتماعات جَزَم بأنه « أداة طيعة فى يد السوفييت » .

و لم يشأ ايفلاند أن يعارضه ... إلا أنه طالب بمفاوضة جمال عبد الناصر « قبل أن يفترسه الدب الروسى » !

لكن ... جورج يونج كان مصرا على التخلص من جمال عبد الناصر ، وإزاحة الملك سعود بن عبد العزيز ، والإطاحة بنظام الرئيس السورى شكرى القوتلى .. واستخدم تعبير « العمليات التائهة » دلالة على العمليات « **البدنية** » التى تحقق ذلك .

وقد رفض كيرميت روزفلت الاقتراب من الملك سعود ، ونجح ــ فيما بعد ــ فى ضمه إلى صف الولايات المتحدة ، ثم ساعده منفردا على تقليص نفوذ جمال عبد الناصر فى سوريا ، بعد أن فشلت المخابرات المركزية فى قلب نظام الحكم فيها .. وفى هذا الصدد تعاونت المخابرات المركزية ، والمخابرات البريطانية ، ومخابرات ثلاث دول عربية ، وكانت بيروت نقطة الانطلاق .

□ □

بعد ٣٠ سنة على حرب السويس ، و١٦ سنة على رحيل جمال عبد الناصر ، فوجىء العالم بما نشره بيتر رايت فى كتابه « صائد الجواسيس » عن رغبة الغرب المحمومة فى التخلص من الرئيس المصرى ، وقلب نظام حكمه !

وبيتر رايت كان مساعد مدير المخابرات الحربية البريطانية (M. I. 5) فى فترة الصدام العنيف بين القاهرة ولندن .. كما أنه كان من بين الذين كُلفوا بالتخلص من جمال عبد الناصر ، والتصنت على السفارة المصرية فى العاصمة البريطانية .

وقد أغضب كتابه الحكومة البريطانية ، فلم تتردد فى اللجوء إلى القضاء كى تصادره ، وكان يتوقع ذلك فلم يطبع وينشر الكتاب فى بريطانيا ، وإنما فى أستراليا .

إن ما يقوله بيتر رايت يستحق الانتباه .. على الأقل لأنه يمثل شهادة جديدة على أحداث قديمة .. أو لأنه اعتراف مثير لخصم من خصوم جمال عبد الناصر .

وحسب ما جاء فى الكتاب فإن بيتر رايت ورجاله وأجهزته ، سعوا إلى كسر شفرة السفارة المصرية بعد أن توترت العلاقة بين أنتونى إيدن وعبد الناصر .

لاحظ بيتر رايت أن آلة الشفرة المصرية الخاصة بالبرقيات السرية من طراز « هاجيلان » .. وهى إنتاج سويسرى ، تحيل الكلمات إلى أرقام .. لذلك يمكن بالتصنت وتسجيل الصوت معرفة ما فى البرقيات .

ويقول بيتر رايت :

ــ لقد قمنا بوضع ميكرفونات وآلات تصنت لالتقاط صوت الآلة وهى تحيل الكلمات إلى أرقام ونجحنا فى معرفة كيفية كسر الشفرة .

لكن .. هذا النجاح لم يكن له صدى ، لأنه جاء فى وقت نجحت فيه المخابرات

المصرية فى القبض على شبكة تجسس بريطانية ، كانت تمهد « للقيام بعمل واحد هو محاولة اغتيال جمال عبد الناصر » .

ولا يذكر بيتر رايت تفاصيل سقوط هذه الشبكة ، ولكن الكاتب اليهودى ، المتخصص فى الجاسوسية « ياكوف كروز » يذكرها فى كتابه عن المخابرات العربية[٦] الذى نُشر فى لندن ، قبل ١٠ سنوات من نشر كتاب « صائد الجواسيس » .

لقد بدأت القصة عندما حاول ضابط مخابرات مصرى سابق اسمه حسين خيرى ، تجنيد قائد السرب عصام الدين خليل ، نائب رئيس مخابرات الطيران ، للعمل ضد جمال عبد الناصر .. كان حسين خيرى يعيش فى روما بعد أن أُحيل إلى المعاش بعد الثورة لانتسابه إلى الأسرة المالكة .. وقد قابل عصام الدين خليل صدفة فى روما ، وأحس منه باستجابة عندما حدثه فى إمكانية التحريض على قيام ثورة مضادة داخل صفوف الجيش .

بعد أسابيع التقيا فى فندق « ريفييرا » ببيروت ، وبعد ذلك غادرا الفندق إلى فيلا فى الجبل وهناك كان فى انتظارهما ضابط مخابرات بريطانى اسمه جون فارمر .. ولم ينته اللقاء إلا بعد أن وافق عصام الدين خليل على تكوين منظمة سرية من ضباط الجيش فى مصر للقيام بانقلاب .. واشترط جون فارمر عليه أن يكون المسئول الأوحد .. ودفع إليه ألف جنيه ، عربون !

بعد العدوان الثلاثى تم لقاء آخر فى روما ، أبدى فيه عصام الدين خليل استياءه من قلة النقود ، وقدم ما يثبت أنه رهن « عزبته » الخاصة لتدبير أموال الانقلاب .. وهدد بالانسحاب .. وقال : إنه « لم يعد يثق فيهما » .

وحتى تعود الثقة إليه ، ذكرا له اسم « مرمر » باشا أكثر من مرة ، وهو اسم حركى يتكون من الحرفين الأولين من اسم « مرتضى المراغى » وزير الداخلية فى الحكومة التى أُطيح بها فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

---

(٦) الخدمة السرية العربية — Yaacov Caroz - The Arab Secret Services Corgi - London - 1978.

وأغلب الظن أنه كان الشخصية القيادية المصرية الأكثر إيجابية بالنسبة لبريطانيا من عبد الناصر والتى أشار إليها جورج يونج فى اللقاءات المشتركة مع المخابرات المركزية .

سافر عصام الدين خليل من روما إلى ميونخ ، وهناك قدموه إلى رجل يُدعى « كريتشتون » قيل له إنه أحد رؤساء المخابرات البريطانية .. وبينما كان هناك حملوه رسالة تشجيع من مرتضى المراغى و ١٠ آلاف جنيه ، وأخبروه أن يحرق الرسالة ، ولكنه أغلق على نفسه دورة المياه ، وأحرق ورق تواليت ، وأخفى الرسالة فى حذائه .. وقبل أن يعود إلى القاهرة أعطوه أدوات الكتابة بالحبر السرى .

فى القاهرة لم يقابل عصام الدين خليل المتآمرين ، وفضل أن يتصل بهم من خلال رسول شاب هو فريد شاكر ، شقيق زوجته .. الذى قام بسبع رحلات بين القاهرة وبيروت فى الفترة ما بين مايو ونوفمبر ١٩٥٧ ، حمل خلالها الرسائل والمال .. الذى بلغت جملته ١٦٢٥٠٠ جنيه .

وفى إحدى الرحلات التقى فريد شاكر بمرتضى المراغى ، وسمع منه أنه سيكون رئيس الوزراء فى حكومة الانقلاب ، وأن حسين خيرى سيتولى وزارة الحربية ، وأن عصام الدين خليل ستكون له وزارة الخارجية .

وأضاف مرتضى المراغى :

— إنه لا مفر بعد الانقلاب من إعادة الملكية إلى مصر !

وأعطى فريد شاكر علامات نحاسية لاستخدامها لأغراض تحقيق الشخصية أثناء الانقلاب !

انتهت المؤامرة نهاية مفاجئة ..

ففى ذكرى عيد النصر .. فى ٢٣ ديسمبر ١٩٥٧ ، ألقى جمال عبد الناصر خطابا فى بور سعيد كشف فيه أسرار المؤامرة .. وعُرف أن عصام الدين خليل كان يعمل بعلم المخابرات المصرية وبموافقتها .. وقلده جمال عبد الناصر وساما .

وبرغم أن المتهمين الكبار لم يُقبض عليهم لوجودهم خارج البلاد ، فقد حُكم عليهم غيابيا بالسجن مدى الحياة .. و لم يعد مرتضى المراغى إلى مصر إلا فى عهد السادات .

لم تكن هذه اللطمة الأولى من نوعها التى تلقتها المخابرات البريطانية ...

ففى نهاية أغسطس ١٩٥٦ ، قُبض على ١٦ شخصا (١١ مصريا و٣ بريطانيين ومالطى ولاجىء يوغسلافى) كانوا يشكلون شبكة تجسس تعمل لحساب المخابرات البريطانية ، واتُهم أربعة بريطانيين آخرين بالانتماء إلى الشبكة ، لكنهم استطاعوا الهرب فى الوقت المناسب ، قبل القبض عليهم .

وعُثر على الأسلحة مدفونة فى الرمال بالقرب من القاهرة .

وفى التحقيق انترعت السلطات اعترافا بأن الخطوة الأولى فى الخطة تصفية جمال عبد الناصر تصفبة جسدية !

هذه هى بعض التفاصيل التى لم يذكرها بيتر رايت ، والتى انتهت على حد قوله إلى « انهيار عمليات المخابرات البريطانية فى مصر » !

ويذكر بيتر رايت أنه التقى بريتشارد هيلمز (مسئول الخدمة السرية ومدير وكالة المخابرات المركزية فيما بعد) فى سنة ١٩٥٩ ، فى واشنطن ، بعد أن ألقى محاضرة فى مقر الوكالة .

وقال له ريتشارد هيلمز :

ــ إن المخابرات المركزية ينقصها وجود خبراء متخصصين فى دول العالم الثالث ، مثل المخابرات البريطانية .

فرد عليه :

ــ إن المخابرات البريطانية تسعى دائما لاستغلال واستخدام البدائل ، بحيث تمهد لعزل رئيس وفى الوقت نفسه يكون لديها بدائل يتولون الحكم بعملية انتفال السلطة !

ويضيف بيتر رابت :

« وسألنى أبملتون المسئول الكبير فى المخابرات الأمريكية :

ــ وكيف بمكنكم أن تتعاملوا ــ مثلا ــ مع فيدل كاسترو ؟! .

قلت :

ــ نحاول أن نعزله بإثارة القلاقل ضده ، وبإقناع الكوبيين برفض أسلوب حكمه !

قال :

ـــ وإذا فشلت هذه المحاولات ، هل تقومون بقتله ؟! .

قلت وأنا أمسح فمي بهدوء :

ـــ لقد تورطنا منذ عامين فى مشكلة مشابهة وانتهت بالفشل .. كان المطلوب اغتيال جمال عبد الناصر !

قبل أن تنفجر أزمة السويس ، تلقت المجموعة « ٦ » من المخابرات الحربية البريطانية تعليمات بإعداد خطة لاغتيال جمال عبد الناصر ، على أن تشرف على هذه العملية الإدارة المختصة فى لندن ، مع التنسيق مع عملاء المخابرات البريطانية فى الشرق الأوسط ، ومصر ، واقترحنا التخلص منه باستخدام « **غاز الأعصاب** » !

وافق أنتونى إيدن على الخطة ، لكنه عدل عنها بعد أن توصل لاتفاق بين بريطانيا وفرنسا وإسرائيل للقيام بعملية عسكرية مشتركة ضد مصر .

على أنه عاد ـــ بعد فشل العملية العسكرية ـــ يطالب بتنفيذ عملية الاغتيال .

.. « لكن الوقت كان قد فات » بعد أن « قبضت المخابرات المصرية على جواسيسنا فى مصر » ..

« ووضعنا خطة أخرى لاغتياله ، ولكنها فشلت أيضا بعد أن عثرت السلطات المصرية على مخابىء للسلاح كان من المفروض أن يقوم المتآمرون باستخدامها للقيام بانقلاب عسكرى » .

ويتنصل بيتر رايت من هذا الفشل .. ويؤكد أنه كان على الهامش بالنسبة لهذه العمليات .. ثم يقول :

« إن المخابرات البريطانية طلبت منى ومن زملاء آخرين إجراء تجارب على عملية استخدام غاز الأعصاب فى عمليات الاغتيال السياسى ، بحيث يتم وضع الغاز فى أنابيب وتوصيلات أجهزة تكييف الهواء » .

« وكانت التجارب التى نقوم بها تستهدف معرفة مدى إمكانية استخدام هذا الغاز فى تسميم الرؤساء .. وكنا نعتمد فى ذلك على عقار الهلوسة الذى يتعاطاه الشباب (L. S. D.) ، بأن نضاعف الجرعات التى ندسها للرؤساء مما يؤدى إلى

الوفاة بالتسمم .. وكنا نستخدم هذه المادة بكميات قليلة فى استجواب الجواسيس » .

« وقد سألنى هنرى ريكون من موظفى المخابرات البريطانية أن أتعاون معهم فى قتل جمال عبد الناصر بالسم ، لأن من السهل دس كميات منه فى الشراب أو الطعام .. وكان أحد عملائنا يستطيع الوصول إلى الرئيس المصرى فى أحد أماكن إقامته .. ووافقت .. لكنه سرعا ما عاد وقال إن ذلك صعب » .

والمذهل ...

أنهم بعد ذلك وافقوا على خطة الاغتيال بواسطة وضع غاز الأعصاب فى أجهزة التكييف .. « وقد أوضحت لهم أن هذه العملية تحتاج إلى كميات كبيرة من الغاز ، وتؤدى إلى وفاة الكثيرين من رجال ومساعدى جمال عبد الناصر » .

وكان من الواضح أن هذه الخطة هى مجرد عمل يائس ...

وسرعان ما تراجع عنها أنتونى إيدن !

□ □

فى فبراير ١٩٥٨ ، أُعلنت الوحدة بين القاهرة ودمشق ، واستفز ذلك — باعتراف إيفلاند — وكالة المخابرات المركزية ، التى حاولت تجميد الوحدة ، وهى لا تزال مجرد مشروع ، حتى لا تُعلن .. فأوعزت إلى الملك سعود بن عبد العزيز أن يُرسل خمسة ملايين دولار إلى عبد الحميد السراج ، مع إعطائه وعدا بأن تدعم الولايات المتحدة موقفه ، وتستمر فى المحافظة على استقلال سوريا برئاسته .

وقد بدأت المؤامرة عندما اتصل بعض الأفراد ، ذوو الصلة بالملك سعود ، بشخص لبنانى علوى يُدعى عزيز عياد ، وطلبوا منه جس نبض المجلس العسكرى السورى لضرب محور القاهرة — دمشق .. وانصل عزيز عياد بضابط سورى سابق هو برهان أدهم ، الذى كان على علاقة بأحمد عبد الكريم عضو المجلس العسكرى .

لم يتردد أحمد عبد الكريم فى كشف المؤامرة للمجلس العسكرى ، الذى كلف عبد الحميد السراج بمتابعة ما سيحدث ، بصفته قائد المكتب الثانى (المخابرات) .. ومن ثم أصبحت الصلة مباشرة بينه وبين برهان أدهم .

كان الملك سعود على علم بما يجرى بينهما .. فأرسل إلى عبد الحميد السراج ٢ مليون جنيه (٥ مليون دولار) موزعة على ٣ شيكات ، مقابل ضرب طائرة جمال عبد الناصر ، وإسقاطها ، إذا لم تسنح الفرصة بعمل يُوقف الوحدة !

أبلغ عبد الحميد السراج كل ما حدث إلى جمال عبد الناصر ، الذى طلب منه أن يتكتم الأمر .. لكن .. بعد فترة سرب عبد الحميد السراج أخبارا عن المؤامرة ، فوجد جمال عبد الناصر نفسه مُجبرا على إعلانها فى خطاب له فى دمشق ، أشاد فيه بوطنية عبد الحميد السراج ، ونسب إليه كشف المؤامرة ، وأغفل دور المجلس العسكرى ، الذى أغضبه ذلك[7] .

ويقول صلاح نصر :

« إن جمال عبد الناصر تعمد إهمال دور المجلس العسكرى ليحدث انقساما داخله ، وهذا الأسلوب كثيرا ما استخدمه مع زملائه فى الحكم ، فى مصر »[8] .

□ □

وفى كشف حساب وكالة المخابرات المركزية ثلاث محاولات دبرتها لاغتيال جمال عبد الناصر ، خلال الفترة ما بين العدوان الثلاثى (١٩٥٦) وفشل مبدأ ايزنهاور فى لبنان (١٩٥٨) .. وقد جاء ذلك فى بعض الفقرات المحذوفة من كتاب فكتور مارشيتى ، وجون ماركس عن الوكالة التى كانا من رجالها .

وباقى ما جاء فى هذه الفقرات ، يؤكد أن الوكالة ، جهزت ثلاث مجموعات للاغتيال ، دفعت بها إلى مصر ، فقُبض على المجموعتين ، الأولى ، والثالثة ، وعجزت المجموعة الثانية عن التنفيذ .

وفى الكتاب نفسه ، فقرة محذوفة تشير إلى أن بداية التفكير فى اغتيال جمال عبد الناصر ، كانت فى اجتماع لمجلس الأمن القومى ، حضره جون فوستر دالس (وزير الخارجية) وشقيقه آلن والش دالس (مدير الوكالة) وكان كل منهما لا يزال فى أوج مجده .

---

(٧) و(٨) صلاح نصر — عبد الناصر وتجربة الوحدة — دار الوطن العربى — بيروت .

وكان محور النقاش فى هذا الاجتماع ، تقريراً للوكالة ، عن الأضرار التى أصابت المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط ، بسبب سياسة جمال عبد الناصر .

وقد أثار ما جاء فى التقرير غضب جون فوستر دالس ..

فقال :

« ألا تستطيعون أن تخلصونا من هذه المشكلة » ؟! .

وكان أن اعتبر آلن والش دالس ذلك تكليفا للمخابرات المركزية بالتخلص من جمال عبد الناصر .. وتصفيته ..

وأصدر أوامره « بعمل اللازم » !

فكانت تلك المحاولات الفاشلة ، التى لم تُكشف أسرارها بعد .

وحسب ما جاء فى تقرير لجنة « نشرش » التى شكلها الكونجرس بعد فضيحة ووترجيت للتحقيق فى نشاط وجرائم المخابرات المركزية ، فإن الوكالة ، حاولت اغتيال : فيدل كاسترو (كوبا) ، وجمال عبد الناصر (مصر) ، وعبد الكريم قاسم (العراق) ، والأسقف مكاريوس (قبرص) ، وشارل ديجول (فرنسا) ، وسلفادور الليندى (شيلى) ، وبياتريس لومومبا (الكونغو) ، وأنديرا غاندى (الهند) ، وكوامى نكروما (غانا) ، وأحمد سوكارنو (إندونيسيا) .

ولكنها ...

لم تنجح سوى فى اغتيال اثنين فقط من هذه القائمة ، هما : الليندى ، ولومومبا !

وحسب التقرير نفسه فإن الوكالة اتجهت إلى استخدام أساليب مبتكرة عندما سعت إلى اغتيال هؤلاء الحكام ..

حاولت اغتيال فيدل كاسترو بسيجار مسموم .

وحاولت اغتيال عبد الكريم قاسم بمنديل مبلل بمادة سامة ، تؤدى إلى عجز جسدى من خلال تسرب السم إلى الخلايا .

وحاولت اغتيال جمال عبد الناصر بواسطة دس السم له فى فنجان قهوة .

وقد توصل إلى هذا الأسلوب ثلاثة من ضباط الخدمة السرية فى الوكالة (ريمون روكا ووليم هود ونبوتن ميللر) ، كُلفوا فى سنة ١٩٥٦ بدراسة كيفية اغتيال جمال عبد الناصر .. وغرق الضباط الثلاثة فى ملفات الوكالة عن الزعيم العربى ، وقرأوا أدق التفاصيل عنه .. طوله .. صحته .. أمراضه .. أسرته .. تحركاته .. حراسته .. طعامه .. بيته .. برنامجه اليومى .. مكتبه .. مشيته .. طرز سياراته .. نوعية

مساعديه .. هواياته .. وحتى ألوان ثيابه .. وبعد جهد مكثف ، انتهوا إلى حقيقة بدت ساذجة ، هى أن أفضل أساليب اغتياله ، هى أكثرها بساطة ، مثل وضع السم فى مشروب يقدم له بطريقة لا تثير الريبة .

□ □

فى ملفات المخابرات المصرية ، ما يشير إلى أن هناك من حاول قتل جمال عبد الناصر بهذه الطريقة الساذجة .. وقُبض على المدبرين وكانوا يشكلون خلية سرية .

كانت الخطة أن يضع جرسون يونانى يعمل فى محلات « جروبى » السم له فى فنجان قهوة ، ويقدمه بأعصاب باردة .. وقد كان .. قدم فنجان القهوة إلى الرئيس .. ومد الرئيس يده وأخذ الفنجان .. ثم نظر إليه .. وما أن استدار الجرسون حتى وجد من يقبض عليه ..

كان ذلك فى الإسكندرية ..

وكان جروبى المسئول عن الخدمة والطعام والشراب فى حفلات رئاسة الجمهورية .. لذلك لم يشك أحد فى الجرسون .. لكن .. الشك بدأ عندما جلس بحار يهذى — تحت تأثير الخمر — فى أحد البارات الرخيصة ، بكلمات ، فُهم منها الكثير .. وتابعت أجهزة الأمن البحار الذى اتضح أنه من الشواذ جنسيا ، وعرفت أنه والجرسون وستة أشخاص غيرهما ، من بينهم امرأة يشكلون أفراد الخلية .. وعرفت خطة الاغتيال .. فتركت الجرسون يصل إلى مداه .. وفى اللحظة المناسبة قُبض عليه .. وكشفت التحقيقات ، أن إسرائيل هى التى جندتهم .

ويقول صلاح نصر :

— إن هذه المحاولة دفعت المخابرات العامة إلى إنشاء قسم السموم بها .. « وكان هدفه مواجهة إسرائيل بالأسلوب نفسه » .. و « فى الوقت نفسه كان يتبعه معمل صغير مهمته تحليل الأطعمة التى تذهب إلى رئيس الجمهورية وضيوفه »[9] .

وكان هذا المعمل يشغل إحدى حجرات بيت جمال عبد الناصر ، وكان مسئولا

---

(٩) روز اليوسف — ٢٧ / ٩ / ١٩٨٢ — ص ٢٥ .

عنه صيدلى وطبيب من المخابرات ، وطبيب آخر من الرئاسة .

وبعد هذا الحادث تغير نظام شراء الأطعمة فى بيت جمال عبد الناصر ، من نظام المتعهد الثابت ، إلى نظام تعدد مصادر الشراء .. كذلك .. أصبح الأمر بالنسبة للأدوية التى تشتريها صيدلية رئاسة الجمهورية ويُصرف منها دواء الرئيس وأسرته .

□ □

وأمام لجنة التحقيق الأمريكية ، اعترف مايلز كوبلاند بأن المخابرات المركزية اقترحت اغتيال جمال عبد الناصر ، أول مرة ، بعد صفقة الأسلحة الروسية فى سنة ١٩٥٥ .. لكنه أضاف : « إن ذلك كان مجرد اقتراح ، ولم يتحول إلى خطة » .

وقال كوبلاند :

ــ إن المخابرات المركزية لم تأخذ الأمر بجدية إلا بعد أن طلب أنتونى إيدن صراحة التخلص من جمال عبد الناصر .

وبناء عليه تشكلت اللجنة المشتركة بين المخابرات الأمريكية والمخابرات البريطانية .. والتى اجتمعت فى لندن ٣ مرات ، لكنها لم تتوصل إلى شيء محدد .

وكشفت لجنة التحقيق أن كوبلاند بحث بنفسه خطة لإطلاق الرصاص على جمال عبد الناصر ، عن قرب ، فى سنة ١٩٥٧ ، لكنه لم يجد الظرف المناسب للتنفيذ .

□ □

بعد عامين .. وردا على محاولات مصر لقلب النظام فى العراق ، قرر عبد الكريم قاسم ، اغتيال جمال عبد الناصر .. فتسلل إلى دمشق مجموعة من القناصة لاصطياد جمال عبد الناصر وهو يلقى خطابا فى شرفة قصر الضيافة .. ولم يكن من الصعب معرفة أبعاد المؤامرة قبل وقت كاف .. وكان أن أحاط رجال الحرس بجمال عبد الناصر بطريقة أزعجته ، فلم يتردد فى طردهم .. ولكنه سارع بعد ذلك بتطييب خواطرهم .. وقال لهم :

« ربنا هو اللى بيحرسنى ، ولو ربنا أراد ، لا انتوا ، ولا غيركم ، يحوشوا القدر » !

وبعد سقوط عبد الكريم قاسم ، ألمح عبد السلام عارف إلى جمال عبد الناصر

بضرورة زيارة العراق ، لكن أجهزة الأمن العراقية لم تخف عن اللواء حسن طلعت (مدير المباحث العامة) قلقها على حياة جمال عبد الناصر ، وجاء اقتراح بتأجيل الزيارة ، واستجاب جمال عبد الناصر .. لكن الزيارة لم تتم ، فقد قُتل عبد السلام عارف فى حادث طائرة هليكوبتر ، بعد أقل من أسبوع[١٠] .

□ □

فى سنة ١٩٦١ ، وصل سخط الفرنسيين على جمال عبد الناصر — بسبب دعم ثورة الجزائر — إلى الذروة .. فقد بات واضحا أن استقلال الجزائر أمر لا مفر منه .

فى ذلك الوقت ، استقل جمال عبد الناصر الباخرة « الحرية » ، متوجها إلى الدار البيضاء ، ترافقها مدمرتان من السلاح البحرى للحراسة .. لكن إحدى المدمرتين جنحت ، وانسحبت إلى حوض إصلاح فى إيطاليا .. وبعد ساعات أصاب عطب محركات الأخرى ، فغيرت مسارها إلى إسبانيا .. وبقيت « الحرية » بلا حراسة فى عرض البحر .. و « الحرية » سفينة صغيرة ، كانت اليخت الخاص للملك فاروق ، وكانت تُسمى المحروسة ، وهى التى حملته إلى منفاه الأخير بعد ظهر يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ، بعد تنازله عن العرش .

سرت عدوى التوتر إلى كل من كان فوق ظهر « الحرية » ، خاصة وأن بعض المعلومات — غير المؤكدة — أشارت إلى أن المخابرات الفرنسية ، مصرة على قتل جمال عبد الناصر ، خلال هذه الرحلة البحرية .

وعندما اقتربت « الحرية » من الشاطىء الجزائرى ، فوجىء من عليها بطائرات فرنسية تحوم حولها ، وتصادف أن كان جمال عبد الناصر على السطح يتسلى بهواية التصوير السينمائى التى كان يعشقها ، فلم يتردد فى أن يصور الطائرات ، التى اقتربت من الباخرة إلى حد أنه كان من الممكن رؤية قائدها بالعين المجردة .. وأحس على صبرى بالفزع ، فشد عبد الناصر من ذراعه ، وهو يقول :

« لو كانت فرنسا لا تنوى قتلك ، فمن يضمن ألا يكون هذا الطيار مجنونا .. ويعملها ؟! » .

---

(١٠) حسن طلعت — فى خدمة الأمن السياسى (١٩٣٩ — ١٩٧١) — الوطن العربى — بيروت .

وفيما بعد ...

اتضح أن الطائرات الفرنسية ، تلقت أمرا بضرب الباخرة .. وإغراقها بمن فيها .. لكنها بعد أن أقلعت تلقت أمرا آخر بعدم الضرب .

فقد خشيت الحكومة الفرنسية الفضيحة ، ثم إن حساباتها انتهت إلى أن أزمة دولية ستحدث لو قتل جمال عبد الناصر بهذه الطريقة .

□ □

وحسب ما قاله اللواء حسن طلعت فى مذكراته ، فإن المباحث العامة ، اكتشفت فى سنة ١٩٦٥ أكثر من مؤامرة لاغتيال جمال عبد الناصر ، كان الإخوان المسلمون ضالعين فيها ...

الأولى : دبرها حسين توفيق أحد شركاء السادات فى جناية قتل أمين عثمان ، وكانت الثورة قد عفت عنه ، فعاد إلى مصر ، بعد أن عاش هاربا فى سوريا .. « ودلت التحريات أن حسين توفيق سيحصل على الأسلحة والمفرقعات » التى سينفذ بها الاغتيال « من أحد أفراد جماعة الإخوان المسلمين المنحلة ببلدة سنفا ، مركز ميت غمر » .

والثانية : كان يدبرها طيار فى شركة مصر للطيران ، وعضو بجماعة الإخوان ، بهدف الاعتداء على جمال عبد الناصر أثناء سفره على إحدى طائرات الشركة .. وقد نجح الطيار فى الفرار إلى السودان فى الوقت المناسب .

والثالثة : كانت تتعلق بضبط مواطن أثناء دخوله الجامع الأزهر لتأدية صلاة الجمعة وهو يحمل مسدسا ، وكان جمال عبد الناصر سيؤدى الصلاة فيالأزهر فى الوقت نفسه .. « فلما أرسل المواطن بعد ذلك إلى قسم الشرطة التابع له لإتمام التحرى عنه ، سمح له الحرس المعين لمرافقته بالذهاب إلى منزله » ليغير ملابسه !

□ □

وفى معرض روايته لأسرار عبد الناصر الشخصية ، والتى نشرتها « روز اليوسف » ، يقول محمود الجيار :

إن جمال عبد الناصر كان عائدا من تنزانيا ، وكان المفروض أن تهبط طائرته فى

مطار القاهرة فى الساعة السادسة مساء .. وفى فجر هذا اليوم ، دق التليفون فى بيته ، وسأل المتحدث :

ـــ هل هذا بيت عبد الناصر ؟

قالوا :

ـــ نعم !

رد المتحدث :

ـــ جهزوا البيت للحداد !

وتكرر الاتصال المزعج ثلاث مرات .. وسارعت أجهزة الأمن لكشف أبعاد المكالمة التليفونية .. واتضح أن هناك خلية سرية تدبر لاغتيال الرئيس عند وصوله إلى المطار .. واعتُقِلَ أفراد الخلية واعترفوا بوجود قائد للعملية لا يعرفونه .

وصلت الطائرة قبل موعدها بربع ساعة ، فأمر عبد الحكيم عامر ـــ الذى كان فى المطار ـــ بتأخير نزولها وظلت الطائرة تلف حول المطار ثلث ساعة دون سبب معقول ، وعندما هبطت ، كان الاستقبال غريبا ، فقد حشروا عبد الناصر فى سيارة مقفلة ، لكنه رفض ، ورغم أنه عرف بالأمر ، فقد أصر على أن يمشى على قدميه ، ويحيى مستقبليه الذين غلبهم الحماس فأحاطو به من كل جانب .

والحادث كما وقع صحيح ...

لكن .. ثبت فيما بعد أنه لا مؤامرة ولا تنظيم ، وأن الأمر كان كله من تدبير رجال المشير عبد الحكيم عامر ، لوضع عبد الناصر فى مصيدة الأمن ، ووهم الخطر على حياته .

ولم تكن هذه هى المرة الأولى .. ولا الأخيرة .

ولم تكن المؤامرة المفتعلة على الحياة فقط ، وإنما على الحكم أيضا .

□ □

بعد الهزيمة وقع الصدام الشهير بين عبد الناصر والمشير .. وحسب ما جاء فى محاكمات قادة الجيش المسئولين عن الهزيمة(١١) فإن المقدم جلال هريدى المسئول عن

---

(١١) عبد العظيم رمضان ـــ تحطيم الآلهة ـــ مكتبة مدبولى ـــ ص ٣١٦ .

الصاعقة ، وأحد رجال المشير ، اقترح عليه إقناع عبد الناصر بزيارته فى البيت ، فإذا ما حضر ، يعتقل فورا .

وقد سأل حسين الشافعى — رئيس المحكمة — شمس بدران عن هذه الواقعة فقال :

« أيوه ، هو اقترح ، وفيه شهود » !

واقترح شمس بدران اعتقال عبد الناصر فى بيته !

وكان شمس بدران يتردد على بيت عبد الناصر للتوفيق بينه وبين المشير ، فكان أن استوحى من هذه الزيارات فكرة استدراج عبد الناصر إلى باب الخروج ، ثم يتم اختطافه .

وكانت الخطة تقضى أن تكون سيارة شمس بدران قريبة من باب الخروج ، وفى حقيبتها اثنان من المسلحين بالبنادق سريعة الطلقات ، وعندما يقترب عبد الناصر من السيارة ، وهو يصافح شمس بدران مودعا يخرج الرجلان المسلحان فجأة من حقيبة السيارة ، ويرغمانه ، ومعهما شمس بدران على دخول السيارة ، التى تنطلق إلى بيت المشير فورا ، وهناك يفرض المشير — من مركز قوة — على عبد الناصر — المخطوف — شروطه[١٢] .

وفشلت المحاولة .. وسيطر عبد الناصر على الجيش .. وأُعلن انتحار المشير .. وقُبض على الضباط المتمردين !

فى ديسمبر ١٩٦٩ ، كان على عبد الناصر السفر إلى العاصمة المغربية « الرباط » لحضور مؤتمر القمة العربية .. وقبل السفر وصلته برقيات بالشفرة أرسلتها مجموعة المقدمة التى سبقته إلى الرباط لإعداد الترتيبات اللازمة له ، وكانت بينها برقية بتوقيع سكرتير عام رئاسة الجمهورية ، تقول إن هناك معلومات متداولة فى بعض الأوساط السياسية فى المغرب بأن الجنرال محمد أوفقير وزير الداخلية المغربى ، يتعاون مع وكالة المخابرات المركزية فى محاولة لاغتياله أثناء وجوده فى المغرب .

---

(١٢) المصدر السابق .

ويضيف محمد حسنين هيكل (خريف الغضب) : إن هذه البرقية هى التى جعلت عبد الناصر ، يعين أنور السادات نائبا له .

« وثبت أن هذه المعلومات لا أساس لها من الصحة ، وأن هذا التقرير مثل تقارير أخرى سابقة عن مؤامرات لاغتياله ، مبالغ فيها » .

□ □

أغلب الظن أن محاولات اغتيال جمال عبد الناصر ـــ التى دبرتها المخابرات الغربية ـــ انحصرت فى الفترة ما بين ١٩٥٥ (صفقة الأسلحة الروسية) و١٩٦٢ (خروج آلن دالس من وكالة المخابرات المركزية) .

ففى تلك الفترة كانت التصفية الجسدية عقيدة تسيطر على الدول الكبرى فى التخلص من خصومها .. وقد تلاشت هذه العقيدة ، بعد ذلك لأكثر من سبب :

١ ـــ إن حالات الفشل كانت أكبر بكثير من حالات النجاح .. واحد فى المائة .

٢ ـــ إن عمليات الاغتيال العلنية قد تؤدى إلى نتائج غير محسوبة ، وتثير التعاطف مع الضحية مما يهدد بتدمير مصالح الدولة المنفذة للاغتيال فى أماكن كثيرة تحيط بمكان الجريمة .

٣ ـــ إن تطورا علميا مذهلا حدث فى عمليات الاغتيال ، جعل من إطلاق الرصاص ، أو الخنق بغاز الأعصاب ، أو دس السم فى الطعام ، وسائل وأساليب ساذجة .

٤ ـــ إن هذا التطور جعل من عملية القتل أحيانا عملية أشبه بالموت الطبيعى الذى لا شبهة جنائية فيه .

ومن هنا .. بدأت مرحلة تسمى مرحلة « **الاغتيال عن بعد** » .. أو الاغتيال بالريموت كونترول .. فهل حدث ذلك مع جمال عبد الناصر ؟!

الإجابة ستجعلنا نسبق الأحداث ... وهذا ما لا نريده الآن !

□ □ □

□ ٧ □

جلطة بلا صخب !

يبدو ...

أن « نجم » جمال عبد الناصر « السيىء » كان يسكن فى شهر « **سبتمبر** » !

فى سبتمبر ١٩٦١ ، تلقى ضربة الانفصال .. فى سبتمبر ١٩٦٨ مات والده .. فى سبتمبر ١٩٦٩ تعرض لأزمة قلبية حادة ... وفى سبتمبر ١٩٧٠ ، مات .

فى صباح يوم ٩ سبتمبر ١٩٦٩ ، استيقظ جمال عبد الناصر من نومه مبكرا ، وبعد إفطار بسيط ، غادر بيته إلى طريق القاهرة ــ السويس .. وعند الكيلو ــ ٥٣ ، نزل من السيارة ، وتوجه إلى نقطة مشاهدة ، يتابع منها المشروع التدريبى للفرقة ٢١ المدرعة ، والتى أُنشئت ، واكتملت حديثا ، فجاء ليرى كفاءتها على الطبيعة .. وكان معه وزير الحربية الفريق أول محمد فوزى ، ورئيس الأركان اللواء أحمد إسماعيل على ، ورؤساء الأفرع الرئيسية فى القوات المسلحة ، وعدد من المستشارين السوفييت .

فى الساعة العاشرة جاء مدير الاستطلاع ، اللواء عبد الغنى الجمسى ، وبَلَّغ جمال عبد الناصر بنزول سرية ، برمائية ، إسرائيلية على شاطىء السويس الغربى ، قرب نقطة الزعفرانة ، التى تبعد ١٠٠ كيلو متر جنوبي السويس .

لم يكن قد عُرف بعد أن السرية الإسرائيلية ، مكونة من ٩ دبابات برمائية ، وأنها أُنزلت فى الفجر ، وأنها ذبحت أفراد النقطة ، وقطعت طريق السويس ــ الغردقة بمحاذاة الشاطىء ، واستولت على محطة رادار ، وقطعت خط التليفون الهوائى .. ثم .. راحت تصور فيلما سينمائيا ، يروى بالصوت والصورة ما فعلت .. وبعد ٦ ساعات عادت من حيث جاءت .

قرر جمال عبد الناصر إلغاء المشروع التدريبى ، وكلف اللواء أحمد إسماعيل ومستشاره السوفييتى بالتوجه إلى الزعفرانة رأسا لمعرفة كل التفاصيل ، و « لم يستطع الرئيس الانتظار طول اليوم كما كان مقررا ، وفضل العودة إلى القاهرة الساعة الثانية والنصف بعد الظهر »[1] .

ويقول الفريق محمد فوزى فى مذكراته :

إنه عاد مع الرئيس إلى منشية البكرى ، ثم توجه إلى القيادة ، فوجد اللواء أحمد إسماعيل فى مكتبه يحاول معرفة ما جرى باللاسلكى ، فأخطر الرئيس بالموقف ، فرد عليه :

« هو المستشار الروسى ينفذ أوامرى ورئيس الأركان يفضل فى المكتب .. أنا فى انتظار عودة المستشار » .

« وصل المستشار السوفييتى الساعة السادسة مساء اليوم نفسه وعرض علىّ الموقف كما ذكرت فأخطرت الرئيس بذلك ، وكان قد استمع إلى الإذاعات الأجنبية التى صعدت حادث الزعفرانة إعلاميا وتليفزيونيا ، وشعرت بضيق الرئيس وزعله ، وقال لى : إن رئيس الأركان لا يصلح للاستمرار فى تحمل هذه المسئولية . شوف لك واحد آخر » .

كانت الدعاية ساخنة .. استفزازية .. فقد صورت العملية وكأنها عملية غزو .. ووصفت مصر بعبارة « **مصر المحتلة** » .

بعد حوالى ٤٨ ساعة من الانفعال ، والقلق ، دخل عليه ، فى الصباح ، الدكتور الصاوى حبيب ، ليقوم بالكشف الطبى الدورى .. وعندما وضع الطبيب السماعة على صدره ، اكتشف أن صوت القلب ليس كالمعتاد .. وضرباته أثقل وأكثر غلظة .. وبعد رسم القلب ، تأكد من وجود جلطة .

كان جمال عبد الناصر قد وعد الأطباء السوفييت بالعودة إلى تسخالطوبو فى أغسطس ١٩٦٩ ، لكن ظروف حرب الاستنزاف جعلته يؤجل السفر شهرا .. ومن

---

(١) مذكرات الفريق أول محمد فوزى — جـ ١ — ص ٢٨٣ — دار المستقبل العربى — القاهرة .

ثم كان مقررا أن يطير إلى هناك فى يوم ١٦ سبتمبر ١٩٦٩ .. بعد خمسة أيام فقط من اكتشاف الجلطة .

كانت الجلطة فى الشريان التاجى الأمامى ، الذى يساهم فى تغذية جدران القلب وعضلاته ، بالأوكسوجين ، والغذاء ، من خلال الدم .. والجلطة تعنى أن تجلطا حدث فى الدم ، فسد الشريان ، وقطع سريان الدم عن الوصول إلى القلب .. أو فى أفضل الأحوال وصوله بكميات أقل ، حسب حجم الجلطة .

وسبب الجلطة ، الكولسترول ، وتصلب الشرايين ، وهما من مضاعفات السكر .

والذى حدث لجمال عبد الناصر أنه خلال اليومين السابقين كان فى أقصى درجات الانفعال والتوتر ، مما دفع جسمه إلى إفراز هرمونات الأدرنالين ، والنورادرينالين ، فى الدم ، وهذه الهرمونات تساعد على تهيئة الجسم لمواجهة الأحداث ، لكنها فى الوقت نفسه تزيد من ضربات القلب ، وضغط الدم ، وتفرز كميات من السكريات والأحماض الدهنية ، تتجمع ، وتترسب فى الشرايين .. ولأن السكر مرتفع أصلا ، والأحماض الدهنية أيضا ، كذلك الشرايين تعانى التصلب ، فإن الجلطة لم تكن فى حاجة إلى انتظار !

□ □

ينقبض القلب السليم ٧٠ ــ ٧٥ مرة فى الدقيقة .. حوالى ١٠٠ ألف مرة فى اليوم .. يدفع خلالها ١٠ آلاف لتر من الدم .. والطاقة التى يبذلها فى ذلك تعادل طاقة مصعد كهربائى يحمل شخصا يزن ٦٠ كيلو جراما ، ويرتفع به ٥ طوابق .. ولو جُمعت الطاقة التى يبذلها القلب طوال عمر شخص وصل إلى سن الخمسين ، لكانت تكفى لرفع حاملة طائرات ١٤ قدما فوق سطح الماء .

وعندما تتجمد الدهون فى الشرايين ، تزداد انقباضات القلب .. أضعافا .. مما يؤدى إلى إضعاف عضلة القلب ، وتقلص عمر الإنسان .

وعندما تتحول الدهون إلى جلطة تزيد انقباضات القلب ٥٠ ــ ١٠٠ ألف عن المعدل الطبيعى .. لذلك ينصح الأطباء بالراحة التامة .. والامتناع عن أى مجهود يذكر .. حتى الكلام ..

ومن حسن حظ جمال عبد الناصر أن الجلطة اكتُشِفت وهو فى فراشه .. نائم .. فهذا يعنى أن المجهود الذى يبذله القلب أقل .. ولو لم يبق فى الفراش .. لكان القلب قد توقف خلال ٤ ـــ ٦ ساعات .. أو على الأقل مات ٢٥ ٪ ـــ ٥٠ ٪ منه .

لكن ...

من سوء الحظ أن الجلطة بدون ألم .. جلطة غير محسوسة .. جلطة بدون إنذار .. وهذا يعنى أنها جلطة خطيرة جدا ، لأنها تخدع المريض ، وتتركه يتصرف دون حساب ، فيكون القلب هو الضحية .

والجلطة بدون ألم تحدث لمرضى السكر فى الحالات المتأخرة .

فعادة تسبب جلطة الشريان التاجى آلاما شديدة .. ولها مواصفات لا تخطئها العين .. لكن .. فى كثير من حالات مرضى السكر بالذات ، أو فى حالات يكون المخ فيها تعرض لشىء ما ، تكون الجلطة بدون ألم .

ويضيف د . شريف عبد الفتاح : .

ـــ ولو كان المريض لديه التهاب فى الأعصاب لمدة طويلة جدا ، يضعف إحساسه ، ولا يشعر بالآلام ، المصاحبة للجلطة .. مجرد إغماءة ، يفقد فيها الوعى ، ثم ينتبه .. وقد تحدث هذه الإغماءة الخاطفة وهو نائم ، فلا يعرف حتى هذا الإنذار .

وأغلب الظن أن ما يصفه د . شريف عبد الفتاح ، هو الذى حدث لجمال عبد الناصر ، حيث إنه لم يعرف ما جرى له ، ولم يشأ د . الصاوى حبيب أن يخبره .. لم يملك الشجاعة ليفعل ذلك .. وكل الذى قاله :

« سيادة الرئيس .. دى انفلونزا .. تستلزم الراحة » !

وجاء الدكتور منصور فايز .. وعرف بنفسه ما جرى .. ولأنه هادىء ، وحريص ، ويعرف أين يضع قدمه ، طلب من د . محمود صلاح الدين أن يكون معه .. وألا يعود إلى عيادته فى الإسكندرية ويبقى فى القاهرة .. وقد كان عبد الناصر يعرفه .. فلم يتعجب من وجوده .. إلا بعد فترة !

وسأل عبد الناصر[٢] :

— **إيه الحكاية ؟**

أجاب الدكتور منصور فايز :

— أبدا .. شوية تقلصات فى الشرايين بسبب الإرهاق ولازم راحة .

قال عبد الناصر منزعجاً :

— **يعنى إيه راحة ؟ .. قد إيه يعنى ؟! .**

رد الدكتور منصور فايز :

— ليس لمدة طويلة ، وبإذن الله كل شىء ينتهى بأمان !

وسأل عبد الناصر عن سر وجود الدكتور محمود صلاح الدين ، فقالوا له : إنه « جاى يسلم على سيادتك » .. لكنه لاحظ أنه يتردد عليه كل يوم ، صباحا ، ومساء .. وكان معه زوج ابنته الدكتور زكى الرملى ، فأحس عبد الناصر أن الموضوع أخطر من الانفلونزا .. وتأكد من إحساسه عندما اقترح عليه الدكتور منصور فايز إشراك طبيب قلب شهير معه فى الفحص والعلاج ، .. لكنه رد على الاقتراح قائلا :

— **كلام إيه اللى بتقوله ؟ .. أنا مش عاوز حد يعرف أبدا حكاية القلب !**

ولم يرد د . منصور فايز .. فهدأ عبد الناصر ثم أضاف :

— **أنا باقول كده علشان معركتنا مع إسرائيل !**

قال د . ومنصور فايز :

— سيادة الرئيس أنا مقدر جيدا كل شيء[٣] !

□ □

بعد ٣ أيام ، عرف جمال عبد الناصر حقيقة ما أصابه !

كان ذلك تدريجيا .. جرعة .. جرعة ..

---

(٢) أكتوبر — ٢٦ / ٦ / ١٩٨٨ — ص ٨ .

(٣) المصدر السابق — ص ٩

قال له الأطباء : انفلونزا .

بعد فترة أضافوا : لكنها من النوع الشديد الذى يرهق القلب .

وأخيرا .. اعترفوا بما أصابه .

وثلاثة أيام مدة طويلة كى يعرف مريض القلب الحقيقة .. إذ ربما استهان خلالها بظروفه الصحية التى يعتقد أنها ــ بشهادة الأطباء ــ لا تحتاج كل الاحتياطات المفروضة عليه .. مما قد يدفعه إلى تصرفات تؤدى إلى مزيد من تدهور القلب .. وربما تؤدى إلى توقفه .

وشتان بين أن يعرف المريض أنه يعانى من انفلونزا ، وبين أن يعرف أنه يعانى من جلطة تاجية !

إن جهل المريض بحالته ٣ أيام ــ كما حدث مع عبد الناصر ــ كان من الممكن أن يفعل الكثير .. لولا ستر الله الذى أمد فى عمره سنة أخرى .

فهل أخطأ أطباؤه ؟

أم أن شجاعتهم خانتهم ؟

ويضاعف من مسئوليتهم .. أن الجلطة بدون ألم .. ولا أعراض .. ولا إنذار مبكر .. فلم يشعر بأعراضها ولم تظهر عليه علاماتها ؛ آلام بالصدر تحت عظمة القفص ، وبعرض الصدر ، وأحيانا فى الذراعين ، أو العنق ، أو المعدة .

ولأن الآلام تشبه خنجرا يرشق فى الصدر .. فقد سُميت هذه الأعراض باسم الذبحة الصدرية .. وعلى ذلك فالذبحة الصدرية ليست سوى أعراض لنقص تغذية عضلة القلب .

وهذه الأعراض إذا ما ظهرت فإنها تجعل المريض أكثر انضباطا فى العلاج ، وأكثر دقة فى تنفيذ أوامر الأطباء .. وإن كانت تسبب له هزة نفسية ، يحتاج لبعض الوقت حتى يتخلص منها .

وإذا لم تظهر هذه الأعراض ، فإن المريض لا يشعر بخطورة ما أصابه .. ولا بد أن يصارحه الأطباء ، ويبالغوا فى حالته بعض الشيء ، حتى يجد نفسه مضطرا لتنفيذ التعليمات .

وهذا ... لم يحدث مع عبد الناصر .

لذلك .. فأغلب الظن أنه لم يزن خطورة الحالة بدقة .

وعندما سأله محمد حسنين هيكل عن « حكاية الانفلونزا » التى يقال إنه أُصيب بها ، قال :

« **يظهر إنى أُصبت بذبحة قلبية** » !

وكلمة « **يظهر** » تعنى أنه غير متأكد .

وأضاف :

« **لكن الأطباء يقولون إن المسألة بسيطة** » !

أى أن الأطباء هونوا عليه الأمر .. فاستهان به .. وبعد حوالى السنة ، دفع الثمن !

□ □

على أن ذلك لا ينفى أنهم استطاعوا إذابة الجلطة ، وأنقذوا عضلة القلب من تليف متوقع فى بعض أجزائها .. وكان أن عاد عبد الناصر إلى ممارسة نشاطه العام بعد حوالى شهرين .. فى نوفمبر ١٩٦٩ .

وقد لجأ الأطباء إلى العلاج الشائع ..

ــ استخدام العقاقير التى توسع الشرايين التاجية .

ــ تغذية عضلة القلب بعقاقير تقلل من استهلاكها للأوكسوجين .

ــ الإقلال من توتر عضلة القلب .

وأغلب الظن أنه لم يحدث أى تفكير فى العلاج بالجراحة .. فقد كان هذا النوع من العلاج فى بدايته ، ولا نعتقد أن أحدا كان يمكن أن يتجرأ ، ويقترح ذلك على جمال عبد الناصر .

وقد انتشر العلاج بالجراحة فيما بعد .. وأمكن زرع شريان فى عضلة القلب .. كما أمكن تغذية الدم بتوصيلة تتخطى منطقة الضيق فى الشريان التاجى .

وبجانب العلاج بالعقاقير ، نصح الأطباء ، عبد الناصر بالاحتياط من نزلات البرد .. والانتقال بحذر بين مكان دافىء ، ومكان بارد .

والامتناع عن الشاى والقهوة .

وقد كان من رأى الأطباء أنه يحتاج إلى إجازة ٦ أسابيع على الأقل .. بلا عمل .. وبلا حركة .. يتمدد فيها فوق السرير .. ويرتاح .

واقترحوا عليه ، بعد انقضاء هذه الإجازة أن يعمل نصف مجهود فقط .. وأن يكف عن الاجتماعات المسائية .. وأن يخفض برنامج الاستقبالات .. وألا يذهب إلى الجبهة إلا عند الضرورة القصوى ..

ونزعوا الملح من طعامه .. ورفعوا الزبد والأنواع الدسمة من الجبن .. وحرموا عليه الفول المدمس .. والأرز إلا المسلوق .. واللحم فى أغلب الأحيان .

وحذروه من الاقتراب من مصادر التوتر والقلق ..

ولم يستجب عبد الناصر لمعظم هذه النصائح .. وفى أول اجتماع حضره بعد أن ترك الفراش .. اجتماع مجلس الوزراء فى ١٢ نوفمبر ١٩٦٩ ، وجد نفسه يتحدث عن كل شىء تقريبا .. ضغوط الولايات المتحدة على مصر لقبول حل سلمى .. حرب الاستنزاف وما جرى فيها .. عقود التسليح مع الاتحاد السوفييتى وإلى أين وصلت .. الاتصالات مع الدول العربية والعقبات التى تعترضها .. وكان كل موضوع من هذه الموضوعات يكفى لإرهاق القلب .

وقد حدث ذلك ــ فيما بعد ــ فعلا !

□ □

خلال الإجازة الإجبارية ألف عبد الناصر لجنة لتسيير شؤون العمل الداخلى .. وكانت اللجنة تتكون من أنور السادات ، وسامى شرف ، وأمين هويدى ، وشعراوى جمعة ، ومحمد فوزى ، ومحمد حسنين هيكل .

وحسب رواية هيكل : فإنهم ذهبوا إلى عبد الناصر فى بيته ، وكان جالسا فى غرفة النوم على كنبة يأكل لبن زبادى ، وقد شرح لهم مهمتهم خلال فترة الإجازة .. وإلى أن يعود إلى العمل ، ويصبح قادرا على مزاولته .

ولم تمر سوى عدة أيام ، حتى استدعى السادات السفير السوفييتى ، وكشف له ــ لأول مرة ــ عن الأزمة القلبية التى فاجأت عبد الناصر ، وسلمه رسالة إلى

بريجنيف ، طالب فيها بإيفاد د . يفجينى تشازوف إلى القاهرة .

وفى مذكراته يروى تشازوف ما حدث ..

يقول :

« فى خريف سنة ١٩٦٩ ، طُلب منى أن أسافر إلى مصر فورا . ومراعاة لتعقيدات الأوضاع فى الشرق الأوسط فقد عبر مساعدو الرئيس عبد الناصر عن رغبتهم فى أن يتم سفرى فى جو من السرية . وبعد فترة طويلة من ذلك علمت أنه قد جرت مناقشات فى القاهرة حول الدولة التى يجب استدعاء أخصائىٌ منها لمعالجة الرئيس المصرى ، الذى شخص أطباؤه المعالجون أن عنده انسداداً فى الأوعية الإكليلية والتهاباً فى عضلة القلب .

من المطار أخذونى مباشرة إلى المدينة العسكرية ، فى إحدى ضواحى القاهرة ، حيث كان جمال عبد الناصر يسكن فى بيت من طابقين ، ومتواضع بالنسبة لرئيس دولة .

فيما بعد لم أستطع منع نفسى من المقارنة ، عندما استدعيت ذات مرة لمعالجة الرئيس أنور السادات .. ذهلت تماما ، لا للسرعة التى استبدل بها السادات ببدلته العسكرية التى كان يرتديها أثناء حياة عبد الناصر ، ببدلة عسكرية أخرى فخمة ، ولا لقصره الجديد ، الثرى ، ولكن أيضا بسبب ما لاحظته عليه من سلوك جديد ، متميز بالتعالى ، والاحتقار تجاه المحيطين به .

ولهذا ، فعندما أقارن بين السادات وعبد الناصر بشخصيته القوية والمتواضعة والجذابة فى الوقت نفسه ، فإننى أزداد احتراما لجمال عبد الناصر .

وفى ذلك الوقت ، فى نهاية سبتمبر ١٩٦٩ ، وبعد ما أجريت فحصا لعبد الناصر ، ودرست رسومات قلبه ، تأكد لدى أن تفاقم تصلب الشرايين ، أدى إلى تغييرات فى الأوعية الإكليلية وتطور انسداد الأوعية فى الجدران الفاصلة ـــ الأمامية والجنبية ـــ من البطين الأيسر .. ومما زاد فى تعقيد الأمر وجود عدم كفاية القلب ، أو هبوط ضغط الشرايين .

وأذكر أن عبد الناصر ، تطلع إلينا ، أنا وطبيبين مصريين ، ثم قال بهدوء :

ـــ إننى أعرف بأن الكذب ليس من طبعك وخصوصا الكذب على المريض ، وحتى إذا كذبت لاعتبارات الواجب بصفتك طبيبا ، فإن عينيك تفضحانك .. لذلك قل لى بصدق ما هو مرضى .. وما هى درجة الخطورة ، ومتى سأستطيع العمل ثانية .. ولا تنس أننى فى هذا الوقت ، وبصفتى رئيسا منحه الشعب ثقته لا أستطيع أن أبقى مريضا مدة طويلة .

وكان من المستحيل أن أكذب عليه ونظره مسلط على .

كاشفناه بكل شىء بما فى ذلك المدة المثلى المطلوبة للعلاج .

وقلنا له بأنه ينبغى عليه الامتناع عن العمل طوال شهرين إلى ثلاثة أشهر على الأقل .

ابتسم عبد الناصر ..

وقال :

ـــ ولكن يجب أن تسامحونى بصفتى رئيسا للجمهورية .. إننى مستعد لتنفيذ كل وصاياكم فيما يتعلق بالعلاج ، إلا أننى يجب أن أعود إلى العمل بعد ٣ أسابيع كحد أقصى !

هذا التعطش للعمل الذى تصاحبه الحيوية كان يثير الدهشة ، ويحمل المرء على الرضوخ له .. ومن حسن الحظ أن العلاج جرى بصورة مرضية ، فقد اختفت حالة انقباض القلب وهو ما كنا نخشاه كثيرا فى حالات انسداد الشرايين ، كما لاحظنا تحسن رسم القلب .

بعد خمسة أيام دخلت على عبد الناصر كالمعتاد ، ففوجئت بوجود على صبرى وأنور السادات عنده .. وأخبرنى عبد الناصر بأنه دعاهما هذه الليلة متعمدا .

ثم .. قال لى :

ـــ أرجو .. أن تشرح لهم يابروفيسور بأن المسألة ليست فظيعة ، وبأن الطب قادر اليوم على معالجة من هو فى مثل حالتى ، وبأننى سأستطيع العمل قريبا .

وقد اضطررت مجددا إلى تكرار توصياتى بشأن مدة العلاج ، وأسلوب عمله مستقبلا وضرورة الإشراف الطبى الدائم .

ابتسم عبد الناصر مرة أخرى ، وقال :

ـــ إذا كان هناك سبب يجعلنى أحب الأطباء السوفييت فهو إصرارهم على تنفيذ برنامج العلاج والالتزام بالتوصيات .. وياليت بعض السياسيين يمتلكون مثل هذا الإصرار على تنفيذ سياساتهم !

ولا أعلم من كان المقصود بتلك الملاحظة !

كانت حالة عبد الناصر تتحسن يوميا .. ولذلك شعرت بالارتياح وأنا أغادر القاهرة عائدا إلى موسكو »[٤] .

□ □

لم يذكر د . تشازوف ، ما قاله هيكل ، عمّا دار بينه وبين عبد الناصر .

قال هيكل[٥] :

ـــ إن عبد الناصر قال لتشازوف إنه كان مقررا أن يسافر إلى نسخالطوبو « لاستكمال العلاج لآلام الشرايين ، ورد عليه تشازوف : إن القلب لا يتحمل العلاج بالمياه المعدنية إلا بعد مرور خمس سنوات على الأقل .. وعرف عبد الناصر عندئذ أن عليه أن يتحمل القلب وآلام التهاب الشرايين فى الوقت نفسه .

ثم ، تطلع عبد الناصر إلى الدكتور تشازوف ، وقال له :

أما حكاية القلق (كان تشازوف قد اقترح عليه أن يوقف القلق) فإننى أود أن أوضح لك أن القلق ينام معى فى سريرى كل ليلة ، بمجرد أن أضع رأسى على المخدة أبدأ التفكير فى المشاكل .. فى الحاضر والمستقبل » .

□ □

لم يلتزم عبد الناصر بتعليمات الأطباء طويلا ..

كان صعبا على شخص مثله ، أن يقبل بوحدة الفراش القاتلة ، وأن يسلى نفسه بتأمل سقف الحجرة .

---

(٤) د . تشازوف ـــ مرجع سابق .

(٥) مجلة الوادى ـــ سبتمبر ١٩٨٢ ـــ ص ١١ .

وتصور أن الحديث التليفونى ليس عملا ، فراح يجرى مكالمات طويلة المدة ، تجاوز بعضها الساعة .. وخلال ذلك ، كان يناقش المسائل الكبرى .

ثم ... حول غرفة نومه إلى مكان أشبه بصالون .. وكان ضيوفه أصحاب المناصب الحساسة فى الدولة .

وهكذا ... وجد نفسه فى دوامة العمل .

وبدأ الزمام يفلت ..

ولم يعد لنصائح الأطباء صدى .

بما فى ذلك ، نصائح د . تشازوف التى أرسلها له من موسكو ، والتى طالبه فيها بالعودة — فورا — إلى الراحة .. وكان د . تشازوف يتابع يوميا حالته .. بناء على تقارير قدمتها له القيادة السوفييتية .. التى أصبحت عيون رجالها مفتوحة أكثر فى القاهرة .

وقد شكر عبد الناصر الطبيب السوفييتى على اهتمامه .. لكنه لم يهتم بنصائحه .

وفى يوم ٢٨ ديسمبر ١٩٦٩ .. وصل عبد الناصر إلى بنغازى .. فى طريقه إلى القاهرة .. قادما من الرباط .. بعد حضور مؤتمر القمة العربى .

استقبلته الجماهير بجنون .. فاستغرق الطريق من المطار إلى قصر الضيافة ٤ ساعات ، كان خلالها يقف على قدميه فى سيارة جيب .

وصورت وكالات الأنباء المشهد .. وتأمل بريجنيف الصور .. وأُصيب بالفزع ، خوفا على عبد الناصر من هذا المجهود القاتل .. وفى اليوم نفسه أرسل إليه رسالة — وهو لا يزال فى ليبيا — كرر فيها تحذير د . تشازوف .. وأكد أنه « لا يستطيع تحمل مسئولية هذا الإجهاد » .

ويقول د . منصور فايز :

— إن الجماهير فى ليبيا سحبت عبد الناصر بعيدا عنا .. فلم نستطع الوصول إليه .. وكنا نتوقع أن يحدث له بعض المضاعفات .. لكن .. ربنا ستر .. وعندما وصلنا إلى قصر الضيافة ، فوجئنا به يسأل علينا ، كما لو كان هو الطبيب ، ونحن الذين نتألم !

□ □

كان من الطبيعي ــ بعد ذلك ــ أن تتدهور حالة القلب وتزداد سوءاً ..
وفى شهر مايو ١٩٧٠ ، أُصيب الشريان التاجى بقصور ..
فاضطر جمال عبد الناصر إلى العودة إلى الفراش ــ من جديد ــ لمدة أسبوعين ..
ليبقى فيه بلا حركة بدنية غير معتادة فى مثل هذه الظروف .
ويقول د . الصاوى حبيب :
ــ لقد توصلنا إلى اتفاق يقضى بأن يعمل الرئيس خمس ساعات فى اليوم ، وخمسة أيام فى الأسبوع ، وثلاثة أسابيع فى الشهر ، وأن يأخذ كل ثلاثة شهور إجازة[٦] .
وهز عبد الناصر رأسه ..
ولم يفهم الأطباء ماذا يقصد بالضبط ؟! .
ودون مقدمات ، قرر عبد الناصر ، السفر إلى موسكو ، فى الأسبوع الأول من شهر يوليو ــ ١٩٧٠ ..
وسأله د . الصاوى حبيب :
ــ سيادة الرئيس ، هل خير سفرك إلى موسكو صحيح ؟
ــ نعم ..
ــ هذا مستحيل .. فدرجة الحرارة تحت الصفر فى موسكو !
ــ لسنا ذاهبين للتزحلق على الجليد .. ولكن .. للعمل ، والقاعات مدفأة .
ــ لكن .. سيادتك تحتاج إجازة هنا .
ــ يادكتور .. من يعطينى إجازة ؟ .
ــ الطب ياسيادة الرئيس .. الطب !
ــ الطب لا يستطيع أن يقف أمام الموت .. هناك ناس يموتون كل يوم .. بينهم أطفال .. ليس هناك طب يعطينى إجازة فى ظل هذه الظروف .

---

(٦) صباح الخير ــ ٦/ ١١ / ١٩٨٦

وحاول د . منصور فايز أن يتدخل ..

لكن .. عبد الناصر كان قد وصل إلى الذروة .. فقال :

ــ إن معنى ذلك أن أترك المسئولية .. وأمشى .. وأنا لا أستطيع أن أفعل ذلك !

« وحزم د . منصور فايز حقائبه ليضع نفسه فى طائرة الرئيس »[٧] .

□ □

فى مذكراته يقول د . تشازوف :

« التقيت بالرئيس عبد الناصر ، مرة أخرى فى يوليو ١٩٧٠ ، أى قبل شهرين من وفاته .

كان قد تغير خلال عام إلى درجة ، كدت عندها لا أعرفه .

كان يعانى من حالة شديدة من التهاب الشرايين ، تصاحبها تغييرات حادة فى عضلة القلب ، مع عدم وجود كفاية فى الدورة الدموية .

واضطررنا ــ أنا والبروفيسور دوكوفسكى ــ أن نقول له بصراحة بإن حالته خطيرة جدا ، وعليه أن يخضع لعلاج مكثف فى المستشفى لمدة شهر على الأقل .

ولكنه وافق بعد الإلحاح على البقاء أسبوعين فقط فى المستشفى .

وعلى الرغم من قصر مدة العلاج إلا أنه أمكن مع ذلك إزالة حالة عدم كفاية القلب ، وتنظيم ضرباته ونبضاته .. كما اختفت حالة ضيق التنفس ، وآلام الصدر .. وشعر عبد الناصر ببعض الارتياح .

ويمكن تصور ماذا كان سيحدث لو أنه التزم بالعلاج كما حددناه له .

أثناء توديعه لنا ، داعبنا عبد الناصر ، قائلا :

ــ أعرف ما ستقولونه لى .. عمل أقل .. وراحة أكثر .. لا قلق .. لا تجهد نفسك .. أنت يادكتور تشازوف على حق ، ولعلنى كنت سأصبح أحسن حالا لو أنى التزمت بنصائحكم ، ولكننى منتخب من قبل شعبى ، ولذلك ليس بإمكانى أن أعيش وأعمل بطريقة أخرى !

---

(٧) عبد الناصر ولغز الموت ــ فاروق فهمى ــ ص ١٣٠ ــ ١٣٢ .

انتابنا إحساس ثقيل ...

وأدركنا بأنه لن يغير لا أسلوب حياته ولا عمله ..

وهكذا ... كان ..

فما إن عاد عبد الناصر إلى وطنه حتى بدأ يجهد نفسه فى العمل إلى أقصى درجة يتحملها الإنسان » .

□ □

بعد عودته إلى القاهرة أعلن عبد الناصر قبوله مبادرة « روجرز » .

كان ذلك فى يوم ٢٣ يوليو ١٩٧٠ .. أمام المؤتمر القومى للاتحاد الاشتراكى .. وكان من الصعب على أعضاء المؤتمر قبول المبادرة ، بعد أن كان عليهم ، ولمدة ٣ سنوات ، دق طبول الحرب فى أربع أنحاء البلاد .. ومن ثم .. كانت المناقشات بينهم وبين عبد الناصر ساخنة .. وكان من غير اليسير عليه أن يفسر لماذا قبل وقف إطلاق النار ، وإنهاء حرب الاستنزاف .. وكانت هذه المناقشات كفيلة بأن تقضى على التحسن الذى أحس به فى قلبه بعد رحلة العلاج فى موسكو .

وفى مساء اليوم نفسه كان عليه أن يواجه ــ فى إحدى قاعات المؤتمر ــ أكثر من ١٥٠٠ شاب وفتاة من قيادات منظمة الشباب .

وكانت المواجهة قاسية !

وصلت إلى حد أن قالت إحدى الفتيات :

« لقد عشنا فى خدعة استرداد شرف الأرض بأنفسنا ، ثم إذا بنا نفاجأ بمستر روجرز يقوم بذلك نيابة عنا » !

وسرت ضجة فى القاعة ، لكن عبد الناصر ، طلب منها أن تكمل .

ليس مهما الآن ما قيل .. لكن الأهم أن عبد الناصر كان فى أسوأ حالاته .. يتوقف عن الكلام ــ لمدة ثوان ــ فى منتصفه .. يبتسم .. فتموت الابتسامة قبل أن تنضج .. يمد يده إلى كوب الماء كل ثلاث دقائق تقريبا .. يضغط بكوعيه على المنصة .. لا يرد على الهتافات القليلة برفع يده ، كما كان يحدث .. لم يصافح أحدا فى دخوله ، ولا عند انصرافه ، كما كان يحدث أيضا .

وتصور كل من فى القاعة أن الموقف السياسى الذى وضع نفسه فيه أصعب من أن يحتمله .. ولم يتخيل أحد أن آلامه كانت هى التى لا تحتمل .

وفيما بعد ...

قال عبد المجيد فريد .. إنه فى ذلك اليوم كان قلقا ، عبوسا ، « يسأل كثيرا عن ردود الفعل المتوقعة لإعلان المبادرة » .. و « يراجع كلماته أثناء الالقاء متوخيا الدقة فى اختيار عباراته وألفاظه بشكل لم ألحظه من قبل فى خطاباته الجماهيرية السابقة » .

وزاد الطين بلة .. أن الفلسطينيين تظاهروا ضده .. واتهموه بالخروج عن الإجماع العربى .. وانطلق الهجوم من إذاعتهم فى القاهرة ، فأوقف عبد الناصر الإذاعة .. وأمر بترحيل أفراد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، التى كانت أكثر المنظمات الفلسطينية تجاوزاً فى الهجوم عليه .

وقرر عبد الناصر أن ينجو بنفسه من كل هذا القلق ، فاختار السفر إلى شاطىء مرسى مطروح .. لقضاء إجازة هناك .

لكن ...

ذلك كان أشبه بعشم إبليس فى الجنة !

فقد بدأت مذابح أيلول الأسود فى الأردن !

□ □ □

□ ٨ □

بداية العد التنازلى !

بعد مبادرة روجرز ، وقع حادث بسيط ، كانت دلالاته تحمل الكثير ...

اتصل الرئيس الأمريكى ، ريتشارد نيكسون بجمال عبد الناصر ، تليفونيا ، ليطمئن على صحته .. ومن الحوار .. فهم جمال عبد الناصر ، أن ريتشارد نيكسون يعرف عن متاعبه الصحية ، ما لم يتصور أن يعرفه .. وقبل أن ينهى الرئيس الأمريكى المكالمة ، عرض عليه أن يفحصه أحد كبار أخصائيى القلب فى الولايات المتحدة .. فلم يُمانع .

أدرك عبد الناصر أن ما كان يخشاه قد حدث .. وعرف العالم أسرار قلبه .. وقطر شرايينه .. ومعدل السكر فى دمه .. ودرجة التهاب الأعصاب فى ساقيه .. وكمية الآلام فى كعبيه .. لم يعد مرضه مسألة غامضة كما كان يتصور .. وكما كان يحرص .

فمن الذى سرب صورا من رسومات القلب ، وتحاليل الدم ، وتقارير الأطباء إلى الولايات المتحدة الأمريكية .. بالتحديد .. إلى المخابرات المركزية ؟! .

لا أحد يعرف ...

والمحاولة لن تجدى !

وقد جاء أخصائىُ القلب الأمريكى فى صيف ١٩٧٠ .. ما بين شهرى يوليو وأغسطس .. وكان معه بعض مساعديه ، لا شك فى أن أحدهم كان على علاقة بوكالة المخابرات المركزية .

ويعترف عبد المجيد فريد ـــ أمين عام رئاسة الجمهورية ـــ بهذه الواقعة ، ويضيف : أن أخصائىَّ القلب الأمريكى قام بفحص عبد الناصر فى الإسكندرية ،

وأجرى رسم قلب له ، وقام بتحاليل أخرى .. متنوعة .

وقد قبل عبد الناصر ذلك من باب « المجاملة » للرئيس نيكسون !

ويقول عبد المجيد فريد :

« إن التقرير الشامل الذى أعده الأخصائى الأمريكى عن حالة عبد الناصر الصحية ، من المؤكد أنه خضع لتحليل ، وتدقيق ، وتفحيص ، من قبل أجهزة أخرى يهمها الوقوف على حالة عبد الناصر ، وظروفه العملية ، والصحية .. ومن السهل والحال هكذا ، أن يتوصلوا إلى إدراك أن هذه الحالة لو تعرضت لمؤثرات كذا .. وكذا .. فإن النتائج تكون كذا .. وكذا .. وهنا يمكن أن تكمن شبهة التآمر على حياة عبد الناصر »[1] .

أى القتل برد الفعل ..

أو الاغتيال عن بعد .. بالريموت كنترول !

ولو كان ذلك صحيحا ... فإن الأحداث التى كان رد فعلها إجهاداً وتوتراً .. وقلقاً ، ثم موتاً ..كانت أحداث أيلول (سبتمبر) الأسود فى الأردن !

□ □

حسب ما جاء فى مذكرات وزير الحربية الأسبق ، الفريق أول محمد فوزى (جـ ـــ ٢ ـــ ص ١٠٧) فإن « الولايات المتحدة الأمريكية ، كانت ترى أن وجود المقاومة الفلسطينية على الضفة الشرقية لنهر الأردن » .. « هو تهديد مباشر لأمن إسرائيل » .

وكانت « ترى أن أسلوب الضغط على الملك حسين لتصفية المقاومة شرط مسبق لفتح أى حوار معه » .. وحذرته من أن نجاح الثورة الفلسطينية « سوف يؤدى إلى انهيار حكمه » .

وشُكلت فى الأردن يوم ١٥ سبتمبر ١٩٧٠ حكومة عسكرية « لمواجهة الموقف بحزم » .. « وبدأت الأمور الداخلية تتصاعد إلى حرب أهلية » .

---

(١) الدستور ـــ ٢٣ / ٩ / ١٩٨٥

وكانت واشنطن تعلم أن الجيش الأردنى « قادر وحده على ضرب المقاومة » .. «لكن إذا تدخلت قوى عربية أخرى مع المقاومة فستقع الكارثة على الملك حسين وجيشه » .. فأعلنت حالة الطوارىء فى الأسطول السادس (١٠٠ طلعة جوية فى اليوم) .. واتفقت إسرائيل مع البيت الأبيض على التدخل برا وجوا إذا ما لزم الأمر .. وحرك حلف الأطلنطى إلى تركيا لواء نقل جوى طراز س ــ ١٣٠ بحماية سرب فانتوم .. ورفعت القوات الأمريكية درجة الاستعداد فى قواعدها ، بألمانيا الغربية .

وأحس جمال عبد الناصر بأن هناك خسائر لا محال ..

فسعى إلى تقليصها إلى أقل قدر ممكن !

□ □

كان جمال عبد الناصر فى مرسى مطروح عندما بلغته الأنباء السيئة .

كان قد بدأ إجازة قصيرة .. لكنها .. كانت كافية لراحته .. ومن ثم كان الانتقال المفاجىء ، والحاد ، من الاسترخاء إلى التوتر ، فى غير صالحه .

إن الإسراف فى العمل .. والحماس الزائد .. مع التوتر العصبى المستمر كلها أشياء غير مرغوبة ، لأنها تمثل أقصر الطرق إلى حدوث الذبحة الصدرية .. خاصة لمن فى حالة مثل حالة جمال عبد الناصر ..

« وتكون هذه الظاهرة أوضح ما يمكن إذا كان الإقبال الزائد على العمل بعد إجازة .. مريحة .. بعيدة »[٢] .

ولذلك فإن أطباء القلب ، ينصحون مرضاهم بتجزئة الإجازة .. وبالعودة إلى العمل .. تدريجيا .

انتزع عبد الناصر « **من الدار إلى النار** » .. فتمنى الأطباء لو أنه لم يكن قد قام بهذه الإجازة..

فقد جاء الرئيس معمر القذافى وبحث معه الموقف فى الأردن .

وجاء الفريق أول محمد فوزى وأطلعه على خرائط العمليات والتشكيلات .

---

(٢) أمراض القلب ــ مرجع سابق ــ ص ١١١ .

وجاءت البرقيات المحزنة من السفير المصرى لدى عمان .. بمعدل برقية كل ساعتين .

وأحس عبد الناصر بأن المشاكل التى هرب منها .. تطارده .. وأن كل ما تتميز به مرسى مطروح لا معنى له .. المياه الصافية .. الأفق الممتد .. الطقس الجاف .. الطبيعة الساحرة .. والهدوء الذى يتفجر صمتا .. وكان أن قرر العودة إلى القاهرة فى يوم ١٨ سبتمبر ١٩٧٠ .

وفى القاهرة أُتيح له الاطلاع على المزيد من البرقيات .. ويصف أحد المقربين منه حالته فى دلك الوقت .. بأنه كان من السهل أن يلمح المرء « عضلة » الفك ، وهى ترتعش وأسنانه وهى تصطك ، وملامح وجهه تتقلص ، وتتجهم .

وفى تلك الفترة .. فقد عبد الناصر شهيته .. واعتمد على أقراص الدواء .. وكانت تتكون من :

□ أقراص فيتامينات وحديد .. بديلا عن الطعام .

□ أقراص مقويات .. حتى يصلب عوده .

□ أقراص مهدئة .. لتساعده على الاسترخاء والنوم .

□ أقراص الجلوكوزكورامين (المركبة من الجلوكوز والكورامين) ... لتجنب الإغماء أو الهبوط ، بسبب نقص السكر .

وابتداء من يوم ١٩ سبتمبر ، ولمدة سبعة أيام متصلة ، لم يكن ينام فى اليوم أكثر من ساعتين .. مع أن أمنيته ، كانت النوم العميق .

ولأنه لا ينام .. فإنه لم يجد أمامه سوى العمل .. أى عدم الراحة .. ولأن العمل كان متابعة المذابح فى الأردن ومحاولة إيقاف نزيف الدم الفلسطينى هناك .. فإن التوتر كان يلازمه .. والقلق كان كظله .. والجسم كان يقذف بكميات أكبر من هرمونات الأدرنالين ، والنورادرينالين فى الدم .. ومن ثم جُن جنون السكر .. وفقد ما تبقى من انضباطه .. وراحت الأحماض الدهنية تتسكع على جدران الشرايين .. وبدأت تتجمع هناك .

ولم ينتبه عبد الناصر إلى هذه المؤامرة التى تجرى داخل جسمه .. فقد كان

مشغولا بمؤامرة أخرى فى الأردن .. كانت شرايينه تتجلط .. بينما كانت شرايين الفلسطينيين تمزق .. وكان هذا يعنى أن كل شىء يسير فى الاتجاه العكسى للحياة .

وقد ضاعف من الأزمة ، إحساسه العميق بالذنب ..

فلولا « هزيمة ٦٧ لما حدث ما جرى بعمان والأردن ، ولولا تلك الهزيمة لما قتل الآلاف من الأبرياء والأطفال » .

هكذا ... اعترف إلى عبد المجيد فريد .. الذى نشر ذلك فيما بعد .

أى أن عمر هذا الذنب من عمر الهزيمة !

ومثل هذا الإحساس لا بد وأن يدك الضمير ويسحقه !

وهذا ... ما كان .

□ □

بناء على نداء من جمال عبد الناصر ، تدفق الحكام العرب ، إلى القاهرة ، ابتداء من بعد ظهر يوم الإثنين ٢١ سبتمبر ١٩٧٠ .

جاء معمر القذافى ، ثم نور الدين الاتاسى (سوريا) ، ثم الباهى الادغم (رئيس وزراء تونس) ثم الرئيس السودانى جعفر نميرى .

وعلى الفور اجتمع بهم جمال عبد الناصر فى قصر القبة .. وامتد الاجتماع إلى ما بعد منتصف الليل .

فى صباح اليوم التالى ، وصل الأمير صباح السالم الصباح (الكويت) والرئيس شارل الحلو (لبنان) والرئيس سالم ربيع ، والقاضى عبد الرحمن الاريانى (عن شطرى اليمن) .. وفى ذلك اليوم امتدت المناقشات حتى فجر اليوم التالى .

نُقل الاجتماع إلى القاعة الكبرى فى فندق الهيلتون ، وانضم إليه الملك فيصل ابن عبد العزيز .. واستمر الحوار حتى الساعة الثانية صباحا .

فى الوقت نفسه ، كان مجموعة من أطباء المخابرات المركزية ، يفحصون كميات هائلة من الصور الصحفية ، والسينمائية التقطت حديثا لجمال عبد الناصر بواسطة وكالات الأنباء ، ومحطات التليفزيون .

وكان على رأس هؤلاء ، خبير فى هذا النوع من المهام ، هو « بريان ودج » ،

الذى سبق أن قدم للرئيس جون كيندى ، تقريرا عن حالة خروشوف الصحية والنفسية .

وقام هؤلاء الأطباء بمتابعة طريقته فى المشى .. ونظرات عينيه .. وكيفية تحريك يديه .. وأضافوا إلى ملاحظاتهم الكثير من المعلومات التى كانت تضمها ملفات وُضعت أمامهم .

وأخيرا ... انتهوا إلى أنه :

□ لم يعد قادرا على السير مسافات تزيد على أمتار .

□ لم يعد قادرا على الجلوس فى مكانه فى وضع مستقر أكثر من ١٠ دقائق .

□ لم يعد قادرا على البقاء فى مقعده ــ مع تغيير الوضع ــ أكثر من ساعة .

وانتهوا أيضا إلى :

ــ أن القلب قد يتعرض إلى أزمة جديدة .. لكنها .. لن تكون قاتلة .

ــ أن تصلب الشرايين يمكن أن يزحف إلى أوعية دموية أخرى فى الجسم .

ــ أن تغيير طبيعة الشرايين يمكن أن يؤثر فى قوة الخلق ، والإبداع ، والاستنتاج ، وهذا ما يفرض عليه اللجوء إلى حلول تقليدية ، ويصر عليها .. كما أنه سيكون قادرا على تذكر الأشياء القديمة أكثر من الأشياء القريبة .

ويقول عبد المجيد فريد :

إن عبد الناصر .. كان « **يطلب من الملوك والرؤساء ، إيقاف الجلسات لفترة ١٠ دقائق مرة كل ساعة كى يتوجه إلى نهاية القاعة .. ويسير هذه الدقائق فى محاولة للتغلب على آلام الساقين التى كانت تشتد إذا ما بقى فى وضع واحد لفترة تزيد عن الساعة .. وكنت ألازمه فى هذه الاستراحة القصيرة ، وأحاول أن أخفف عنه بكلمات بعيدة عن الموضوع ، ولكنه كان ساهماً ، وإذا تكلم كان يلوم نفسه ، وكأنه يعاقبها بشدة** »[٣] .

وحاولت أن « **أخفف من الأحداث أو أن أنكر مسئوليته الشخصية ، ولكن حساب النفس وصوت الضمير كانا أقسى عليه بكثير من كلماتى** »[٤] .

□ □

---

(٣) الدستور ــ المصدر السابق

(٤) عبد المجيد فريد ــ من محاضر اجتماعات عبد الناصر العربية والدولية (١٩٦٧ ــ ١٩٧٠) ــ مؤسسة الأبحاث العربية ــ بيروت ــ الطبعة الثانية ــ ص ٢٦٠

ليس صحيحا ما قاله أطباء المخابرات المركزية .. إن عبد الناصر قد فرضت عليه طبيعة المرض التمسك بالحلول التقليدية .. والإصرار عليها .

فلو أن ذلك صحيح ، لقبل اقتراح أحد الرؤساء العرب بإرسال قوات مصرية مع قوات عربية لاحتلال الأردن .

كان ذلك فى جلسة يوم الجمعة ٢٥ سبتمبر ١٩٧٠ .

وقد رفض الاقتراح بشدة ..

وقال :

« سبق لى أن أرسلت قواتنا إلى اليمن وخسرنا هناك أكثر من ١٠ آلاف شهيد ، وما زالت إسرائيل تحتل أرضنا ، ولست مستعدا أن يستشهد جندى مصرى آخر على الأرض الأردنية . ومن يريد أن يرسل قواته إلى هناك فليتفضل » .

أى أنه يرفض أن يكرر أخطاءه .

وهذه مرونة واستفادة من التجربة ، لا عناداً ، وإصراراً على الحلول التقليدية .

أيضا ... كان عبد الناصر على رأس فريق الحكام العرب الذين استجابوا لعرض الملك حسين بأن يحضر إلى القاهرة ، لتوضيح موقفه ..بل .. إنه كان أول من اقترح حضور ياسر عرفات المؤتمر فى حضور العاهل الأردنى .. وهو ما يؤكد أن تجاربه السابقة لا تحكمه .

وهناك دليل ثالث ...

أن عبد الناصر ، طلب من ياسر عرفات بحث مشروع الاتفاق قبل عرضه على الجلسة الختامية للمؤتمر ..

فقال ياسر عرفات منفعلا :

ــ لا فائدة .. إننا لا نستطيع أن نأتمن هؤلاء الناس ، ونجلس نتباحث هنا ، وهم مصرون على التصفية .. لا فائدة .. ليس أمامنا سوى أن نهد الدنيا على رؤوسهم ورؤوسنا .. وليكن ما يكون .

وكان رد عبد الناصر :

ـــ ياسر .. لا يجب لأى شيء الآن أن نفقد أعصابنا !

ثم .. أضاف :

« إننى حرقت دمى خلال الأيام الأخيرة كى أحافظ عليكم . وكان أسهل الأشياء بالنسبة لى أن أصدر بيانا إنشائيا قويا ، أُعلن فيه تأييدى لكم ، ثم أعطيكم محطة إذاعة تقولون منها ما تشاءون ضد الملك .. ثم أريح نفسى وأجلس لأتفرج ، لكن بضميرى وبالمسئولية لم أقبل ذلك »[٥] .

إن ذلك كله يعنى أن عبد الناصر استوعب تجاربه .. واستفاد من أخطائه .. وأدرك أنه لا التدخل العسكرى يحل المشاكل .. ولا البيانات الإنشائية تمنع المذابح .. وهذه مرونة عقلية ، لا يتمتع بها من زحف تصلب الشرايين على أوعية وشعيرات مخه الدموية .

إن تصلب الشرايين فى المخ نتيجة من نتائج مضاعفات السكر .. وهذا يؤثر على التفكير .. ويجعل المصاب به فى حالة ضيق من الجدل .. ويجعله يصر على وجهة نظره فى حدة تصل إلى الانفعال والانفلات العصبى .. ويجعله أميل إلى تكرار تجاربه والأخذ بها مهما تكن .. ويكون ذلك بسبب نقص ما يُسمى بالقدرات العقلية « **العالية** » .. التى تتمثل فى الابتكار والإبداع والتوصل إلى حلول جديدة تتلافى مساوىء التجارب القديمة .

ويعانى كبار السن عادة من هذه الحالة ... فنجدهم يعيدون الرواية الواحدة أكثر من مرة .. وبدرجة الحماسة نفسها .. وكأنهم يروونها لأول مرة .. أى أنهم يتذكرون الروايات والأحداث البعيدة ، ولا يتذكرون الأحداث القريبة ، فنجد أنهم كرروا على مسامعنا الرواية نفسها .

وكل الدلائل تشير إلى أن تصلب الشرايين لم يصل ـــ عند عبد الناصر ـــ إلى المخ .. وإن كان ـــ كما عرفنا ـــ قد وصل إلى القلب .

والوصول إلى المخ يعنى حياة أطول بقدرات عقلية أقل .

---

(٥) عبد الناصر ولعبة الموت ـــ نقلا عن محمد حسنين هيكل ـــ ص ١٩٥ .

والوصول إلى القلب يعنى حياة أقصر بقدرات عقلية لا تقل .

ولا مانع طبيا من أن يصاب عبد الناصر بتصلب شرايين المخ ، لو امتد به العمر .. وفى هذه الحالة يكون من السهل إصابته بالجلطة التى تؤدى إلى شلل فى أى جهاز أو عضو يعمل بقرار من المخ ... ومع ما حدث للقلب .. ستكون الكارثة مضاعفة .. والصورة مؤلمة .. لا يمكن سترها إلا بالاعتزال ... فهل كان الموت — فى ذلك الوقت — نعمة من السماء ؟! .

هل أنقذه الموت المبكر من حياة لا تناسب طبيعته ؟! .

أغلب الظن أن الإجابة .. هى نعم !

□ □

إن العمر الطويل ليس ميزة إلا بشرط الصحة .

فقد ذاق سير ونستون تشرشل مرارة الهزيمة العسكرية فى سنة ١٩١٧ .. ولو مات وقتها لبقى فى التاريخ مهزوما .. لكنه تولى السلطة فى بريطانيا ، وعمره ٦٦ سنة ، ونجح فى أن يخرج من الحرب العالمية الثانية منتصرا .. وشطب صفحة الهزيمة السوداء .. وعندما بدأ المرض يطرق أبواب جسده الممتلىء ، ترك الحكم لأنتونى أيدن .. وفى سنة ١٩٦٥ — وعمره ٨١ سنة — مات وهو مطمئن على سيرته .

وقد امتد العمر بطاغية البرتغال أنطونيو سالازار إلى ما بعد الثمانين أيضا .. لكنه لم يكن فى فطنة وحكمة ونستون تشرشل .. فبقى فى الحكم حتى أصبح جثة هامدة .. وقبل موته بحوالى ٣ سنوات كان يعانى من تجلط الشرايين التى تغذى المخ .. مما أدى إلى شلل نصفه الأيمن .. وأصبح شبه ميت .. لا حول له ولا قوة .. وكان غيره يحكم نيابة عنه .. وباستخدام الخدع السينمائية ، كان يظهر على شاشة التليفزيون لمدة ثوان .. ليقولوا للشعب إنه لا يزال قادرا .. كان الميت الحى .. الموجود الغائب .. الديكتاتور المريض .. وفى ٢٧ يوليو ١٩٧٠ ، انتهى كل شىء وعرف العالم الحقيقة .

وامتد الحكم بطاغية إسبانيا فرانسيسكو فرانكو إلى سن ٨٣ سنة .. لكنه ظل ١٠ سنوات قبل وفاته ، يتحرك وعلى صدره ، تحت ملابسه ، جهاز إرسال ، يبث

ضربات القلب إلى محطة تليفزيونية كاملة ، يجلس أمام شاشاتها فريق من الأطباء يتابعون حالة القلب .. ويتدخلون فى الوقت المناسب .. ثم امتدت الأسلاك من الصدر إلى الرأس .. ومن الرأس إلى الذراعين .. ثم غطت الجسم كله .. فأصبح الحاكم الآلى .. وهذا أيضا له نهاية[٦] .

وبعد وفاة جون كينيدى بحوالى ١٠ سنوات ، خرج بعض الأطباء ، يحمدون الله ، لأنه قتل ومات فى الوقت المناسب .. فقد كان يعيش و٣ فقرات فى العمود الفقرى مهشمة .. وكان ذلك يسبب له آلاما لا تحتمل ، ويفرض عليه استعمال عكازين فى السر .. وكان مقدرا لهذه الآلام أن تنتهى بعد عام ونصف العام تقريبا .. لأنه كان سَيُشَل .. أى أنه لو امتد به العمر لبقى على مقعد متحرك .. صورة غير مريحة ، غير الصورة الجذابة التى مات عليها .

ولو امتد العمر بجمال عبد الناصر لكان مثل ونستون تشرشل .. سياسيا وعسكريا .. ولكان مثل أنطونيو سالازار .. صحيا وطبيا .

وسبحان الله .. الذى جعل لكل أجل كتاباً .

□ □

بدأت اجتماعات القمة العربية الطارئة فى قصر القبة .. ثم .. انتقلت إلى قصر العروبة .. الأقرب إلى بيت جمال عبد الناصر .

ولأن من الصعب عليه أن يتنقل أكثر من مرة فى اليوم إلى مكان الاجتماعات .. ولأنه شعر بأنه فى سباق مع الزمن ، بسبب تصاعد الأحداث فى الأردن ... فقد استجاب جمال عبد الناصر لاقتراح بأن تكون إقامته فى مكان المؤتمر ... وهكذا .. انتقل إلى فندق الهيلتون .

وانتقل معه الأطباء ، والحرس ، والسكرتارية الخاصة ، وخادمه محمد داوود .

وعلى عكس ما كان متوقعا .. لم يسترح .. فقد كان يبدأ يومه فى السادسة صباحا .. ويظل حتى العاشرة مساء .. بلا نوم .. ولا طعام .. أى حوالى ١٦ ساعة .

---

(٦) زهيرة البلى ـــ المرجع السابق

وعندما أحس أن اتفاقا على وشك التوصل إليه ، استرخت أعصابه — فى اليوم قبل الأخير — وتسلل النوم مع التعب إليه .. ظهراً .. ففرضا عليه الاستسلام .. وراح فى سبات عميق .

كان جناحه فى الدور الثالث عشر .. يطل على النيل .. ويرى منطقة الجزيرة فى مشهد ساحر ، خاصة فى الليل .. عندما تتحول الأضواء إلى عقد من الماس ، يلف حول رقبة النيل .. لكنه .. لم يفكر فى الاستمتاع بهذا المشهد ، إلا بعد أن انفض المؤتمر مساء يوم الأحد ٢٧ سبتمبر ١٩٧٠ ، قبل وفاته بساعات !

ويقول عبد المجيد فريد :

إن عبد الناصر قبل أن يغادر جناحه ، خرج للشرفة ، وأطل على نهر النيل « وهو ينساب ليلا بين القاهرة والجزيرة ، وعلى ضفافه تتلألأ أنوار القاهرة والجيزة .. كنت واقفا بجواره فرأيت عينيه ، تبتسمان ، يملأهما الإعجاب ، والافتخار بهذا البلد الجميل .. ثم نظر لى وقال : **هذه أول مرة فى حياتى أرى فيها هذا المنظر البديع .. الواحد فى منشية البكرى (حيث يسكن) بالنسبة لهذا المكان ميت ومش عايش ! .. هل يصح ياعبد المجيد ألا أرى جمال القاهرة إلا هذه الليلة فقط ؟** » .. كان لطيفا وسعيدا . ورغم ابتساماته فى تلك اللحظات ، إلا أنى كنت أدرك تماما أنه تعرض فى الأيام السبعة الأخيرة إلى جهد عصبى ونفسى لا يتحمله بشر .. لم ينم فى تلك الليالى إلا بعد الثالثة (صباحا) وأحيانا الخامسة صباحا ليبدأ لقاءاته فى التاسعة ..أى بعد ٤ ساعات(٧) .

وفيما بعد ...

أضاف أمين عام رئاسة الجمهورية الأسبق(٨) :

— إن عبد الناصر لم يمت فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، لكنه مات ، وتوقف قلبه عن الخفقان تدريجيا خلال أيام انعقاد المؤتمر .

---

(٧) المصدر السابق — ص ٢٥٩ .

(٨) الدستور — المصدر السابق .

« وأنا أعتقد أن الأزمة القلبية ازدادت حدة خلال المؤتمر وأن الوفاة بدأت فى قاعة المؤتمر قبل نهايته بـ ٤٨ ساعة وليس بعد الانتهاء منه » .

□ □

لقد توصل المؤتمر إلى اتفاق يقضى بإيقاف النيران ، وانسحاب الجيش الأردنى ، وفصائل المقاومة من المدن الأردنية ... وفى الجلسة الختامية للمؤتمر (التاسعة مساء يوم الأحد ٢٧ سبتمبر) أُذيع الاتفاق .. وتقرر سفر الباهى الادغم إلى الأردن لمتابعة التنفيذ .

وبانتهاء الجلسة ، خرج جمال عبد الناصر من القاعة (الدور الثانى من الفندق) فرحا ، مسرورا « يقهقه بصوت عال فى حديث مرح مع بعض زملائه فى المؤتمر »[٩] .

وكانت المرة الأولى التى يبدو فيها على هذا النحو ، منذ المؤتمر الصحفى الذى عقده قبل الهزيمة بأيام ، وقال فيه : إنه ليس « **خرعا** » مثل « المستر إيدن » .. وكان يقصد رئيس وزراء بريطانيا إبان حرب السويس .. أنتونى إيدن[١٠] .

وصعد جمال عبد الناصر إلى جناحه ، حيث ظل ساعة كاملة مع على صبرى ، وأنور السادات ، وحسين الشافعى ، ومحمد حسنين هيكل ... الذى راجع معه خطة التحرك الإعلامى ... وبعد أن غادروه ، أدار جمال عبد الناصر جهاز الراديو ، وراح يتابع ردود فعل الاتفاق .

وجاءت إشارة من قصر القبة بأن الرئيس معمر القذافى فى طريقه إلى المطار ليعود إلى بلاده .. فأصر جمال عبد الناصر على أن يودعه بنفسه .. وطلب تأخير إقلاع طائرته .. ومن سرعة ما جرى ، قاد سائقه السيارة وهو حافى القدمين .

---

(٩) فريد ــ المرجع السابق ــ ص ٢٥٩ .

(١٠) فى مذكراته يقول أنتونى إيدن إن تأميم قناة السويس الذى أقدم عليه عبد الناصر سبب له المرض . حيث عانى من احتباس فى البول . وظهرت عليه أعراض مرض الصفراء . وقد أراد إيدن أن يطيح بعبد الناصر هرتمع أسهمه السياسية .. فكانت مؤامرة السويس التى انتهت بضياع مستقبل إيدن السياسى وانهيار صحته النفسية والجسدية ، حيث ضعفت كليتاه ، وازداد احتباس البول ، وارتفعت فيه نسبة كرات الدم الحمراء . وفى يناير ١٩٥٧ قيل إنه أُصيب بالتسمم ، وقدم استقالته ، واختفى كلية عن المسرح السياسى ــ انظر زهيرة البيلى ــ مرجع سابق ــ ص ٩ وما بعدها .

ومن المطار .. عاد فى تلك الليلة إلى بيته .. متمنيا أن يرى أبناءه قبل أن يناموا .. لكنه دخل مكتبه .. وبقى فيه حتى الفجر ، يتابع إجراءات تنفيذ الاتفاق .

« وقبل منتصف الليل بقليل مر عليه فى المكتب نجله الأكبر خالد عبد الناصر . لم يكن ذلك أمرا عاديا ، فكثيرا ما مر أنجاله أمام مكتبه ليلا دون التوقف ، مفضلين عدم إزعاجه . ولكن هذه المرة كان خالد قد اشتاق للحديث مع والده ، بعد غيابه أسبوعا فى المؤتمر ، فى الهيلتون ، فترك عبد الناصر ــ الأب الأوراق التى أمامه ، وامتنع عن متابعة الاتصالات التليفونية ليسأل خالد عن أحواله فى الجامعة ، وعن دراسته ، وعن أحوال أشقائه عبد الحميد وعبد الحكيم وأخبار هدى ومنى .

ولم يكن حديثا .

ولكن كان وداعا أخيرا دون أن يدرى به كل من الأب والابن »[11] .

□ □ □

(١١) فريد ــ ص ٢٦٠ .

□ ٩ □

المكتب .. أو القبر !

فى مسرحية « **حفل كوكتيل** » يتحدث ت . إس . إليوت عن القلق الذى يصيب الرجال ... فيشير إلى نوع من القلق المزدوج ، يتمثل فى « **الخوف من فقدان شيء ما ، والإحساس بتوقع هذا الفقد** » .. « **فالرجل الغليظ الطبع قد يعانى من خوف فقدان قدرته الجنسية ، فإذا رق طبعه قليلا ، عانى من خوف فقدان القدرة على أن يحب ، ويصبح محبوبا ، وشغل ذلك الخاطر نفسه ، فدفع به إلى تجارب ، يثبت لنفسه من خلالها ، أنه ما زال قادرا على أن يكون عاشقا ومعشوقا** »[1] .

لكن ...

هناك نوع آخر من القلق ، يصيب الحكام ...

هو .. الخوف من فقد السلطة .. والإحساس بتوقع هذا الفقد ..

لذلك ...

فإنهم يندفعون إلى تجارب ، يثبتون من خلالها أنهم ما زالوا قادرين على أن يكونوا حكاما .

إن شهوة الحكم عندهم تتجاوز شهوة الجسد .

والرغبة فى الاستمرار ، تتخطى الحرص على الحياة .

إنهم بلا مطالب غير عادية تقريبا .. لا تغريهم الثروة .. لا يثير الطعام الفاخر شهيتهم .. لا يميلون لحياة الصخب والمرح ... فكل شيء لا طعم ولا رائحة ولا لون له إذا ما قورن بمتعة السلطة .

---

(١) راجع صلاح عبد الصبور — الأعمال الكاملة — حـ ٣ — ص ٥٧ — دار العودة — بيروت .

وقد كان نصيب جمال عبد الناصر من متاع الدنيا ... قليلا .. وجهده فى العمل لا حد له .. واهتمامه بمعرفة أدق التفاصيل أيضا .

كانت تطربه أم كلثوم ... التى كانت فى عهده ، سيدة مصر الأولى .. وكان يستمع لأغانيها وهو سهران فى مكتبه الملحق بغرفة نومه .

أما ذروة متعته اليومية .. فكانت الفرجة على الأفلام السينمائية ، فى قاعة العرض ، الموجودة فى بيته .. حيث كان يشاهد فيلما على الأقل كل ليلة ، قبل أن ينام .. وأحيانا فيلمين .. وكان يفضل أفلام « الويسترن » و « الأكشن » ، التى تريح الذهن ، وتهدىء العقل ، بعد العمل والتوتر ..

ولو صدقنا مقولة شكسبير .. « الملابس تصنع الإنسان » .. لكان من السهل علينا أن نحكم على شخصية جمال عبد الناصر .

فقد ظل حوالى ٤ سنوات ، بعد قيام الثورة ، يرتدى الزى الرسمى لضباط الجيش .. ولم يفكر فى استبداله عندما لبى دعوة أنتونى إيدن على العشاء فى السفارة البريطانية بالقاهرة .. مع أن الدعوة ، فرضت الحضور بالملابس الرسمية .. والملابس الرسمية تعنى « الاسموكنج » .. الذى لم يفكر أن يرتديه حتى آخر يوم فى حياته .

وعندما خلع الملابس العسكرية ، واستبدل بها الملابس المدنية ، لم يغير الترزى ، ولا الموديل .. بل .. لم يتصور وجود مُودة فى أزياء الرجال .. وكان يتصور المودة للنساء فقط .. لذلك بقى البنطلون الفضفاض ، على حاله ، و « الجاكت » التقليدية ، أيضا .

وفى أشد حالات الجرأة ، كان يرتدى فى الصيف قميصا أبيض اللون ، بنصف كم .. على بنطلون من القطن الغامق .. وكان ذلك فى أوقات الاسترخاء .. وفى المناسبات العائلية .. وأحيانا .. كان يرتدى « الشورت » على الشاطىء .

أما هواياته .. فمعروفة .. التنس والتصوير .

وفى سفرياته لم يكن ينسى عيد زواجه ، فكان يرسل بطاقة رقيقة لزوجته ..

وكان حريصا .. مثل أى جد طيب أن يضع البنبون والشيكولاتة ، فى جيبه ، ومكتبه ، حتى لا يتعرض لإحراج أحفاده .

وعندما رحل عن الدنيا .. لم يكن يملك بيته .. وكان رصيده فى البنك ٢٤٠٠ جنيه .. بخلاف بوليصة تأمين على الحياة قيمتها ١٥٠٠ جنيه « عقدها قبل ذهابه إلى حرب فلسطين »[٢] .

أما ديونه فكانت ٢٦ ألف جنيه .. « بقيت عليه من تكاليف بناء بيتين ... بيت لكل واحدة من بناته تسكن فيه عند زواجها »[٣] .

ولم تكن له حياة اجتماعية .. اللهم إلا مناسبات العزاء والعرس التى تخص الضباط الأحرار .. هكذا اتفقوا برغم أى شيء .

وحسب رواية هيكل ، كان يقول :

« إلى أين أذهب ؟ ومع من أختلط ؟ .. إن الذين يستطيعون دعوة رئيس الجمهورية هم القادرون ... وهم يعرفون ، وأنا أعرف أن أفكارى تختلف عن أفكارهم ، فلماذا أعذبهم وأعذب نفسى ؟! »[٤] .

وقد حاول المحللون النفسيون فى الغرب ، التسلل إلى طفولته من خلال عزلته الاجتماعية ، وادعوا أن هذه العزلة متأصلة فى وجدانه منذ السنوات الأولى لحياته ، حيث كان يفضل الانطواء على نفسه ، والعزلة عن الآخرين .

وصوروه طفلا ، ثقيل الظل حزينا ، سوداوى المزاج ، عنيدا ، غير رقيق ، يعانى من عقدة « أوديب » .. حيث كره الأب ، وأحب الأم ..

لكن ...

هذه الصورة لم تكن لوجه التحليل النفسى ، الذى أصبح رياضة شعبية ، يمارسها كل من هب ودب ، بمناسبة أو بدون مناسبة .. وإنما كان وراء هذه الصورة غرض سياسى ، هو تفسير إصلاحاته الاجتماعية والاقتصادية ــ التى كانت فى خدمة السواد الأعظم ــ على أنها نوع من الحقد والانتقام كرد فعل لطفولة غير سوية .

ولا نريد أن نتورط فى مناقشة مثل هذه الأمور ، لأنها غالبا ما تكون جزءا من

---

(٢) و(٣) هيكل ــ لمصر لا لعبد الناصر ــ الطبعة الرابعة ــ ص ٢٧ .

(٤) المرجع السابق ــ ص ٢٦ .

حرب نفسية أو من تصفية حسابات قديمة لبشر فى حاجة إلى عيادة نفسية .

ويكفى أن نقول : إن المنتقم والحاقد على هذا النحو يرى أن الثروة التى فى يد الآخرين ميزة .. فيسعى إلى أن يسلبها منهم ، ليضيفها إليه .. فيملك — مع قوة السلطة — قوة المال .. ويضيف إلى الثورة ، الثروة ..

وهذا لم يحدث مع جمال عبد الناصر ، الذى كان يكره الملكية الفردية ، ويرفض أن يتميز بها عن الأغلبية الساحقة .

فالحاكم يعبر عن طبقته .. وحجم الملكية يحدد مستوى الطبقة التى ينتمى إليها .. وقد كان جمال عبد الناصر معدما .. لا يملك سوى راتبه .. لذلك .. كانت مساحة رؤيته للمصلحة العامة ، أعرض .

وقد كان يكفيه أنه يحكم دولة لها تاريخ مثل مصر .

وكان يمتعه ، ويسعده ذلك ، كثيرا .

وكان ذلك مصدر قوته ، ونقطة ضعفه فى آن واحد ... فقد أحس أن من الممكن — فى دولة مثل مصر ، عرفت الاستقرار والسلطة المركزية منذ ٤ آلاف سنة — أن ينجز الكثير فى زمن قليل .. فحاول ذلك مخلصا .. لكن .. الإصرار على السلطة ، جعل الخوف من فقدها ، وترقب هذا الفقد هاجسه الأكبر .

ومن ثم .. أوقعه هذا الهاجس فيما هو أصعب .. شر الأمن .. فكم من الجرائم يرتكبها الأمن فى حق الحاكم ، باسم الحفاظ على حياته ، وعلى سلامة الحكم .

وقد كشفت قضية « انحراف المخابرات » التى قدمها جمال عبد الناصر بنفسه إلى محكمة الثورة فى سنة ١٩٦٨ ، أن المتهم الأول صلاح نصر ، كان يحركه من مكان إلى آخر ، فى منتصف الليل ، بمكالمة هاتفية ، بدعوى الخوف على حياته ، ولم يكن الأمر يزيد عن نزعة تحكم مرضية فى نفس مدير المخابرات الأسبق ، أراد من خلالها إسعاد إحدى فتيات الليل ، وإثبات نفوذه ، وسلطانه .

وكشفت قضايا سياسية أخرى أن العبث وصل بالمشير عبد الحكيم عامر وبطانته إلى حد تدبير محاولات انقلاب وهمية (أو مسرحية) داخل الجيش ، وكشفها ، لإقناعه بأن عيونهم مفتوحة وآذانهم أيضا .. وفى هذه المحاولات ، كان يعد كل

شيء .. المنشورات .. الأسلحة .. ماكينة الرونيو .. وأبطال المؤامرة الذين كانوا ينالون أجورا تنافس أجور ممثلى السينما والمسرح الآن .

لقد نجحوا فى التسلل — كالنمل — إلى جهازه العصبى ... وحققوا الكثير .. ومن حسن حظه ، وحظنا أنه عالج ذلك قبل رحيله .. وإن كان ذلك قد حدث بعد زمن ليس بقصير ، وبعد أن دُفع الثمن غاليا ... هزيمة الوطن .. واحتلال الأرض .

وفيما عدا ذلك ... لم يكن جمال عبد الناصر يخشى شيئا ... حتى الموت !

□ □

فى تصنيف علماء النفس ، يوضع جمال عبد الناصر فى خانة الشخصية « أ » .

وفى تحليلهم .. تُوصف الشخصية « أ » بالطموح .. والعناد .. والإصرار على النجاح .. والموت فى سبيل تنقية السمعة الذاتية من أية شوائب .

وتُوصف بالميل إلى معرفة الأشياء البسيطة ، لأنها تعتبر مثل هذه الأشياء ، مفاتيح للآخرين ، وبأنها لا تحيد عن الهدف مهما يكن الثمن .

وتُوصف بأنها قادرة على تجاوز الأزمات والصدمات ، وإن كان ذلك على حساب راحتها ، وصحتها ، وربما حياتها .

ولا يضع علماء النفس كل الحكام فى هذه الخانة .. فليس شرطا أن يكون الحاكم دائما من هذا الطراز من البشر .

وفى هذه الخانة يمكن أن تجد أدباء وفنانين عظاماً .. مثل إرنست همنجواى .. وفان جوخ .. وديستوفيسكى .. وأنتونى كوين .

ومع أن البعض يموت منتحرا ، والبعض الآخر يمتد به العمر طويلا ، فإن هذه الشخصية ، يؤمن أصحابها فى قرارة أنفسهم بأن حياتهم قصيرة .. وعندما يبدأون عمل أى شيء يتصور الواحد منهم أن نهايتهما — هو والعمل — ستكون واحدة .

وقد كان جمال عبد الناصر على يقين بأن العمر لن يمتد به .. وأنه سيموت قبل أن يصل إلى مرحلة الشيخوخة .

وكان يقول :

« إن الذى يعيش نوع الحياة التى أعيشها ليس له أن ينتظر الشيخوخة وإلا كان يخرف »[٥] .

وكان محقاً .

فأسلوبه ، فى العمل والحياة كان ــ مع حالته المرضية ــ أقرب إلى الانتحار .

فهل قتل نفسه ؟

أم دفعته الهموم العربية إلى الانتحار ؟

□ □

ويجمع الأطباء على أنه كان لا يخاف المرض .. وأنه لولا الألم القاسى لما اعتقد أنه مريض !

وهناك مساحة مشتركة بين الأمراض العضوية ، والأمراض النفسية ، وفى هذه المساحة خُلق تخصص جديد من تخصصات الطب البشرى .

وحسب إحساس المريض بخطورة مرضه العضوى ، يكون تأثير ظلال المرض النفسى .

وعلى سبيل المثال ...

يؤدى داء السكر إلى شعور المريض بالخوف من تفاقم المرض .. ومن مضاعفاته التى تمتد إلى كل أجهزة الجسم .. ويزداد هذا الشعور إذا ما فُرض عليه تحليل البول كل يوم .. وترقب النتيجة .. ومعرفة المعدل الجديد للسكر .. ويؤدى ذلك إلى اكتئاب مؤقت .. سرعان ما يصبح اكتئابا شبه دائم عندما يدرك المريض أن مرض السكر بلا علاج ، وأنه قيد استمتاعه بالحياة .. فالطعام أنواعه محدودة .. والقدرة الجنسية لم تعد كما كانت .. ويصبح الاكتئاب مزمنا إذا ما وصل المرض إلى مرحلة المضاعفات .. وأحس المريض بأن الموت يزحف تدريجيا على أعضاء جسمه .. وأنه ينتهى ببطء .. خطوة ، خطوة .. أو عضوا ، عضوا .

والمذهل .. أن جمال عبد الناصر لم يعرف ذلك .. ولم يعان منه .

---

(٥) هيكل ــ المرجع السابق ــ ص ٢٧ .

ولعل السبب هو أن زهده فى متع الدنيا كان سمة بارزة من سماته الخاصة .

كما أن بعده عن الحياة الاجتماعية أعفاه من المقاومة ، ويسر عليه التحمل .

ثم ... أنه فى معظم الأحيان ، لم يكن يتخيل أن ضرورات الحياة — الطعام والثياب مثلا — أصبحت فنونا مغرية ، تتجاوز وظيفتها الأساسية ، إلى الاستهلاك والاستمتاع .

كذلك ... فإن الشخصية العامة ، الطموح ، التى تشدها المعارك المصيرية ، غالبا ما لا تلتفت إلى مثل هذه التغيرات النفسية ، التى تتمكن — أكثر — من الشخصية العادية ، التى تلف وتدور حول الذات .. وتعتبر نفسها محور الكون .

وعلى سبيل المثال ...

تؤدى الإصابة بالجلطة المصحوبة بنوبة قلبية إلى حالة من الذهول ، مع ترقب ، وخوف من تكرار ما حدث .

لذلك فإن بعض المرضى يعيشون سنوات طويلة على المهدئات ، والأقراص التى تبعث الهدوء والاطمئنان ، حتى يسترد المريض ثقته بنفسه ، ويتخلص من حالة الترقب ، وانتظار تكرار الأزمة .

ومن حسن حظ جمال عبد الناصر أن النوبة القلبية الأولى ، كانت مكتومة ، فلم يشعر بأعراضها النفسية .

وأخطر أثر نفسى على القلب أنه يشعر بأن مرضه قاتل ، وأن قلبه لم يعد قادرا على التحمل .. وعندما تتحسن حالته ، يضع نفسه فى حالة اختبار دائم ، حتى يثبت أنه عاد إلى ما كان عليه .. أو أن مرضه لا يعيقه عن مواصلة الحياة .. فيعود إلى التدخين .. ويعود إلى الطعام الدسم .. وقد يفرط فى ممارسة الجنس .. أو الشراب .. أو العمل .. حسب تقدير المريض للشىء الذى يعطيه الإحساس بالحياة .

وقد امتنع عبد الناصر عن متعة التدخين بإرادة يُحسد عليها .. لكنه .. استخدم مقياس الإفراط فى العمل ، ليثبت لنفسه أن شيئا فى الحياة لم يتغير بسبب المرض .

وكانت النتيجة أزمة قلبية أخرى ... قاتلة !

ويذكر حاتم صادق (زوج ابنته الكبرى) أن جمال عبد الناصر قال له ذات يوم :

« أتدرى أننى لا أرى الأسفلت إلا حين أذهب لرئاسة مجلس الوزراء » .

والمعنى أنه غارق فى العمل .. ولا يرى الطريق إلا وهو ذاهب إلى عمل .. و « **رؤية الأسفلت** » تعبير يستخدمه ضباط وجنود الجيش دلالة على ظهور الحياة المدنية بعد غيبة فى الصحراء .

وحسب رواية هيكل ، فإنه كان يقول :

« ليس لى مكان إلا واحد من اثنين : هنا فى مكتبى أعمل .. أو هناك راقدا فى قبر »[٦] .

أى لا مفر .. إما العمل .. أو الموت .

وكان يضيف :

« حتى السجن — لوحدث شىء — لن تطول إقامتى فيه فإنهم أذكى من أن يتركونى حيا »[٧] .

وحسب الرواية نفسها ، فإنه كان لا يحب مهنة اللاجىء السياسى ، ويعرف أنه ليس هناك بلد يقبله لاجئا سياسيا ، لأنه سيكون « مطلوبا » بشدة من الأقوياء الذين حارب نفوذهم فى العالم العربى .. ولأن « هؤلاء الأقوياء سوف يطاردوننى إلى آخر الأرض .. وإلى آخر العمر »[٨] .

بعبارة أخرى .. السلطة .. أو الانتحار .

وقد فكر فى الانتحار بعد الهزيمة ، عندما تصور أن الإسرائيليين ، يمكن أن يصلوا إلى القاهرة ويدخلوا بيته ، ويقبضوا عليه .

واعترف بذلك قائلا :

« كنت فى حالة سيئة جدا إلى درجة أننى أرسلت عائلتى خارج القاهرة ووضعت مسدساً إلى جانبى لاستخدامه فى آخر لحظة وحتى آخر طلقة »[٩] .

□ □

---

(٦) و(٧) و(٨) هيكل — المصدر السابق — ص ٣٤

(٩) عبد المجيد فريد — من محاضر اجتماعات عبد الناصر — مؤسسة الأبحاث العربية — بيروت — ص ١٥١ .

وإذا كان جمال عبد الناصر قد تجاوز الأعراض النفسية الكبرى ... فالمثير للدهشة أن الأعراض الصغرى ضايقته .

والأعراض الصغرى مثل الضيق ، والتوتر ، وسرعة الغضب ، التى تعكسها بعض مضاعفات السكر ، مثل الإسهال الليلى (يأتى نتيجة لارتباك الجهاز العصبى) وعدم التحكم فى عملية البول ، وظهور الفطريات والدمامل ، وترسب الكولسترول كبقع صفراء تحت الجلد (السبب قلة الماء فى الجلد مع تغيرات فى بعض خلايا الدم) .

وهذه المضاعفات تعنى عدم الاستمرار ، مدة طويلة ، على حال واحد .. دون رغبة فى الهرش .. أو حاجة للتبول ... إلخ .. وهذا لا يناسب شخصية تفرض عليها الظروف مواصلة الاجتماعات السياسية المهمة ، أو الخطابة ، لساعات ليست محدودة .

ويبدو ذلك أمرا مزعجا عندما تجد مثل هذه الشخصية نفسها تقطع مفاوضات مهمة حول السلاح (مثلا) لتستأذن وتدخل الحمام .

وقد كان جمال عبد الناصر يجد فى آلام الساق ميزة وحيدة .. هى أنها تعطيه الفرصة لقطع أى مفاوضات كل ساعة ، لمدة دقائق ، يتمشى فيها ، ويذهب خلالها إلى الحمام ، ليفرغ ما فى المثانة ، أولا بأول .. فلم يشعر أحد بأن السكر أثر فى أسلوبه فى العمل ، أو غير فى إحدى عاداته .

كما أنه فى الفترة الأخيرة من حياته كان يفضل العمل والسهر فى مكتبه الملحق بغرفة نومه .. وكان ذلك يعطيه حرية أكثر فى الحركة ، وشعورا نفسيا أهدأ .

□ □

لقد تحمل أكثر مما تتخيل ..

وأكثر مما يتحمل البشر ..

لذلك ...

فقد تحققت أمنية حياته .. ومات وهو يحكم ، ويعمل !

□ □ □

□ ١٠ □

وأخيرا ... استرحت !

فى الليلة الأخيرة ...

لم ينم جمال عبد الناصر سوى أربع ساعات .

كان من السهل تمييز الخيط الأبيض من الخيط الأسود عندما دخل الفراش .. لكنه كان مهموما بإمكانية تنفيذ الاتفاق ، كما كان عليه توديع الملوك والرؤساء فى الصباح .. لذلك .. فقد وجد نفسه يحلق فى سقف الغرفة بعد ساعات من النوم الخاطف ، أقل من عدد أصابع اليد ... فلو كان النوم سلطانا ، فلا بد أن يكون الأرق طاغية .

قبل أن يغادر الفراش ، اتصل تليفونيا برئيس أركان القوات المسلحة ، اللواء محمد أحمد صادق .. وكان السؤال عن الموقف فى عمان .

ثم ... اتصل بوزير الإعلام محمد حسنين هيكل ... لكن .. لم يجده .

وكان ذلك فى حوالى الساعة الثامنة صباحا .

وبعد أن أكمل فنجان الشاى ، قام إلى الحمام ، وأخذ « دشاً » فاترا .. وحلق ذقنه بحرص شديد ، حتى لا يجرح نفسه ، ويكون من الصعب التئام الجرح ، كما هو الحال مع مرضى السكر .. ولم ينس أن يمسحها بقطعة قطن مبللة بكولونيا ، كعادته منذ أن كان ضابطا .

ثم ارتدى ثيابه ، وغادر حجرته ، وراح ليتناول إفطاره ، فى حجرة المائدة ، مع زوجته .. وكان إفطاره ، تفاحة واحدة من صندوق تفاح ، أحضره الوفد اللبنانى الذى شارك فى القمة الطارئة ، وفنجان قهوة محلى بقرص سكارين .

فى ذلك الصباح أيضا ... أجرى له الدكتور الصاوى حبيب ، الفحص اليومى

المعتاد ... قياس ضغط الدم .. النبض .. ضربات القلب .. واستمر الفحص
ربع ساعة .. وعلى حد قول الطبيب .. « كانت حالته عادية » .

فى التاسعة وعشر دقائق كان فى القاعة الشرفية بمطار القاهرة الدولى ليودع ال
اللبنانى سليمان فرنجية ، الذى أقلعت طائرته فى تمام العاشرة .. وبعد نصف س
ودع الملك حسين .. ثم الملك فيصل .. فالرئيس السودانى جعفر نميرى
واستغرقت هذه المراسيم حوالى ٣ ساعات .

ويقول أنور السادات :

ـــ إنه عند « توديع الملك فيصل » نبهه كبير الياوران إلى أن قدمى الرئيس
عبد الناصر قد لفت على بعضها ، وهو يسير .. فطلب من عبد الناصر أن ي
إلى بيته ليستريح على أن يقوم نيابة عنه بتوديع أمير الكويت .. ولكنه رفض

كان الوقت يسمح بأن يعود عبد الناصر إلى بيته ليستريح قليلا ، ثم يرجع
المطار لتوديع أمير الكويت .

فى البيت عرف من زوجته أن « الأولاد » سيكونون جميعا على الغداء ، و
منه أن ينضم إليهم على المائدة ، فى الوقت المعتاد ، لأنهم لم يروه منذ أسبو

ولم تشأ الزوجة أن تجهز على ما تبقى من شهيته ، وتخبره بأن طعامه سي
عبارة عن خضار مسلوق فى الماء .. دون دسم .. عليه زيت وليمون .. وسلا
وخبز جاف .. وزبادى .

ويقول محمد حسنين هيكل :

ـــ إن عبد الناصر اتصل به فى الواحدة ظهرا ، وإن صوته « كان متعبا إلى أ
حد » .. وإنه قال : إنه سيأخذ راحته بعد وداع أمير الكويت .. سينام ما
من اليوم .. ثم سيسافر إلى الإسكندرية .

وحسب رواية السادات ، فإنهما كانا سيسافران إلى الإسكندرية معا فى
اليوم .. « للاستجمام والراحة » .

---

(١) البحث عن الذات ـــ ص ٢١٦ .

ويضيف هيكل :

« وسألته عما يشعر به ...

وقال :

ـــ أجد نفسى غير قادر على الوقوف » !

وسأله هيكل عن آلام الساق ... « أما لها من دواء ؟ » .

فقال : « **سوف أضع قدمى فى ماء دافئ به ملح ، وأظن أن الألم سوف يتحسن .. هو طول الوقت فيما أعتقد » !**

بعد أن انتهت المكالمة ، تمدد عبد الناصر على الفراش بملابسه ، بعض الوقت ، ثم قام ليغيرها استعدادا للذهاب إلى المطار .

وعندما خرج من حجرته ، لاحظت زوجته أنه ضغط على « زر » المصعد ، يستدعيه ، وكانت المرة الأولى من نوعها .. فقد كان يفضل النزول على السلالم ، حتى بعد تركيب المصعد .. لكن ذلك لم ينبه الزوجة إلى ما يستحق الشعور بالخطر !

□ □

قبل أن يركب أمير الكويت طائرته ، أحس عبد الناصر بالدوار .. وتصبب العرق منه ، وشعر بالبرودة تسرى فى جسمه .. لكنه تحامل على نفسه .

وعندما صعد أمير الكويت سلم الطائرة ، كان من المؤكد أنه يبذل جهدا خارقا كى يحتمل .. وبدت له الدقائق الأخيرة فى الوداع دهرا لا يمر ...

« لم يتحرك من أمام الطائرة .. بل وقف مكانه ، والعرق يتصبب من وجهه وقد امنقع لونه بصفرة رهيبة »[٢] .

وطلب السيارة ...

وكان من المعتاد أن يذهب هو إليها ماشيا .. ليحيى جماهير المودعين .

كان صوته ضعيفا وهو يطلب السيارة ، حتى أنه لا أحد من طاقم السكرتارية الخاصة سمعه .. مع أنه كان على بعد مترين فقط .. فزعق السادات : « هاتوا السيارة » .. وكرر حسين الشافعى الأمر نفسه .

---

(٢) البحث عن الذات ـــ ص ٢١٧

وجاءت السيارة ...

ودخلها بصعوبة .. ثم التفت إلى محمد أحمد قائلا :

« **خلّي الدكتور الصاوى يحصلنى على البيت** » !

لم يكن الدكتور الصاوى حبيب فى المطار .. كان قد عاد إلى بيته فى وسط القاهرة ، بعد أن انتهى من فحص الرئيس صباحا .

وبرغم أنه كان الطبيب المرافق ، وبرغم أن مكانه الطبيعى — والرئيس خارج البيت — فى سيارة الإسعاف .. فإنه لم يرافق الرئيس .. ولم تكن هناك سيارة إسعاف بالمرة .

وفيما بعد ...

دافع د . الصاوى حبيب عن نفسه قائلا :

— إن المشوار كان نصف ساعة فقط (!!) ولا يستدعى خروج سيارة إسعاف (!!) كما أن سيارة الإسعاف كانت من الموديل الشائع لسيارات الإسعاف (!!) وهو ما كان الرئيس عبد الناصر يرفضه (!!) ويرفض أن يراها الناس فى موكبه (!!) .[٣]

ويبدو عذر الطبيب (المشوار نصف ساعة فقط) غريبا .. وخاصة أنه يعرف أن عبد الناصر مريض بالسكر .. وسبق أن داهمته جلطة مكتومة .. ومن السهل أن يصاب بغيبوبة .. ويعرف أن عنصر الوقت فى مثل هذه الحالات ، هو عنصر حاسم بين الحياة والموت .

□ □

فى الطريق إلى البيت ، كان يرافق عبد الناصر ، سكرتيره الخاص فؤاد عبد الحى .. وبرغم أنه رجل لا غبار عليه ، فإن طبيعته العسكرية ، فرضت عليه ألا يبادر بعمل أو اقتراح أى شيء ... وهكذا .. وجد نفسه صامتا .. عاجزا ، والرئيس يضع يده على مسند المقعد الخلفى للسيارة ، ويضع رأسه على يده .. وقد ازرقّ وجهه .

---

(٣) التضامن — ٢٥ / ٦ / ١٩٨٨ — ص ٤٢

نزل عبد الناصر من السيارة .. تحرك حوالى ٢٠ مترا من البوابة إلى المصعد .. وفى الدور العلوى وجد الأسرة كلها فى انتظاره .. داعب حفيديه هالة وجمال .. دخل غرفته .. لحقت به زوجته .. سألته عن الغداء .. رد وهو يخلع ملابسه بأنه غير قادر على أن يضع أى شيء فى جوفه .. ارتدى بيجامة (بيضاء بخطوط زرقاء) .. ودخل إلى فراشه . .

جاء د . الصاوى حبيب .. ظهرت أمارات الفزع فى وجه قرينة عبد الناصر .. طمأنها الدكتور الصاوى حبيب قائلا :

« لا تخافى .. غالبا ده نقص فى السكر » !

فسألته :

« هل تطلب شيئا ؟ » .

قال :

« أى عصير » .

واختفت لتعود وهى تحمل كوب ليمون وكوب برتقال .

فى تلك اللحظات كان الدكتور الصاوى حبيب قد كشف على عبد الناصر ، وأحس — على حد قوله فيما بعد — بتزايد شديد فى سرعة ضربات القلب ، وانخفاض واضح فى ضغط الدم ، وعندما لمس الأطراف كانت باردة جدا .

وكان أن طلب من السكرتارية استدعاء الدكاترة منصور فايز ، وزكى الرملى ، وطه عبد العزيز .

فى الساعة الخامسة إلا عشر دقائق وصل د . منصور فايز .. ثم .. لحق به الآخرون .

وخلال الفترة ما بين الاستدعاء والوصول ، قام د. الصاوى حبيب بعمل رسم كهربائى للقلب ، كشف عن وجود جلطة جديدة فى الشريان التاجى .. مصحوبة باضطراب فى ضربات القلب .. ومن باب الاحتياط ، طلب أنبوبة أوكسوجين ،

كُسر باب الصيدلية للحصول عليها .. لأن المسئول عنها كان غير موجود .. ولا أحد يعرف أين ذهب !

يقول الدكتور منصور فايز :[٤]

ــ كان واضحا من أول نظرة إلى وجهه (عبد الناصر) شعور الإرهاق الشديد الذى كان يحسه بسبب اضطراب ضربات القلب ، ولكنه كان متماسكا لا تبدو عليه أعراض للقلق .

لم يقل د . منصور فايز إن التماسك والهدوء كانا بسبب البانتوبون الذى حُقن به عبد الناصر .. والبانتوبون مهدىء قوى .. من مشتقات المورفين .. يمنع الألم والتوتر والقلق ، ويزيل إحساس الخوف الشديد الذى يشعر به المصاب بالجلطة ، وهو إحساس يضاعف العبء على القلب ويؤجل الشفاء .. لذلك فالبانتوبون مفيد جدا فى هذه الحالة ، حيث يجعل المصاب بالجلطة فى حالة هدوء .. لا يبالى بالمرض .. ولا يقدر عواقبه .

وقد كان عبد الناصر فى هذه الحالة .. والدليل على ذلك الحوار الأخير الذى جرى بينه وبين الدكتور منصور فايز ..

سأله عبد الناصر :

ــ إزاى عرفوا يجيبوك دلوقتى ؟

ثم أضاف :

الحقيقة تعبونى خالص فى الأيام اللى فاتت !

ــ يبقى لازم سيادتك تستريح .

ــ لا .. أنا لازم أروح الجبهة الأول .

ــ لا .. لازم تأخذ إجازة طويلة وبعدين نفكر فى الجبهة .

ــ دا الوزراء كلهم رايحين الجبهة النهارده .

ــ لازم تستريح ياريس .

---

(٤) أكتوبر ــ ٢٦ / ٦ / ١٩٨٨ ــ ص ١٠

ـــ أنا مش حارقد المرة دى .. أنا عندى مواعيد وشغل كتير الفترة الجاية .

كانت الساعة قد بلغت الخامسة .. موعد النشرة الإخبارية .. وقد عرف عبد الناصر الموعد من منبه صغير كان بجوار السرير .. فمد يده إلى جهاز الراديو القريب منه ، واستمع إلى مقدمة النشرة .. ثم قال :

« مفيش حاجة » !

طلب إغلاق الراديو ، ثم قال :

« نيكسون عامل لى مظاهرة فى نابولى وكنت عايز أعرف إيه الأخبار »[٥] .

وقد تسبب هذا التصرف فى شيوع قصة تعيين قائم بأعمال رئيس الجمهورية وأنه كان زكريا محيى الدين .. وفى أقاويل أخرى البغدادى ، إلا أن هذا الموضوع لا يوجد دليل عليه .

أحس الدكتور منصور فايز بتحسن مفاجىء ى ضربات القلب ، فوجد أنه من الممكن الانسحاب من حجرة النوم كى يدخن سيجارة ، ويطمئن زوجة الرئبس ، ويسمح لها بالدخول .. لكنها .. ترددت خوفا من أن يتضايق زوجها ، أو يشعر أن هناك شيئا غير عادى .. فقد كان عبد الناصر يرفض وجودها والأطباء عنده .

استغرق هذا الحوار العابر أقل من دقيقتين .. كان الموقف داخل غرفة عبد الناصر خلالهما يتدهور بسرعة مخيفة ... وتجمع الروايات على أن الدكتور الصاوى حبيب تقدم منه ، وقال :

« ألا تستريح سيادتك .. إنك فتحت الراديو وقفلته .. ولا داعى لأى مجهود الآن » !

فرد عبد الناصر عليه فى هدوء :

« لا ياصاوى .. الحمد لله ... أنا دلوقت استريحت » !

قال الدكتور الصاوى :

---

(٥) كان الرئيس الأمريكى نيكسون سيحضر مناورة للأسطول السادس ، ويتابعها على ظهر حاملة الطائرات ساراتوجا ـــ أكتوبر ـــ المصدر السابق ـــ ص ١١

« الحمد لله يافندم » .

لكن ...

أغلب الظن أن عبد الناصر لم يسمع العبارة الأخيرة التى قالها د . الصاوى ، فقد أغمض عينيه ونزلت يده من فوق صدره ، وسقطت بجواره .

.... مات ! .... بالضبط مات ! .

□ □

قامت الدنيا و لم تقعد ..

حاول الأطباء السباحة ضد تيار الموت .. لكن .. التيار كان أشد .

خلعوا جاكية البيجامة .. بقى عبد الناصر عارى الصدر .. أوصلوا جسده بالأسلاك ، وأوصلوا الأسلاك بجهاز صدمات القلب .. وحاول الدكتور طه عبد العزيز ثلاث مرات كان الصدر فيها ينتفض .. لكن .. لا حياة فيمن تنادى .

وفيما بعد ...

اعترف الأطباء بأنهم لجأوا إلى جهاز الصدمات الكهربائية وهم على ثقة من الفشل .. لكنهم فعلوا ذلك حتى لا يُتهموا بالتقصير .. أى أن هذا الإجراء لم يزد عن كونه إجراء روتينيا .

وبرغم ذلك ...

جاء من يتهمهم بالتقصير ..

□ □

بعد أن انتهى كل شىء ، جاء الدكتور رفاعى كامل .

كانت السكرتارية الخاصة قد استدعته مثله مثل أطباء آخرين استغاثت بهم ، وكان منهم الدكتور حمدى السيد .

لقد أدى التوتر المكتوم ، الذى سيطر على بيت عبد الناصر ، إلى حالة من اليأس ، دفعت البعض إلى التصرف من تلقاء نفسه ... وهكذا ... وجد أطباء كبار فى القلب من يطلب منهم سرعة الحضور ..

لكن ... هذا التصرف لم يأت إلا فى مرحلة متأخرة ..

وعلى سبيل المثال .. جاء الدكتور رفاعى كامل بعد الوفاة بربع ساعة .. « **بعد ما خلاص انتهى** » على حد قوله[٦] .

والدكتور رفاعى كامل كان طبيب قلب عبد الناصر إلى أن اختار الدكتور محمود صلاح الدين ، والدكتور زكى الرملى ليكونا بالقرب منه .. ولما كان الدكتور محمود صلاح الدين فى الإسكندرية ، فإن صهره الدكتور زكى الرملى أصبح المسئول .

وقد ترك ذلك أثرا سيئا فى نفس الدكتور رفاعى كامل .. لم يمح لسنوات طويلة بعد الوفاة .. مع أن عبد الناصر كان يسمح له بأن يكشف عليه من حين إلى آخر .. وطلب من السكرتارية الخاصة أن يستدعوه إذا ما احتاجوا إليه .. وكان الرجل لا يتأخر فى أن يأتى ويكشف على أصغر جندى فى الحراسة ، برغم أنه كان برتبة لواء .. ومديرا لإدارة الخدمة الطبية بسلاح الطيران .. وضاعف ذلك من إحساسه بالضيق .. وأغلب الظن أن ذلك أثر على قلبه — مع مضاعفات السكر — فيما بعد .

ولم يتردد الطبيب الكبير — الذى جاء متأخرا — فى أن يكون أول الموقعين على التقرير الطبى الذى صدر بعد الوفاة ، وكان نصه كالتالى :

« أثناء توديع سمو أمير الكويت بالمطار فى الساعة الثالثة والنصف مساء يوم ٢٨ / ٩ / ١٩٧٠ الموافق ٢٧ رجب ١٣٩٠ هجرية ، شعر سيادة الرئيس بدوخة مفاجئة مع عرق شديد وشعور بالهبوط . وقد توجه سيادته بعد ذلك فورا إلى منزله بمنشية البكرى ، حيث حضر على الفور الأطباء ، ووجدوا عند سيادته أزمة قلبية شديدة نتيجة انسداد للشريان التاجى للقلب .

وقد أجريت لسيادته جميع الإسعافات المطلوبة اللازمة بما فى ذلك استعمال أجهزة تنظيم ضربات القلب . ولكن مشيئة الله قد نفذت ، وتوفى إلى رحمة الله فى الساعة السادسة والربع أثناء إجراء هذه الإسعافات » .

توقيع

دكتور رفاعى كامل . دكتور منصور فايز . دكتور زكى الرملى . دكتور الصاوى حبيب . دكتور طه عبد العزيز .

---

(٦) التضامن — ٤ / ٦ / ١٩٨٨ — ص ٢٢ .

ولا أحد يعرف سر تحديد موعد الوفاة فى البيان (السادسة والربع) متأخرا عن الحقيقة حوالى ساعة و ١٠ دقائق .. حيث كانت الوفاة فى الخامسة وخمس دقائق .

ولا أحد يعرف سر عدم استخراج شهادة وفاة للرئيس الراحل ... مع أن وكيل وزارة العدل ، والطبيب الشرعى ، د . مصطفى كمال ، جاء بعد الوفاة ، وقام بالكشف الظاهرى على الجثمان .

والمثير للدهشة أن الطبيب الشرعى رفض أن يوقع على أى ورقة إلا إذا شُرحت الجثة .. فما الذى جعله يقترح تشريح الجثة ؟ .. وما الذى جاء به أصلا ؟ .. من الذى استدعاه ؟ .. إذا كان وجوده ضرورة لأن المتوفى رئيس دولة .. فلماذا لم تترك له الحرية فى ممارسة عمله .. وإذا كان وجوده غير ضرورى ، فلماذا طلبوه ؟! .

لقد كان سبب رفض التشريح ... أن الأعصاب مشدودة .. والبلد تغلى .. وأى تصرف من هذا النوع سيفجر أشياء لا يعرف أحد مداها .

وهكذا ... كان على الطبيب الشرعى أن ينسحب فى هدوء .. وألا يوقع شهادة بالوفاة .. وأن يترك الأمر لأولى الأمر .

وقد أدى ذلك إلى بلبلة .. أخذت فى التزايد مع مرور السنين .

ففيما بعد ...

نُشر فى لندن كتاب بعنوان « الألعاب القذرة » ، مؤلفه يُدعى « تشامبان » ، يدعى أن جمال عبد الناصر اغتيل بحقنة أنسولين مخلوطة بسم « الريسين » الذى لا يترك أى أثر فى الجسم .. وقد كان الأمريكيون أول من توصل إليه ، لكن .. اتضح ، بعد ذلك ، أن السوفييت استخدموه — عام ١٩٧٩ — فى التخلص من لاجىء سياسى ، بلغارى ، كان يعمل مذيعا فى الإذاعة الأمريكية الموجهة إلى شرق أوروبا .. وذلك بأن طُعن فى رجله برأس مظلة مسممة بالريسين(٧) .

ويقول تشامبان :

— إن عملية اغتيال جمال عبد الناصر كانت العملية النموذجية الكاملة التى قامت

---

(٧) روز اليوسف — ٢٧ / ٩ / ١٩٨٢ — ص ٢٥ و٢٦

بها المخابرات الأمريكية .. وقد أصبحت مثالا فى عالم المخابرات .. فالعناصر الخارجية التى نفذتها اعتمدت على شخص واحد فقط .. رجل أعمال مصرى متعاطف مع المخابرات المركزية .. سُلم السم إليه .. مع مبلغ كبير[8] .

« وكان مدير فرع العمليات السرية فى المخابرات المركزية شخصيا فى القاهرة ، يراقب اللمسات الأخيرة للعملية الكبرى التى غيرت معالم السياسة فى الشرق الأوسط »[9] .

ويضيف المؤلف :

« إن الحاجة كانت ماسة للتخلص من جمال عبد الناصر ، بعد سلسلة الزيارات التى قام بها للاتحاد السوفييتى ، وبعد أن أخذ التعاون المصرى ـــ السوفييتى أبعاده الخطيرة .. وبعد أن وصلت وحدات كاملة من سلاح الجو السوفييتى إلى مصر ، مزودة بطائرات مقاتلة ، وقاذفة ، وصواريخ أرض / جو ، إضافة إلى طائرات الاستكشاف ، وأنه أعطى تسهيلات لوجود عدد كبير من الخبراء والفنيين السوفييت فى مصر »[10] .

والتفسير السياسى مقبول ... فالهزيمة لم تقض على جمال عبد الناصر .. و لم تفرض عليه الصلح مع إسرائيل .. و لم تعده إلى الغرب .. و لم تنه الوجود السوفييتى فى مصر .. بل إن الذى حدث كان عكس ذلك كله .

أما التفسير الجنائى .. فغير مقبول .. فسم الريسين ، سم خاطف ، يقتل فى الحال .. وهذا حدث مع المنشق البلغارى .. حيث سقط بمجرد طعنه برأس المظلة المسممة ، ولكن .. هذا لم يحدث مع جمال عبد الناصر الذى نازع الموت أكثر من ٥ ساعات !

□ □

وفيما بعد ... أيضا ..

قال صلاح الشاهد ، كبير الأمناء فى رئاسة الجمهورية لمجلة « الوطن العربى » بمناسبة مرور ١٦ سنة على وفاة جمال عبد الناصر :

---

(٨) و(٩) و(١٠) المصدر السابق .

ـــ إنه كان فى المطار عندما كان عبد الناصر يودع أمير الكويت .. وأنه شهد ما حدث .. لذلك .. فهو يؤكد أنه تعرض لغيبوبة سكر .. وركب سيارته وهو مغمى عليه .. وربما لو أنه تناول قطعة صغيرة من السكر لكتب له عمر ثان .. وفى البيت حقنه الدكتور الصاوى حبيب بحقنة « انتستين بريفين » ضد الحساسية ، أصابت القلب بهبوط شديد ، وتوفى على الفور .

وأضاف الشاهد :

ـــ إن الدكتورين الصاوى حبيب ، وأحمد ثروت كانا أطباء أطفال .. أما الدكتور محمد بطاطة الذى شارك فى العلاج ، فليس حاصلا على دبلوم عال فى القلب .. أى أن الأطباء الثلاثة المحيطين بالرئيس غير متخصصين ، لا فى القلب ، لا فى السكر .. أما المتخصصون وهم د . رفاعى كامل (فى القلب) ود . منصور فايز ود . على البدرى (فى الباطنة والسكر) فلم يصلوا إلا بعد أن بدأ د . الصاوى حبيب الإسعافات .. ولذلك رفض د . رفاعى كامل أن يكتب شهادة وفاة للرئيس لأنه لا يعرف سبب الوفاة ، كما رفض وكيل وزارة العدل للطب الشرعى ، وقال : « **لازم أشرح الجثة** »[11] .

وقد أعاد صلاح منتصر نشر ما قاله صلاح الشاهد فى عموده اليومى بجريدة « الأهرام » ، صباح ٢٨ سبتمبر ١٩٨٦ .

وفى اليوم نفسه أرسل د . الصاوى حبيب ردا ، نشره صلاح منتصر ضمن سياق عموده بعد ٤٨ ساعة .

قال د . الصاوى حبيب :

« أولا : أنا حاصل على درجة الدكتوراه فى الأمراض الباطنة ودبلوم أمراض القلب ، ولا علاقة لى بطب الأطفال .

ثانيا : لم تحدث غيبوبة لجمال عبد الناصر أو أى درجة من فقدان الوعى سواء بالمطار أو بعد وصوله إلى منزله ولحين وفاته .

---

(١١) أعتقد أننا لسنا فى حاجة إلى أن نلفت النظر إلى أن الدكتور رفاعى كامل وقع على تقرير الوفاة ، كما أن الدكتور أحمد ثروت كان بعيدا عن الرئاسة منذ يونيو ١٩٦٧

ثالثا : لم يتم حقنه بالانتستين بريفين لأن هذا عبارة عن نقط للأنف .

رابعا : لم تتم الوفاة على الفور بل بقى الرئيس الراحل فى المنزل حوالى ساعتين .

خامسا : تم استدعائى للمنزل أثناء عودته من المطار ، وكذلك الدكتور منصور فايز الذى حضر بعدى بربع ساعة ، والدكتور زكى الرملى الذى حضر بعدى بحوالى ثلث ساعة وتأكد من رسم القلب ، وجود انسداد بالشريان التاجى وهو الانسداد الثانى فى خلال عام ، وكان الأول فى ١١ / ٩ / ١٩٦٩ . وقد أجرى له كل ما يمكن من علاج إلى حين الوفاة » .

وبهذا الرد قرر « الأهرام » إغلاق الموضوع ، ولم ينشر رد جديد تلقاه من الدكاترة .. منصور فايز ، وزكى الرملى ، والصاوى حبيب .. وكان نصه كالتالى :[١٢]

« ١ ــ إن الموقعين أدناه هم الذين كانوا بجوار الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بعد ظهر يوم الاثنين ٢٨ سبتمبر حين عاد إلى منزله من وداع أمير الكويت بمطار القاهرة الدولى إلى أن فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها :

أ ــ الأستاذ الدكتور منصور عبد الرحمن فايز ــ أستاذ ورئيس قسم الأمراض الباطنية بكلية طب جامعة القاهرة سابقا ، والمشرف على علاج الرئيس الراحل .

ب ــ الأستاذ الدكتور زكى الرملى ــ أستاذ ورئيس قسم أمراض القلب بكلية الطب ، جامعة القاهرة سابقا .

جـ ــ الأستاذ الدكتور الصاوى محمود حبيب استشارى الأمراض الباطنية والقلب .

٢ ــ لا صحة إطلاقا للادعاء بأن الرئيس الراحل جمال عبد الناصرقد فاجأته غيبوبة وهو فى المطار أو أنه قد عاد إلى منزله فاقد الوعى .

٣ ــ اتضح لنا من الكشف الإكلينيكى الذى وقعه كل منا على الرئيس ، وكذا من الرسومات الكهربائية للقلب التى أجريناها على الفور وقمنا بدراستها ،

---

(١٢) الأهالى ــ ١٥ / ٦ / ١٩٨٨ ــ ص ٦ .

أن الرئيس جمال عبد الناصر قد أُصيب بجلطة ثانية وانسداد فى الشريان التاجى للقلب . وكان الرئيس قد أُصيب بالأزمة القلبية الأولى فى ١١ سبتمبر ١٩٦٩ .

٤ — لم يشمل علاجنا للرئيس فى ذلك المساء إلا العلاج المعروف ، ومستقر فى حالات الأزمات القلبية وكان الرئيس جمال عبد الناصر منتبها تماما طوال توقيعنا الكشف عليه ، والعلاج .

٥ — عرض الأستاذ الدكتور منصور فايز التقرير الطبى لوفاة الرئيس جمال عبد الناصر فى الجلسة المشتركة بين اللجنة العليا للاتحاد الاشتراكى ومجلس الوزراء ، التى عقدت عقب وفاة الرئيس ، وسلم التقرير وشهادة الوفاة إلى المسئولين »[١٣] .

وتقبلوا الاحترام ..

توقيعات

لم يكتف د . الصاوى حبيب بالكتابة إلى الصحف مدافعا عن نفسه ، وإنما أحال الأمر إلى القضاء .. واتهم صلاح الشاهد بالقذف فى حقه والتعريض بسمعته .. وكان ذلك فى القضية رقم ٨٨ لسنة ١٩٨٧ .. لكن .. انتهت القضية إلى لا شيء .. حيث خرج صلاح الشاهد منها .. براءة من كل التهم التى نُسبت إليه .

وبتعليمات رسمية ... لم تنشر الصحافة المصرية إلى القضية .. كما أن القاضى حصر الدعوى فى حدود الاتهام ، ولم يشأ أن يجعل من صحة ومرض وموت جمال عبد الناصر موضوعا يعرض فى المحاكم .

□ □

.. وفيما بعد ... كذلك ..

أعاد الدكتور رفاعى كامل صياغة رواية صلاح الشاهد .. وقدمها فى إخراج طبى .. مؤكداً أن جمال عبد الناصر مات نتيجة خطأ فى التشخيص .. والعلاج .. باختصار .. قتله جهل الأطباء والدواء الخاطىء .

---

(١٣) فى الاجتماع المشترك أثار حسن التهامى (!!) شكوكا حول ما فعله الأطباء ، فجاء د . منصور فايز وشرح فى ربع ساعة ما جرى ، وردد وهو يبكى « أمر الله » ، وسلم التقرير ، ولم تكن هناك شهادة وفاة

فعبد الناصر ــ حسب تشخيصه ــ مات بكوما سكر لا بنوبة قلبية .
والدليل ــ على ذلك ــ رسم القلب والتحاليل الطبية التى أشارت إلى أن نسبة التجلط كانت منخفضة (٢٢ ٪) عن المعدل الطبيعى (٨٠ ٪) .
والسبب ، أنه حُقن فى الصباح بحقنة أنسولين ، لم يتناول بعدها الطعام الكافى .
وكان أن عُولج على أنه يعانى من أزمة قلبية ، فتناول أدوية ضاعفت من الهبوط ، وكانت النتيجة الوفاة .
والكلام ــ للوهلة الأولى ــ يمكن أن يكون سليما ..
فمن الناحية الطبية ، يؤدى علاج غيبوبة السكر على أنها أزمة قلبية إلى الوفاة .. فالأنسولين ، مع عدم تناول الطعام ، فى وجود سكر متوحش ، يؤدى إلى تلف فى المخ ، واضطرابات فى القلب .
ويضيف د . شريف عبد الفتاح :
ــ ومن الناحية الطبية يمكن حدوث لبس بين أعراض نقص السكر وأعراض الجلطة .. لكنه لبس سطحى .. فعندما يفقد المريض كمية من السكر ، تنخفض كفاءة الدورة الدموية ، ويظهر عليه الضعف ، ويشعر بآلام فى جهة الصدر ، مع لخبطة فى الكلام ، وتنخفض درجة انتباهه .. وقد تفسر هذه الأعراض على أنها جلطة فى المخ ، أو بداية ضيق فى الشريان التاجى ، وهى فى الحقيقة عبارة عن نقص فى السكر .
ومن الممكن أن يؤدى نقص السكر إلى سرعة ضربات القلب ، وارتفاع فى ضغط الدم ، الأمر الذى يخدع الشخص غير المتخصص ، أو الطبيب غير المتمرس .
وقد جرت العادة فى مثل هده الحالات أن نعوض نقص السكر أولا ، فلو زاد السكر لن يحدث الكثير .. فإذا لم تنته الأعراض تكون الحالة جلطة .. وتعالج على هذا الأساس .
ويقول د . شريف عبد الفتاح :
ــ إن رسم القلب ليس دليلا على شيء مؤكد إلا فى لحظة خروجه من الجهاز الكهربائى .. لأن من الجائز جدا أن يكون كل شيء على ما يرام ، ويحدث ضغط فى الشريان التاجى .. وتخرج الروح فى ثانية .

وقد يصحب ذلك آلام شديدة .. أو حالة تهيجان .. أو اضطراب فى الدورة الدموية .. من لا شيء إلى كل شيء .. هذا جائز جدا .

ماذا يقول لنا هذا التفسير الطبى ؟

يقول :

إن هناك شكاً فى تشخيص الدكتور رفاعى كامل ، ليس فقط لأنه جاء متأخرا ، بعد الوفاة ، وإنما لأسباب أخرى طبية منها :

▫ إن عبد الناصر لم يصب بغيبوبة منذ بداية الأزمة وحتى لحظة الوفاة .

▫ إنه أكل تفاحة فى الصباح ، وشرب كوب العصير فى الظهر ، وكان ذلك مناسبا لمواجهة حقنة الأنسولين .

▫ إنه كان يضع فى جيبه أقراص الجلوكورامين المضادة لغيبوبة السكر ، ويعرف الأعراض الأولية لها والتى تفرض عليه تناولها .

▫ إنه لم يصب بتلف فى المخ ، ولا ضعف فى الانتباه ، وظل قادرا على الكلام بوضوح حتى وفاته .

▫ إن الجلطة الأولى التى تعرض لها ، أدت إلى تليف جزء من عضلة القلب ، جعل من السهل حدوث التغيير فى ضربات القلب عند التعرض لأبسط ظرف خارجى ، طارئ .. المجهود أو الانفعال .. مثلا .

▫ إن نوع الجلطة الذى أصابه كان غير مصحوب بآلام ، مما أضفى ارتباكا فى تشخيص الحالة .

▫ إنه مع التسليم باختيار أهل الثقة من الأطباء ، فإن خبرتهم — إن لم تكن عالية — فهى على الأقل قادرة على التفرقة بين غيبوبة السكر ، ونوبة القلب ، لأن تلك التفرقة لا تحتاج سوى خبرة طبيب من درجة ممارس عام .

▫ ▫

كانت المرة الأولى التى « **تجمد** » فيها الإرسال الإذاعى والتليفزيونى عند قراءة آيات الذكر الحكيم .

لم يخطر على بال أحد أن جمال عبد الناصر مات .

وعندما أعلن السادات النبأ أُصيب المصريون بذهول .. ثم وجدوا أنفسهم ينفجرون فى الشوارع القريبة من بيته .. وبعد ساعات ، كان كل شيء قد توقف إلا الدموع .

وقبل منتصف الليل بقليل خرجت من بوابة بيت عبد الناصر ، سيارة إسعاف ، لم يخطر ببال الجموع التى سدت الشوارع والطرقات أنها تحمل جثمان الرئيس .

كان داخل سيارة الإسعاف الدكتور رفاعى كامل ، والدكتور مصطفى كمال ، وحراسة مسلحة .. أما قائد السيارة فكان من ضباط المخابرات العامة .

توجهت السيارة إلى قصر القبة .. المقر الرسمى للحكم .. وهناك كان لا بد من حفظ الجثمان ٦٥ ساعة دون تلف .. وحتى يحين موعد الجنازة فى الساعة العاشرة من صباح الخميس أول أكتوبر ١٩٧٠ .. وبحث الأطباء عن ثلاجة مناسبة يوضع فيها الجثمان .. لكنهم .. للأسف ، لم يجدوا سوى ثلاجة المطبخ .

وبمجرد إذاعة النبأ ، أعلنت الدولة العربية الحداد الرسمى لمدة ٤٠ يوما .. وألغى الرئيس نيكسون المناورة البحرية .. فى البحر المتوسط .. ومن فوق حاملة الطائرات سارتوجا أعلن أن العالم فقد زعيما بارزا .. وأنه برغم عدائه للسياسة الأمريكية ، فإن واشنطن كانت تنظر إليه دائما باعتباره « **زعيما له النفوذ الأقوى فى العالم العربى** » .

وعلق عميل المخابرات المركزية « جول جوستن » على خبر الوفاة ، قائلا :

« **إن ما يدعو للأسف فيما يتعلق بعبد الناصر هو أنه ليست لديه أية رذيلة . إن شراءه لم يكن ممكنا ، وتهديده أيضا . إننا نكرهه إلى أقصى حد ، لكن ما كنا نملك أن نفعل ضده شيئا .. فقد كان نظيفا جدا** » .

□ □

٦ ملايين مواطن .

٤٠ ألف ضابط وجندى .

٤٠ لواء من القوات المسلحة .

٥٠٠ جندى شرطة عسكرية لحراسة الجثمان .

هذه الأرقام سُجلت يوم الجنازة .. وفى اليوم التالى كان مانشيت « التايمز الإنجليزية » إنه أضخم تجمع بشرى فى التاريخ .

فى الفجر نُقل الجثمان بطائرة هيلكوبتر (س — ٨) من قصر القبة إلى نادى الجزيرة الرياضى .. ثم نُقل إلى مقر مجلس قيادة الثورة .. حيث تجمعت الوفود الرسمية .. وحيث بدأت أضخم جنازة عرفتها مصر .. وطن حضارة الموت .

كان من الصعب السيطرة على مشاعر الجماهير والحفاظ على النعش ، فركب الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية ، وشعراوى جمعة وزير الداخلية ، سيارة مدرعة مكشوفة لفتح الطريق .. أمام الخيول السوداء التى تجر عربة المدفع الموضوع عليها النعش .. لكن .. ذلك لم يكن مؤثرا .. فاختار وزير الحربية رقيبا أول فى القوات المسلحة ضخم البنيان ليلقى بجسمه على النعش .. وأمام المقبرة كان الرجل عاريا .. بلا قميص .. وبلا فانلة داخلية .. وظهره شديد الاحمرار من أصابع الناس .

دُفن عبد الناصر فى مسجد بُني فى المكان الذى قامت منه ثورة ٢٣ يوليو ، ومنذ تلك اللحظة أصبح المسجد يحمل اسمه .

فهل كانت هذه هى النهاية ؟

□ □ □

□ ١١ □

وثائق وصور



□ هل فقد حياته لأنه غلّب ضميره الوطنى على ضميره المهنى ؟

□ دكتور أنور المفتى كان عالماً بارزاً .. ورجلاً شجاعاً .. ومشهوراً .. ولكنه ذهب ضحية قانون السرية

باسم الشعب

محكمة القيم

حكم

بالجلسة المنعقدة علنا بمقر دار القضاء العالي بمدينة القاهرة

في يوم [illegible] ١٤٠٠ هـ [illegible] ١٩٨٠ م

المؤلفة برئاسة السيد المستشار الدكتور [illegible] نائب رئيس محكمة [illegible]

وعضوية السادة المستشارين : [illegible] رئيس محكمة [illegible]

و[illegible] المستشار بمحكمة النقض

و[illegible] المستشار [illegible]

والشخصيات العامة السادة : [illegible]

والمهندس [illegible] وكيل أول وزارة [illegible]

والدكتور [illegible] عبد العليم [illegible] وكيل أول وزارة [illegible]

وبحضور السيد / [illegible] مساعد المدعي العام الاشتراكي

والسيد / عبد الحليم [illegible] أمين السر

أصدرت الحكم الآتي

في الدعوى رقم [illegible] جهاز المدعي العام الاشتراكي [illegible]

المرفوعة من

السيد المدعي العام الاشتراكي

ضد

١- الدكتور علي حسين العطفي [illegible] حاليا

٢- السيدة / أنا ماريا [illegible] زوجته

٣- [illegible] العطفي ابنه

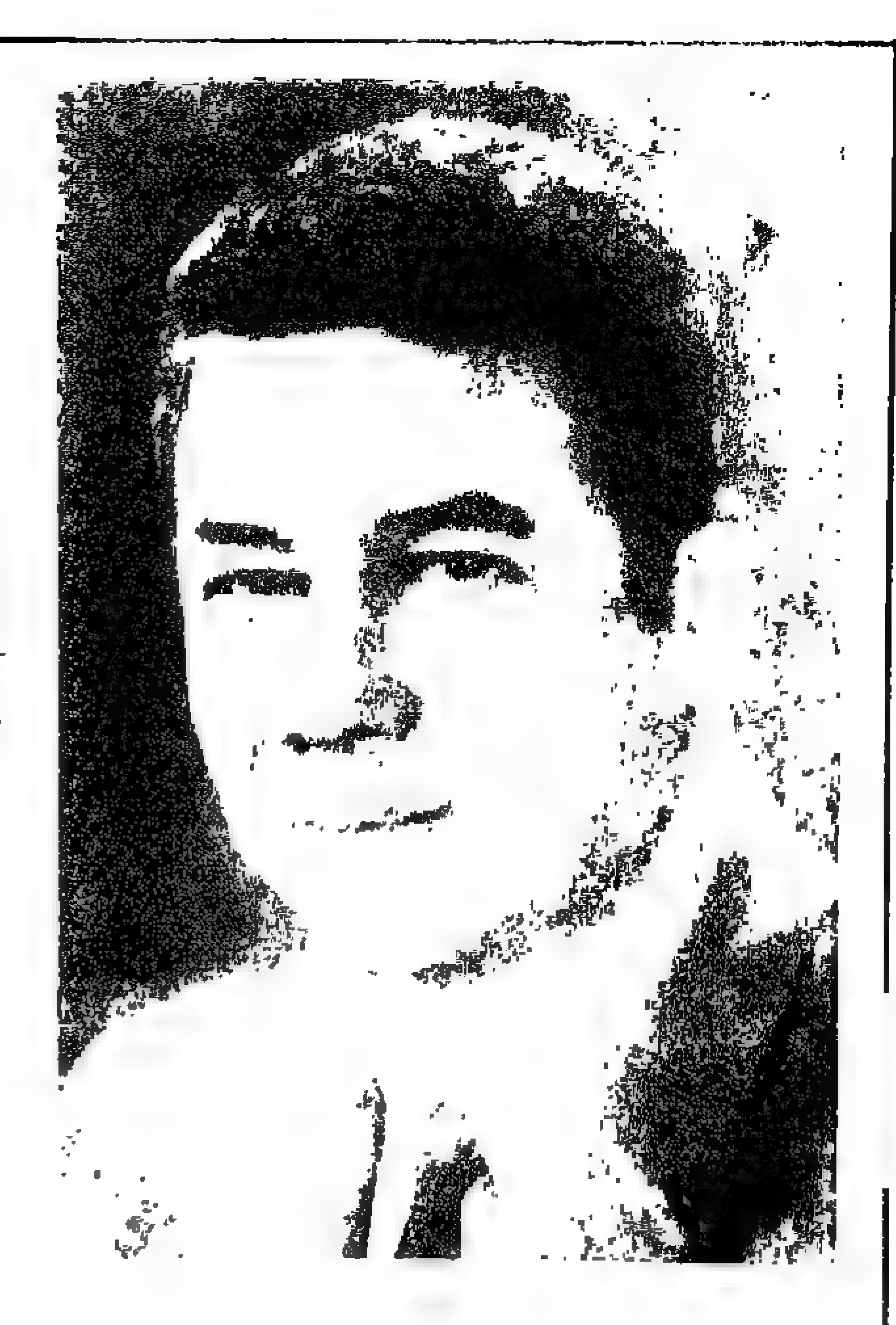
٤- شريف [illegible] العطفي ابنه

- وحضر [illegible] الأستاذ عادل أمين المحامي

الوقائع

[illegible] المدعي العام الاشتراكي [illegible] الى محكمة القيم [illegible] الشعب [illegible] عام ١٩٧٢ وحتى ١٩٧٩/٣/١٨ [illegible]

[illegible]



□ علي العطفي .. خان الوطن .. ولم يعدم وشارك في الحرب النفسية وهو في السجن لصالح إسرائيل .

□ الصفحة الأولى من حكم محكمة القيم

فلهذه الأسباب

[illegible] ٣٤ والمادة ٦٤ [illegible] ١٩٨٠ بإصدار قانون حماية القيم من العيب .

[illegible] المادة [illegible] ١٨ من القانون [illegible] بتنظيم فرض الحراسة وتأمين سلامة الشعب .

حكمت المحكمة : بفرض الحراسة على أموال [illegible]

[illegible] بأسباب هذا الحكم . [illegible]

[illegible] الأموال المفروضة عليها الحراسة [illegible]

[illegible] مبلغ مائة جنيه كنفقة شاملة شهرية [illegible]

[illegible]

رئيس المحكمة

[illegible]

أمين السر

عبد العليم [illegible]

□ حكم المحكمة

وحيث أنه من واقعات الدعوى - أخذا مما جاء [illegible] أوراقها والتحقيقات
التي تمت فيها [illegible] أنه منذ
منتصف عام ١٩٧٢ وحتى ١٩٧٩/١٢/١٨ بجمهورية مصر العربية : أتى أفعالا
[illegible]
[illegible] دولة عسكرية .

□ سطور من الحكم تبين بداية العمل لحساب إسرائيل فى منتصف ١٩٧٢

[illegible] . وقد قضت المحكمة العسكرية العليا بتاريخ [illegible]
[illegible] بالأشغال الشاقة المؤبدة [illegible]
[illegible] وقد تم التصديق على الحكم مع تخفيف [illegible]
[illegible] المؤبدة إلى الأشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما .

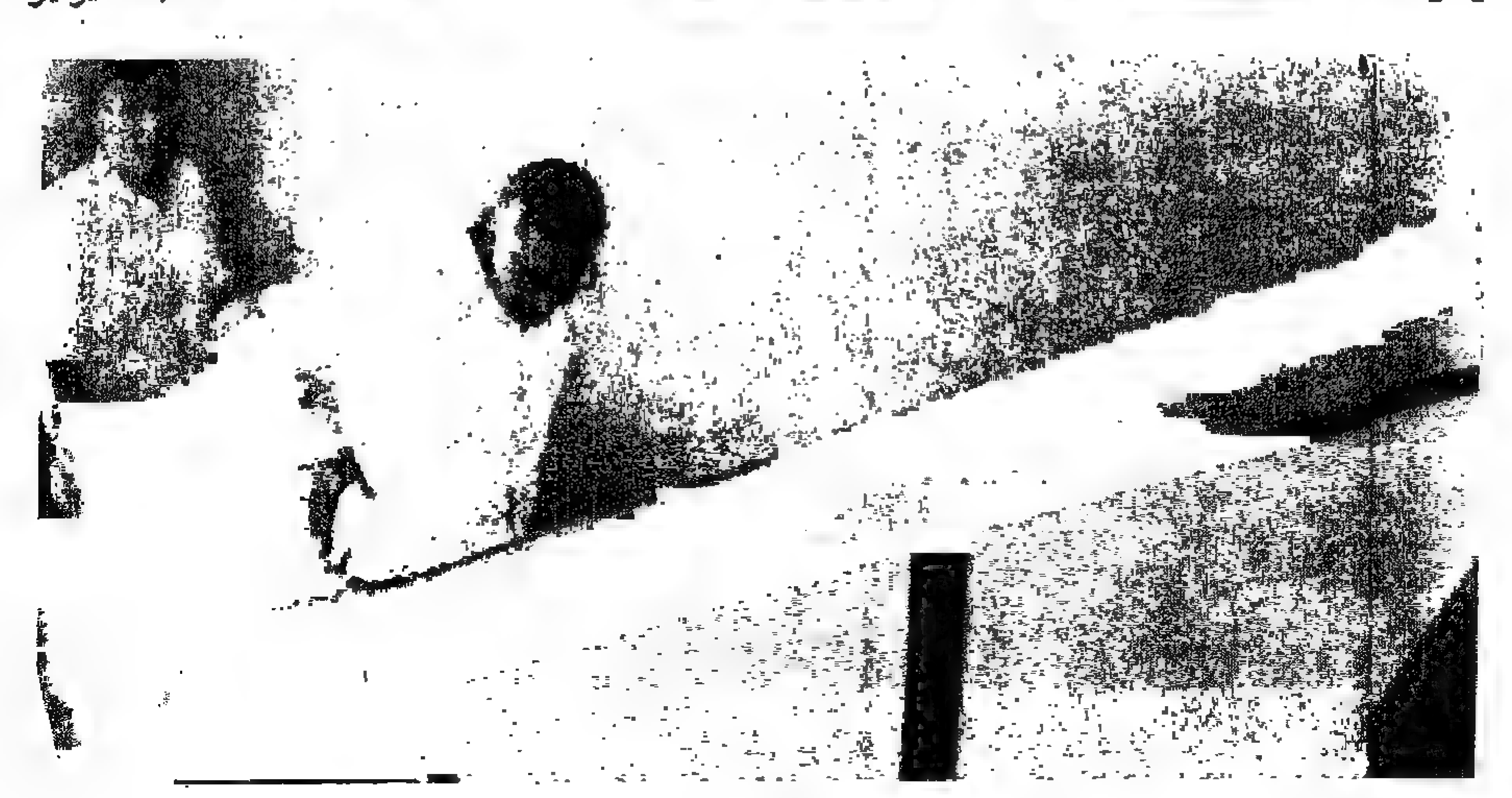
□ سطور من الحكم توضح كيف قام السادات بتخفيف الحكم المخفف أصلا إلى ١٥ سنة

□ □ □ □ □ □ □ □ □

□ شهور قليلة بين الصورتين .. ولكن الفارق أكبر بكثير من مجرد الزمن !

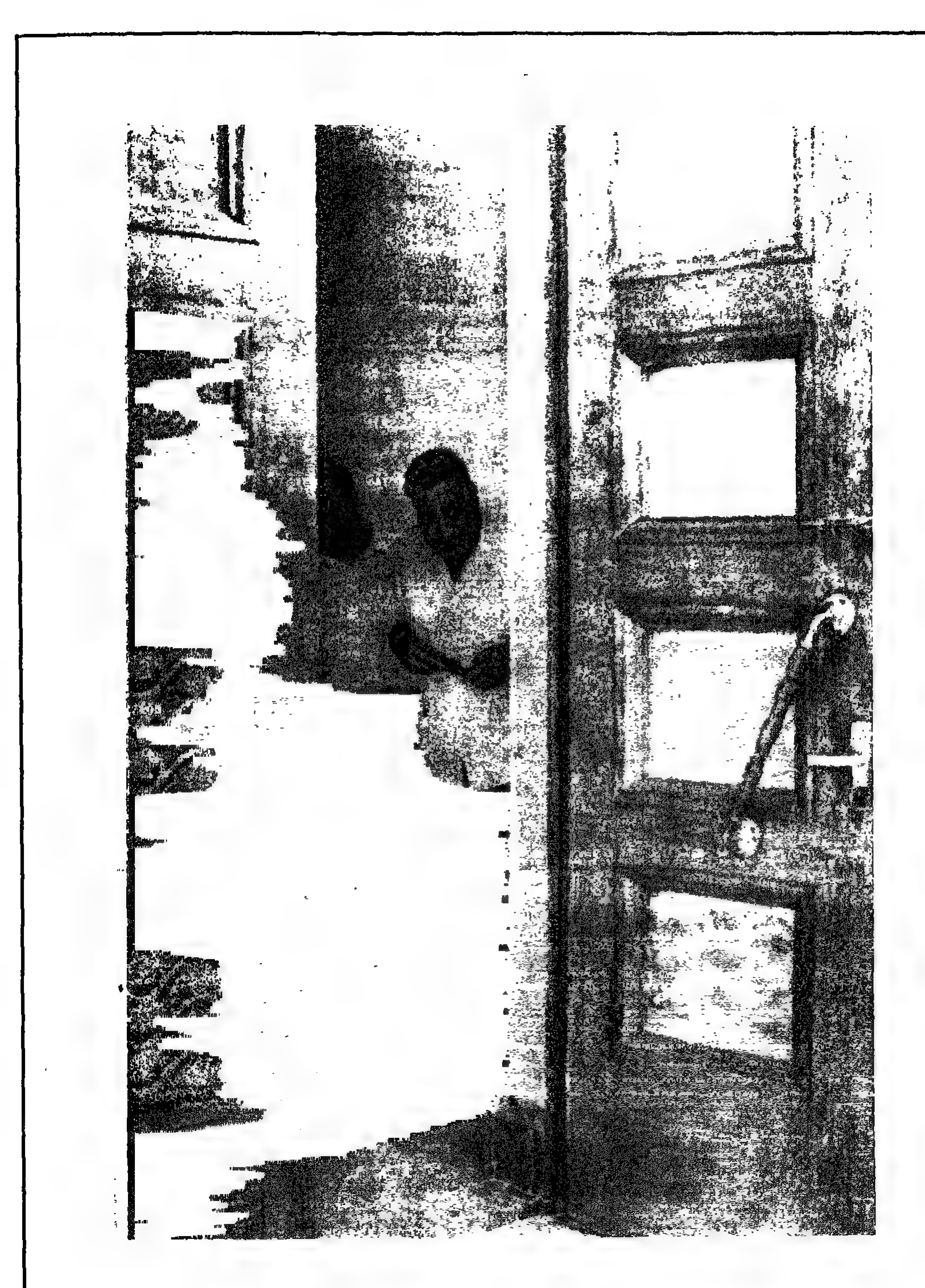


□ قبل يونيو ١٩٦٧ □ بعد يونيو ١٩٦٧

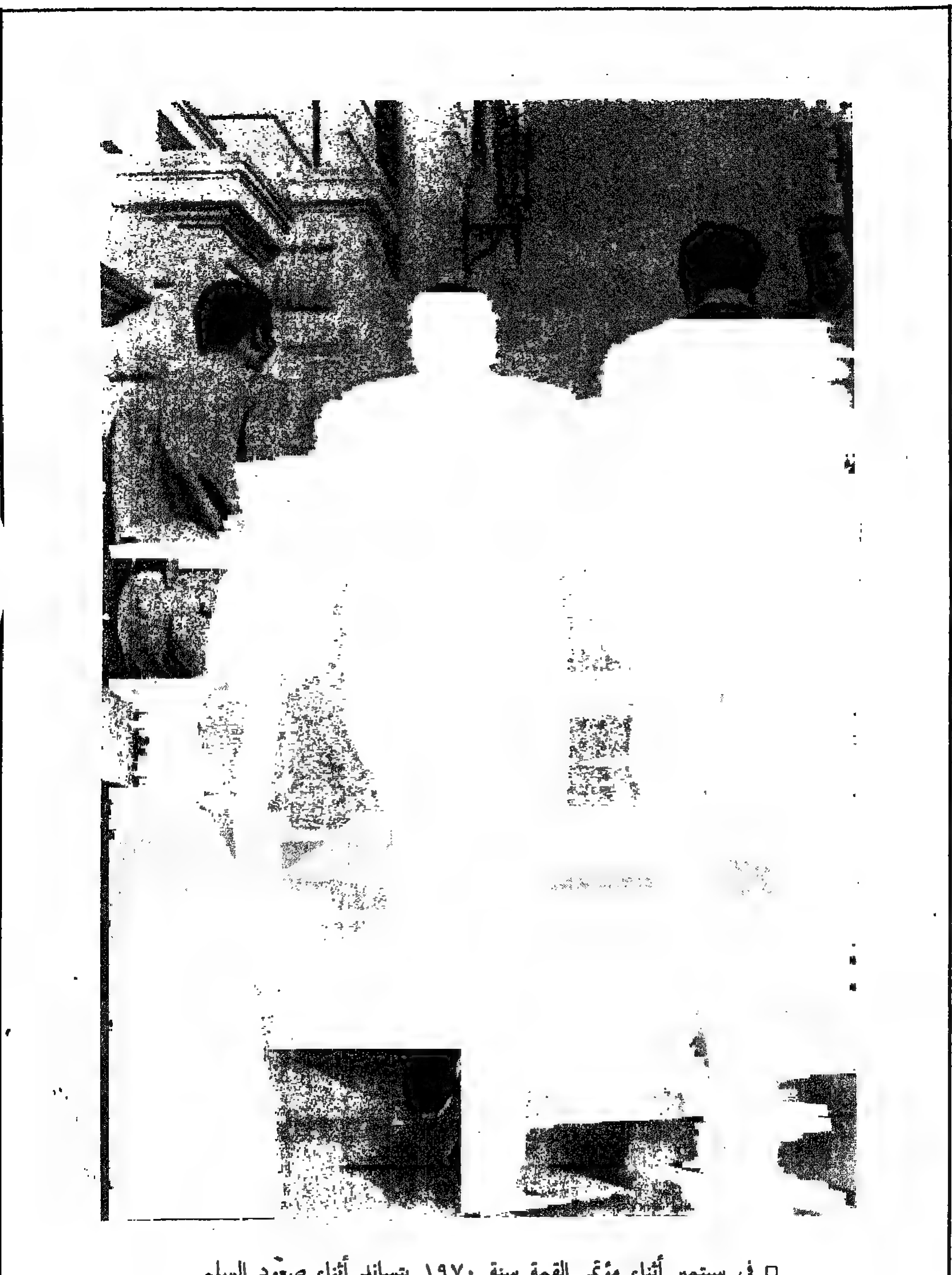


□ على سلم المصحة فى تسخالطوبو .. من مسلسل الصور التى لم تنشر فى حياته أبدا

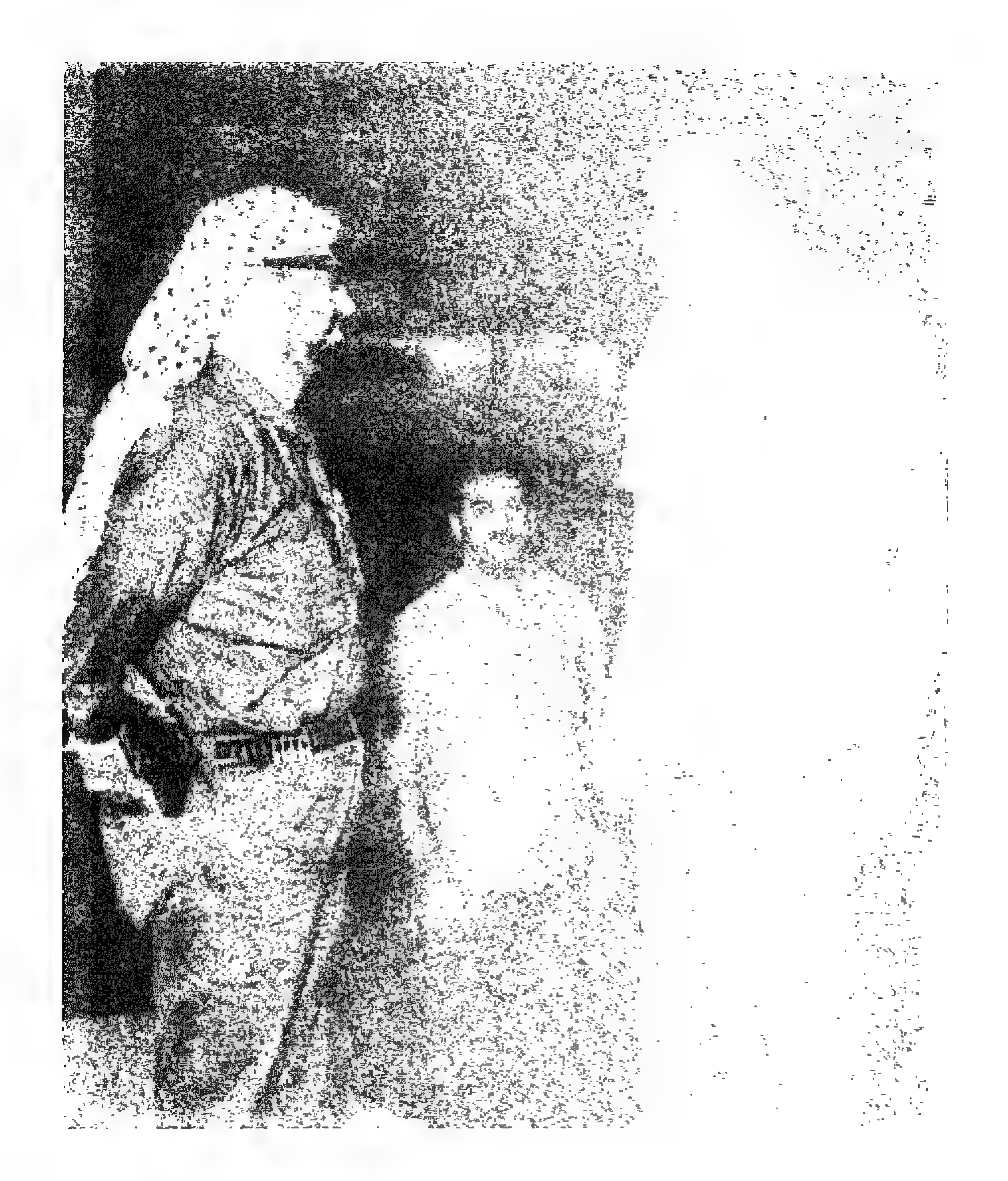
■ صور عبد الناصر من الكتاب المصور له الصادر عن مؤسسة الأهرام سنة ١٩٧١ .



□ صورة أبلغ من كل تعليق .. فى تسخالطوبو



□ فى سبتمبر أثناء مؤتمر القمة سنة ١٩٧٠ يتساند أثناء صعود السلم



□ مع عرفات الآتى من « أيلول » فى المؤتمر الأخير .. والساعات الأخيرة



□ آخر صورة نشرت لعبد الناصر .. وقد استند على أمير الكويت وهو يودعه .. وكان بحق « وداعا » !

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٠٥٧ / ٨٨

هذا الكتاب :

لا توجد ديموقراطية بلا معرفة .. ولا توجد معرفة بدون تنقيب هادىء فى وثائق التاريخ .. وحياة الذين صنعوه .. وكان عبد الناصر من هؤلاء .. لكنه عاش حياة شخصية محكمة السرية .. وقد شملت هذه السرية صحته ونهايته بالرغم من تأثيرهما على مصير وطن وأمة ..

وهذا .. بالتحديد .. الهدف من هذا الكتاب .. وهو هدف يصل إليه القارىء - فى اعتقادنا - من خلال تفاصيل ووقائع لم تُنشر من قبل .. وتكشف :

☐ **قصة جاسوس إسرائيل على خليل العطفى الذى قيل إنه قتل جمال عبد الناصر .**

☐ **هل قُتل الدكتور أنور المفتى بسبب مرض عبد الناصر ؟**

بالإضافة إلى تفاصيل وأسرار أخرى تحسم معظم الجدل الذى أُثير حول نهاية عبد الناصر .

إن السرية تصنع الغموض .. والغموض هو أفضل مناخ يستغله الانتهازيون .. والإسرائيليون .. وسارقو السلطة .. أما العلانية فهى شرط مقدس لمن يحلمون بالديموقراطية .

« الناشر »